

297



Bibliotheca Alexandrina



0177677

أعضاء اللجنة

- (١) أ.د. عاطف محمود نصر
- (٢) أ.د. محمد عبد المطلب
- (٣) أ.د. محمد السيد العبد
- محمّد
- محمّد

رئيس اللجنة
الله
١



جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد: هدى عطية عبد الغفار

إشراف

أ.د. محمد عبد المطلب أ.د. عاطف جودة نصر

٢٠٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح أبي...

إلى أمي...

إلى النور الذي يضيء وجهي كل صباح... والحضن الذي يحول الحياة

إلى دفء دائم زوجي وابنتي

شكر وتقدير

أتقدم بخالص شكرى وتقديرى لأستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب، على جهوده التى بذلها معى طوال فترة إعداد هذه الرسالة، وعلى توجيهاته ونصائحه القيّمة التى أسداها لى، وتبصيرى بأمور ينبغى مراعاتها آخذاً بيدى إلى بر آمن؛ إذ لم يبخل علىّ بعلمه، ومد يد العون لى، فله منى كل شكر وتقدير وعظيم الامتنان.

وأوجه بخالص شكرى لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور عاطف جودة نصر الذى أعاننى بعلمه الوافر، ومساندة الأب العطوف فلم يتوان لحظة عن تقديم العون والمساعدة لى كلما تعثرت بى الخطى، فهذا البحث مدين لأستاذى، فله منى كل حب واحترام وعرفان. نفعنى الله بعلمه، وجزاه عنى خير الجزاء.

كما أوجه بخالص الشكر وعظيم التقدير للعالمين الجليلين: الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد، والأستاذ الدكتور محمد السيد سليمان العبد، اللذين تفضلا على هذا البحث بقبول قراءته ومناقشته وتقويمه. نفعنى الله بعلمهما وجزاهما عنى خير الجزاء. ولا شك فى أننى سأفيد من ملاحظتهما وتوجيهاتهما، أملّة أن يخرج البحث فى صورة مرضية، وأن تتعلم الباحثة ما يقيها مستقبلاً من مواطن الزلل.

ولا يفوتنى أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ: بركات رياض، والأستاذة فاطمة عبد التواب والأستاذ ياسر الشرقاوى؛ لما بذلوه من جهد فى مراجعة هذا البحث، كما أشكر الدكتور أحمد جمال على تفضله بمراجعة الملخص الإنجليزى للبحث، وعظيم امتنانى للدكتور طارق شلبى الذى أسدى لى كل معونة ممكنة. شكر وعرفان إلى كل من أسهم فى إنجاز هذا البحث وهياً له سبيل النجاح.

جامعة عين شمس
كلية الآداب

عنوان الرسالة: السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

اسم الطالبة: هدى عطية عبد الغفار

الدرجة العلمية: الماجستير

القسم التابع له: قسم اللغة العربية وآدابها

اسم الكلية: الآداب.

الجامعة: عين شمس

سنة التخرج: ١٩٩٣

سنة المنهج: ٢٠٠

جامعة عين شمس
كلية الآداب
إدارة الدراسات العليا

رسالة ماجستير

اسم الطالبة: هدى عطية عبد الغفار

عنوان الرسالة: السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

اسم الدرجة: ماجستير

لجنة الإشراف

٢- الوظيفة/ أستاذ البلاغة والنقد - قسم
اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة
عين شمس.

٢- الوظيفة/ أستاذ الأدب والنقد - قسم
اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة
عين شمس.

١- الاسم/ ا.د. محمد عبد المطلب

١- الاسم/ ا.د. عاطف جودة نصر

تاريخ البحث ١١/ ٧/ ١٩٩٤م

الدراسات العليا

أجيزت الرسالة بتاريخ ٩/ ٧/ ٢٠٠١

ختم الإجازة:

موافقة مجلس الجامعة
/ /

موافقة مجلس الكلية
/ /
مكرر

فهرس محتويات الرسالة

مقدمة البحث	٢٠ - ١٤
الفصل الأول:	
السجع فى التراث العربى	٨٧ - ٢١
١- السجع فى اللغة والاصطلاح	٢٥
٢- التناول البلاغى لبنية السجع	٣٦
٣- مواصفات السجع الجيد	٥٥
٤- القيمة التحسينية للسجع والجدل البلاغى حولها	٦٧
٥- المهمة الموكلة بالسجع	٧٢
٦- السجع والفواصل	٧٦
الفصل الثانى:	
السجع القرآنى (كميًا - صوتيًا - شكليًا)	١٩٨ - ٨٩
١- الإحصاء الكمى ودلالته	٩١
٢- البناء الصوتى	١١٩
٣- البناء الشكلى	١٦٢
الفصل الثالث:	
السجع القرآنى والسياق	٢٦٦ - ١٩٩
١- العلاقات السياقية النحوية	٢٠٤
٢- العلاقات السياقية الدلالية	٢٤٩
٣- العلاقات السياقية الصرفية	٢٦٠
الخاتمة	٢٧٢ - ٢٦٧
ثبّت المصادر والمراجع	٢٨٤ - ٢٧٣
الملخص العربى	٢٨٥
المستخلص العربى	٢٩٣
الملخص الإنجليزى	٢٩٥
المستخلص الإنجليزى	٣٠١

المقدمة

المقدمة

موضوع هذا البحث هو: "السجع القرآني - دراسة أسلوبية"، ويمثل السجع ظاهرة من ظواهر التعبير في لغة النصوص الأدبية، بل في ذروة النصوص وهو القرآن الكريم، والواقع أنني معنية منذ فترة بتتبع نظامه في النص القرآني خاصة، وفي بعض الكتابات المسجوعة، راصدة أوجه الموافقة والمفارقة بين نظاميهما، هادفة إلى اكتشاف قانونه البنيوي الشامل، بوضع اليد على الشروط الأساسية التي تسود بنية السجع عمومًا، والتي في ضوئها يمكن اكتشاف نظامه الخاص في النص القرآني، كما يمكن تحديد الظواهر التي جاء فيها القرآن الكريم جريًا على سنن العربية من تلك التي تمنحه خصوصية مفارقة. وظاهر العنوان إن لم يتضمن إية إشارة إلى قضية الإعجاز، فإن البحث تطبيق عملي يكشف مظهرًا من أهم مظاهر الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم. وقد جذب هذا الموضوع انتباهي منذ سنوات خلت حينما قرأت دراسة بعنوان "السجع في القرآن بنيته وقواعده"، سعى مؤلفها "ديفين ج. ستيوارت" إلى تطبيق القواعد المستخلصة من الكتابات النقدية والبلاغية عند القدامى من أجل تحليل بنية السجع في القرآن، واستخلاص القواعد الشكلية التي تحكم هذا النوع من الإنشاء كما كان يعتبره.

طرحت هذه الدراسة على ذهني تساؤلاً: هل القواعد المستخلصة من الكتابات النقدية والبلاغية كافية لتقديم صورة فعلية لبنية السجع القرآني ووصف قواعده وظواهره، وبخاصة أن مادة البلاغة هي الشواهد المتفرقة والأمثلة المجتزأة؟ مثل هذا السؤال لا نتوقع له جواباً بعيداً عن استقراء يستتبط ما يتيح النص القرآني ذاته من خلال لغته، والاستقراء الكلي للنص يحقق إفادة على صعيد آخر، إذ يمكن عن طريقه التثبت من مدى دقة أحكام القيمة التي أطلقها النقاد حول ظواهر رصدتها البلاغة في معالجتها لبنية السجع. صحيح أن البلاغة العربية فيما مارست من رصد وتقعيد كانت تعتبر النص القرآني نموذجها الأول؛ فالسؤال الأساسي في مستوى البلاغة هو: كيف يمكن الظفر بقول ناجح؟ ومن أجل هذا كان التوجه إلى النص القرآني، المثل الأعلى في الأداء الفني الذي يصل إلى حد الإعجاز، ضرورة تفرض نفسها على البلاغيين بوصف استخدامه المحكم للغة معياراً يقاس عليه جودة الاستخدام المنشود. لكن

واقع البلاغة يشير إلى أن الرصد الذي يجاوز الجزئى إلى الكلى أحيانا لم يكن أحد إجراءاتها، وأيا كان الأمر فما زال هذا الكم الهائل من الملاحظات البلاغية متاحًا للدارس يعيد النظر فيه مرّة بعد أخرى فى ضوء دراسة أسلوبية تستقى أدواتها التحليلية من النتائج المعاصرة التى توصل إليها على اللغة، وبخاصة ما يتصل منها بالصوتيات، فالدراسات اللسانية تهب ثمار بحثها إلى الأسلوبية، غير أنه ليس كل شىء فى النص لسانياً، فدارس الأسلوب إذا لم يَغنَ بإسهامات التاريخ الأدبى، ولم يهتم بالسياق الحقيقى، واكتفى بالبحث عن العلامات فى الأشكال، أشكال التعبير أو أشكال المضمون سيفوته كما يذهب بعض الدارسين الجانب الواقعى للظاهرة المدروسة.^(١)

ولا شك أن القواعد المستخلصة من الكتابات البلاغية عند القدامى تظل ظواهر ينبغى التثبت من أنها متكررة فى النص، وأنها من لوازمه الأسلوبية بالفعل؛ إذ إن النظر إليها بهذا الاعتبار يرتبط بالشيوع والندرة النسيين فى إطار النص القرآنى بكامله. ومن ثم اتجه البحث إلى اختيار المنهج الأسلوبى يعتمد على الدراسة، نظراً لما يمتاز به هذا المنهج من تجاوز النظرة الجزئية فى التشخيص والوصف إلى نظرة كلية عامة تشمل النص بكامله، ومن موضوعية أساسها الاستفادة من مقاييس علمية دقيقة فى نتائجها كالأحصاء. والدراسة بحث تطبيقي فى ضوء عبارة مفادها: أن السجع القرآنى يستدعى من قبل غاية نصية هى التى أدنت له أن يوجد ضمن الخصائص الأسلوبية للقرآن، فهى تأتى فى إطار محاولة تطمح إلى رصد حقيقة توظيف السجع فى مواضعه من القرآن الكريم.

وقد تناولت دراسات عدة بنية السجع منها:

[١] دراسات بلاغية درست بنية السجع ضمن تناول عام للبديع، ويكاد عملها فى مجمله ينحصر ما بين الغاية التعليمية والغاية التاريخية، وتدور فى فلك الشرح والتكرار للمقولات القديمة.

[٢] دراسات عنيّت بالفاصلة القرآنية فى كتب مفردة أو كتابات متفرقة من كتب

(١) انظر: مدخل إلى الألسنية - جول فابر، كريستيان بايلون - ت طلال وهبة، المركز الثقافى العربى، ط١، سنة ١٩٩٢، ص ٢٣٤.

أشمل وأعم، ومنها: الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، ودراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، والفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى عيد محمد شبايك، وأول من سمى الفاصلة لمحمد الحسناوى.

[٣] دراسات عنيت بتناول السجع العربى، ومنها الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، والسجع نوع كتابى ضمن كتاب تحليل أسلوبية لمحمد الهادى الطرابلسى، ومدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى.

[٤] دراسات عنيت بالسجع القرآنى من مثل: السجع فى القرآن بنيته وقواعده لديفين ج. ستيوارت، ومن صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، والسجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن عبد الرحمن تاج... وغيرها.

كانت هذه الدراسات منارة يستضيء بها البحث فى بعض مواضعه فى إطار تناول يتميز عن المعالجات السابقة باتخاذ النص فى صورته الكلية مادة لتحليله، وبمحاولة الاستعانة بمستخلصات معاصرة تتصل بموضوع البحث.

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول وخاتمة؛ فانطلاقاً من كون السجع بنية بلاغية تم تأسيس مفهومها ومنظومة تقاليدها داخل التراث، جاء الفصل الأول من الدراسة "السجع فى التراث العربى" يعرض لهذه البنية داخل سياقات نشأتها راصداً ومحللاً عدداً من الآراء الخلافية المتعلقة بالسجع مفهوماً وتقعيداً وممارسة، فيقدم على المستوى الأول مفهوم السجع فى اللغة والاصطلاح متابعاً طريقة تعريفه بالإحالة على القافية، وكيف أن هذه الطريقة كانت ذات أثر بالغ فى توسيع الإطار المفهومى لمصطلح السجع، وفى صياغة بعض قواعده. وعلى مستوى الشرح والتقنين عنى البحث باستعراض مجموعة من الآراء لدى النقاد والبلاغيين تتصل بأمور من مثل: تحديد أوجه السجع، والوزن المعتبر فيه، وترتيب قوالب تشكّله المسافى على سلم القيمة، ومواصفات الجودة التى ينبغى أن تتوافر له، والدراسة تناقش الجهد الذى حاول أن يجعل مهمة السجع مهمة إضافية، وأخيراً تضرب فى جذور الإشكالية الخاصة بنفى السجع عن القرآن، واستخدام الفاصلة بوصفها المصطلح البديل.

وتنتقل الدراسة من التمهيد النظرى إلى البحث التطبيقى لتأخذ الممارسة الأسلوبية، فى الفصل الثانى، دورها فى استخلاص نتائج متعلقة بالسجع القرآنى: (كمياً، وصوتياً، وشكلياً)، حيث ترصد الدراسة مدى ميل النص القرآنى إلى استخدام بنية السجع، وكان توضيح المقصود بالسجع قبل بدء الإحصاء مطلباً يعلن عن التصور النظرى الذى تنطلق منه الدراسة التطبيقية خاصة مع تعدد مفهوم السجع فى البلاغة القديمة، وتتحرك الدراسة بعد ذلك صوب إجراء يمكن من تقسيم الكلام المسجوع إلى وحدات سجعية بحيث يأتى لها تحديد الآيات المنتمية إلى السجع والآيات المنتمية إلى الترسل، وبحسب ذلك التقسيم يتم الإحصاء واستبيان ما ينم عنه من خصائص أسلوبية فى النص القرآنى.

وعلى مستوى البناء الصوتى يتتبع البحث الظواهر الصوتية ذات التردد الواضح فى موضع السجعة القرآنية، خاصة منطقة النقل السجعى، والمهيئات الصوتية التى تسبقها من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، كما تهتم برصد عناصر التناسق السجعى فى متن الآيات وعلاقتها بالسجع الختامى بوصفها جزءاً من فعل النص فى إحداث إيقاع صوتى صاعد. هذا وتعنى الدراسة بالرخص الصوتية من حذف وزيادة، تلك الرخص التى تظهر فى منطقة النقل السجعى.

وفى مستوى البناء الشكلى تتابع الدراسة أطوال العبارات السجعية وطرق ورودها فى الوحدات طوياً وقصراً. وفى سبيل إيضاح المنهج الأسلوبى فى ذروة تطبيقه عمد البحث إلى الجداول الإحصائية لرصد وتتبع تكرار اللوازم الأسلوبية فى السجع القرآنى فى كل بناء.

أما الفصل الثالث، فقد خصص لتناول السجع القرآنى فى علاقته بالسياق اللغوى ويعنى بحث السجع فى سياقه اللغوى أو الداخلى، دراسته العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب. وكيفية احتضان التركيب لها، ثم إعادة إنتاج معناها مرة ثانية، وهل يسير هذا الاحتضان وفق القواعد المنظمة لترتيب الكلمات على مستوى التركيب العربى يراعى فيه العلاقات التوافقية بين عناصر الجملة على كل مستويات الوصف اللغوى، أى على

المستويات: النحوية، والصرفية، والدلالية، أم أن هناك أنماطاً طارئة من العدول أو الترخص المهيئ لاستقرار الفاصلة المسجوعة في مواضعها: كالاتجاه إلى إحداث علاقات تخالفية مقصودة بين المبتدأ والخبر، أو بين الصفة والموصوف مثلاً، أو كحدوث مفارقات في العلاقات المعجمية التركيبية، وهي ظاهرة تبدو على الخصوص في المجازات اللغوية (كالتشبيه والاستعارة) والمجازات العقلية، والكنائيات. هذا إضافة إلى ملاحظة العدول الذي قد يحدث في السلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية من جهة التركيب؛ وذلك بالخروج على القواعد المنظمة لترتيب الكلمات بتقديم وتأخير، وزيادة أو حذف أحد عناصر الجملة.

وتقوم الدراسة في مستوى رصد العلاقات السياقية النحوية بتحليل سورة الزخرف لاكتشاف الظواهر الأسلوبية فيها التي مهدت لاستقرار السجع في ختام الآية. وخلال ذلك يتم ملاحظة تلك الظواهر في النص القرآني بأكمله.

وأخيراً جاءت الخاتمة كي ترصد النتائج التي توصل إليها البحث عبر فصوله الثلاثة.

لا تغنى البلاغة القديمة عن محاولة مقارنة المناهج المعاصرة، ولعل اعتماد البحث في دراسة السجع القرآني على المنهج الأسلوبى، قد جعل النظر في هذه الظاهرة نظراً موضوعياً محايداً دونما تأثير من جانب أو زاوية أخرى غير زاوية النص. ولقد أفرز الدرس النقدي القديم جملة من أحكام القيمة المتصلة بالسجع من جهة تقنياته، والمحاولة التي يبذلها البحث الأسلوبى هي محاولة ربط الحكم النقدي بالخواص الأسلوبية الموضوعية المستخلصة من متابعة السجع القرآني.

وفى الختام أرجو أن يكون البحث قد قدّم شيئاً جديداً وجديراً بالنظر. وحسبه أن يكون لبنة في صرح يقوم فيه المتخصصون باستبدال معايير موضوعية لتحليل النص بمعايير ذاتية انطباعية.

هذا، وبالله التوفيق، فهو سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو يهdy السبيل.

الفصل الأول

السجع فى التراث العربى

- ١- مفهوم السجع فى اللغة والاصطلاح
- ٢- تناول البلاغى لبنية السجع
- ٣- مواصفات السجع الجيد
- ٤- القيمة التحسينية للسجع، والجدل البلاغى حولها
- ٥- المصنعة الموكلة بالسجع
- ٦- السجع والفواصل

ليس من الضروري أن ترفع الممارسة التطبيقية شعار العودة إلى التراث إلا إذا كان هناك داعٍ يحتم التمهيد للبحث التطبيقي بفصل نظري؛ وهذا ما يتفق ورؤية دراستنا، فالتمهيد النظري فيها أمر فرضته خصوصية الظاهرة البلاغية المدروسة؛ إذ يؤكد المسار التاريخي للسجع، استخداماً وتقنيًا، أنه من أقدم بنى البلاغة العربية ظهوراً، وأكثرها امتداداً في تاريخ النتاج الأدبي. فقد شكل ملمحاً مهماً في الكتابة العربية من حيث هو علامة أنواع أدبية مختلفة تتحرك في مسافة زمنية طويلة بدءاً من سجع الكهان والخطب والأمثال الجاهلية ووصولاً إلى المقامات والرسائل. وبدهى أن منظومة التقاليد الخاصة بالسجع قد تم تأسيسها داخل التراث، وأن إشكالاته قد تولدت نتيجة لمراحل التحول فيه؛ ومن ثم فإن دراسة هذه البنية تقتضى من البحث التوقف بداية عند المفاهيم والتصورات التي خلفها الدرس القديم؛ للاستفادة من تحليلاته اللغوية والبلاغية والنقدية. فالبحث التطبيقي للظواهر التي لها تاريخ، مدعو -مهما كان المنهج الذي ينطلق منه- إلى الانتفاع بما خلفه التراث، وإلى مواجهة مع الدرس القديم بفروعه البلاغي والنقدي واللغوي؛ حتى يتسنى له تحرير مفاهيمه داخل سياقات نشأتها. وليس معنى هذا أن البحث يلج من باب قدسية الأفكار المتوارثة، وإنما معناه أنه يدرك ابتداءً في مثل هذه الظواهر وهم البدء من نقطة الصفر.

فالحديث عن السجع كان من الأمور التي شغلت بال البلاغيين والنقاد القدامى لتمام هذه البنية بالبناء الشكلي للنص القرآني، فاتخذوا من تلك الإشكالية محوراً أسسوا عليه مؤلفاتهم. وإذا كان أول ما يطالعنا من جهود البلاغيين والنقاد ذلك الجهد المبذول لإظهار مباينة القرآن للشعر مباينة اعتمدت تحليل المعطيات الشكلية لكلا النصين -فقد وجدناهم، بالمثل، يولون عناية كبيرة بمناقشة علاقة القرآن بالسجع من باب مباينة القرآن للنص السجعي كذلك، بيد أن الدارسين لهذه القضية لم يعمدوا إلى التحليل الشكلي، بل صدروا في تحريمهم إطلاق السجع على ما في القرآن، عن جملة من الحجج الكلامية، وإذا قمنا بالتحري عن ذلك المسلك استطعنا أن نفترض أن إيغالهم فيه كان بمثابة القناع الواقى من مواجهة مسألة مباينة القرآن للسجع من خلال تحليل المعطيات الشكلية للنص السجعي الجيد؛ حيث إن تلك المواجهة من المنتظر أن تتعطف بهم بعيداً عن صدق مذهبهم في التحريم. والبحث، إذ يعكف على دراسة بنية السجع، يلزمه أن يقف على معالجة التراث لها؛ كي يتأملها واضعاً في حسابه إشكالياتها التراثية. ولست أقصد بذلك أن البحث الأسلوبى يبدأ من حيث تنتهى البلاغة، أو

أنّ المرجو منه استدراك ما ندب عنها؛ فالاختلاف بينهما هو اختلاف منهجى، لكننى أتفق مع واحد من النقاد المعنيين بأسلوبيات اللغة الأدبية، أتفق معه فى أن التحليل الأسلوبى "عمل ينبغى أن يُمهّد له بأعمال تحضيرية ليست من صميمه، لكنه لا يجرى إلا بعد حصولها، أهمها... معرفة ما استقر عليه العرف فى الوضع اللغوى والدرس النقدى والتاريخ الأدبى؛ استعدادا لتحديد مظاهر التعبير، وعناصر الإضافة، ومواطن الإبداع التى تقدّمها النصوص المدروسة".^(١)

(١) تحاليل أسلوبية، محمد الهادى الطرابلسى، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢، ص ١٠.

[١] السجع في اللغة والاصطلاح

المفهوم اللغوي للسجع:

ظل المعجم اللغوي رافداً أساسياً يمد البلاغيين بمفردات تهيأت للانتقال من صلب النظام اللغوي التواصلى لتتدرج ضمن نظام ثان تكون لها دلالة مفارقة على نحو أو آخر لدلالاتها الوضعية أو العرفية الأولى؛ فهي علامات مشحونة بدلالات اصطلاحية جديدة. وبهذه الطريقة تولدت اللغة الاصطلاحية الخاصة بالبلاغة منذ ما قبل الإسلام، فجاءت غالبية المصطلحات من أصل لغوي. واختيار إحدى مفردات اللغة لتمثل مصطلحاً لمفهوم معين -أمر لم يكن يتم بطريقة عشوائية، فهناك مبدأ يقيد ذلك الاختيار، إذ لابد من وجود تشابه بين مفهوم هذه المفردة في النظام الدلالي للغة وبين المفهوم الاصطلاحى الذى تتخذ رمزاً له. ومن هنا يُعنى البحث بالتوقف عند التعريف اللغوي "السجع"؛ بوصف هذه اللفظة ذات وجود مزدوج فى المعجمين اللغوي والاصطلاحى معاً. فالتعريف اللغوي يكتسب هنا قيمة خاصة؛ حيث إنه يلفتنا إلى السر فى اختيار لفظة (سَجْع) لتكون رمزاً للمفهوم الاصطلاحى، كما إنه يفيد فى الإجابة عن السؤال التالى: إلى أى حد تحتفظ الدلالة الاصطلاحية فى عمومها بالمعنى اللغوي؟

السجع مأخوذ من الأصل الثلاثى (س. ج. ع)، وتسجل المعاجم جملة من معانيه التى ترشدنا إلى أصل اشتقاقه؛ إذ يشتد الشبه بينها وبين المعنى الاصطلاحى للسجع، يقول على بن إسماعيل بن سيدة (ت ٤٥٨هـ)، فى معجمه "المحكم والمحيط الأعظم": "سجع يسجع سجعاً: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضاً. قال ذو الرمة:

قَطَعْتُ بِهَا أَرْضًا تَرَى وَجَةً رَكْبَهَا إِذْ مَا عَلَوْهَا مَكْفَأٌ غَيْرَ سَاجِعٍ

وسجع الحمام يسجع سجعاً: هذل على جهة واحدة. وفى المثل "لا آتيك ما سجع الحمام" يريدون: الأبد... وسجعت الناقة سجعاً: مدت حنيتها على جهة،

وسجعت القوس كذلك، قال يصف قوساً: (١)

وَهى إِذَا أَنْبَضَتْ فِيهَا تَسْجَعُ تَرْنَمُ النحلِ أبى لَا يَهْجَعُ

قوله: "تَسْجَعُ" يعنى حنين الوتر لإنباضه، يقول: كأنها تحن حنيناً متشابهاً. وكله من الاستواء والاستقامة والاشتباه. وسجع له سَجْعاً: قصد". (٢) وتُعد تلك المعانى اللغوية تفصيلاً للتعريف الذى قدمه ابن فارس اللغوى (ت ٣٩٥هـ) فى قوله: "السين والجيم والعين أصل يدل على صوت متوازن" (٣)؛ فالمفاهيم التى طرحها ابن سيدة يلمح فيها جميعاً خاصية التوازن الصوتى. فهى إما تعبير عن النغم المتكرر فى هديل الحمامة، أو الحنين المتشابه فى صوت الناقة، أو صدى إنباضة الوتر الذى يماثل ترنم النحل.

المفهوم الاصطلاحي للسجع:

أظهر ما يمكن الاستدلال عليه من تاريخ مصطلح السجع، هو كونه مصطلحاً موعلاً فى القدم باعتبار انتمائه إلى العصر الجاهلى وبدايته على يد الكهنة. وحرى بنا حين نتصدى لاستيضاح المفهوم الاصطلاحي للسجع أن نعيّنه بداية فى إطار النظرات اللغوية؛ فإن للغويين العرب منذ القدم أوليتهم فى البحث الاصطلاحي، بما فى ذلك المصطلح البلاغى.

والملاحظ أن تعريف بعض المصطلحات القديمة كان يتم دون توضيح لخصيات هذه المصطلحات، وإنما كانت الإحاطة بمفاهيمها تعتمد على ما يمكن

(١) ورد هذا البيت فى "المحكم" غير منسوب لقائله، وكذلك ورد البيت عند ابن منظور فى اللسان غير منسوب لقائله أيضاً. انظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م، مادة (س.ج.ع) جـ ٨، ص ١٥١.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، على بن إسماعيل بن سيدة، ت مصطفى السقا، وحسين نصار، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، ط ١، د.ت. مادة (س.ج.ع)، جـ ١، ص ١٧٨.

(٣) مقاييس اللغة: ابن فارس اللغوى، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١، مادة (س.ج.ع)، جـ ٣، ص ١٣٥.

تسميته (التعريف بالمشابهة)، وأعنى به: تقريب المفهوم إلى ذهن المتلقى من خلال مفهوم آخر شائع مشهور، وهذا ما حدث مع مصطلح السجع؛ حيث صيغت التعريفات الأولى له بالإحالة على القافية.

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) أول من عرف السجع باستخدام طريقة "المشابهة"، إذ يقول: "سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن".^(١) ومن الملاحظ أن تعريف الخليل لم تمله طبيعة التلقى التي تحتكم إلى مصطلح (القافية) الشائع فحسب، وإنما أملتة ميول الخليل ونوعية اشتغاله، إذ انصب اهتمامه على الشعر، وصار الأصل الذي يقيس عليه كل شبيهه. فالتأصيل للشعر كان أسبق وأكثر من التأصيل للأنواع الأدبية الأخرى، وقد أفرز عالم الشعر مفاهيم استقرت في ذهن المتلقى، ولولا استقرار هذه المفاهيم لما أفلحت أن تؤدي دورا في تبسيط المفهوم.

والظاهر أن الخليل حينما قفى على تعريفه بعبارة "من غير وزن"^(٢) لم يكن يقصد أن الوزن لا مكان له مع السجع مطلقا، والتأمل الذي يبدو لى أقرب للصحة هو أن الخليل يعنى أن الاتفاق في الوزن ليس مشروطا بقدر ما هو جائز؛ وهذا ما تؤكد الأمثلة المسجوعة التي أوردها من كلام العرب، إذ كان

(١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٧ م، مادة (س.ج.ع)، ص ٢٤٤.

(٢) من الواضح أن المقصود بالوزن في عبارة الخليل هو الوزن العروضي؛ إذ يُطلق (الوزن) ويراد به إما الدلالة العروضية من حيث الأسباب الخفاف والثقال، والأوتاد المجموعة والمفروقة، والفواصل الصغرى والكبرى، من جهة هيئة العلاقة في التتابع بين المتحرك والساكن على نحو ما هو معروف في علم العروض، وإما الدلالة الصرفية (المورفولوجية) مما يعرف بالميزان الصرفي.

ويؤول كلاهما إلى ما يجرى على مادة الفاء والعين واللام (فعل) من تغيرات. وقد يتفق الوزنان؛ العروضي والصرفي، وقد يختلفان ففي قول أبي نواس يمدح الخصيب أمير مصر "أكل لحيات البلاد شروب" وهو شطر من الطويل نلاحظ أن قوله أكل من باب الاتفاق في الوزن عروضيا وصرفيا إذ وزنها فعولن، وأما قوله شروب فمن باب الاختلاف، إذ يأتي الوزن الصرفي على فعول، أما الوزن العروضي فعلى مفاعى بحذف السبب الخفيف وهي التي تنقل إلى "فعولن" لأنها بمقدار واحد من جهة الحركة والسكون.

أغلبها متفقا وزنا. (١) ولقد حذف ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) عبارة (من غير وزن) حيث قال: "السجع في الكلام هو أن يؤتى به وله فواصل كقوافي الشعر كقولهم: من قلّ ذل، ومن أمر قلّ". (٢) وأحسب أن ابن فارس كان يضع في اعتباره ذلك الجدل الذي طرَحَ على الساحة البلاغية حول قيمة التعادل الذي يحدثه اتفاق الوزن بين ألفاظ الفواصل، فأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) يذكر في كتاب "الصناعتين" شيئا من هذا، يقول: "ينبغي أن تكون الفواصل على زنة واحدة وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن". (٣)

* * *

وإذا كان اللغويون قد أسهموا -في حدود نشاطهم- في توضيح معنى السجع، فإن كتب البلاغة العربية اضطلعت -بحكم موضوعها- بدور التعريف والرصد والتنظير والتحليل الممعن والمدقق لهذه البنية البلاغية التي تجلّى بحثها مقترناً بالإرهاصات الأولى في الدرسين البلاغي والنقدي، نابعا من منطلقين في التأليف، أحدهما: الكشف عن تقاليد الفن في البيان العربي؛ فعبر هذا الغرض تمّ معالجة السجع، وأسهم البلاغيون في تعريفه وتنميط أشكاله، إذ كانت مقولة السجع تمثل واحدة من مقولات تؤسس في مجموعها حقلاً سموه علم البديع، واندراج السجع ضمن هذا العلم لا يصرف النظر عن المعالجات الخاصة لهذه المقولة في الكتب البلاغية في مرحلتها الأولى قبل التنظيم الدقيق لمباحث البلاغة في تقسيم ثلاثي، وقبل استقلال البديع وحده بنسق محدد. فقد أثارت هذه المعالجات الكثير من الأسئلة البلاغية المتصلة بالسجع، كما أسهمت في بلورة تعريفه وفي رصد عدد من الأمثلة التي تناقلتها المؤلفات فيما بعد.

وكان من الطبيعي أن يكون المنطلق الثاني لتناول بنية السجع هو الاشتغال بالبحث عن مزية النص القرآني والاحتجاج له بالإعجاز، ويمدنا عمل الإعجازيين من أمثال الرمانى والباقلانى بمحاولات قصدية للتفريق بين السجع

(١) من الأمثلة التي ذكرها الخليل بن أحمد "لصها بطل وتمرّها دقل"، و"إن كثر الجيش بها جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا". انظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة (س.ج.ع)، ص ٢٤٤.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (س.ج.ع)، ج ٣، ص ١٣٥.

(٣) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ت مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٨٩.

العربى وما فى القرآن مما هو على صورته.

ولعل، أول ما يُلحظ فيما يتعلق بالمفهوم الاصطلاحي للسجع فى كتب البلاغة، أن تعريف الخليل بن أحمد لقي صدى لدى البلاغيين ممن نهجوا نهجه فى التعريف بالمشابهة، فهذا "فخر الدين الرازى" (ت ٦٠٦هـ) يقدّم تعريفاً للسجع اعتماداً على ما ذكره "على بن عيسى الرمانى" (٢٩٦هـ - ٣٨٦هـ) والصلة ظاهرة بين ذلك التعريف وتعريف الخليل، فالسجع عند الرازى هو "تكلّف التقفية من غير تأدية الوزن".^(١) إلا أن بعضاً من الأمثلة التى أوردها جاءت سجعاتها متفقة وزناً مما يعنى أن النفى هنا لم يكن قطعياً وإنما على سبيل عدم الاشتراط،^(٢) وربما كان ذلك رداً على التصور الذى قدمه غير واحد من البلاغيين، والذى يقضى بأن الوزن شرط أساسى فى تحقيق السجع.^(٣)

وفى مفتاح العلوم يقول السكاكى (ت ٦٢٦هـ) بناء على التعريف الذى استقاه من سابقه: "الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر".^(٤) مكتفياً بالتشبيه دون أن يعمد إلى تحديد مجال التشابه بين السجع والقافية. بيد أن ابن يعقوب المغربى قد قام - فيما بعد - بتجريب بعض الارتباطات بينهما تبعاً لقراءة ظاهر التشبيه وقراءة باطنه، محاولاً تحديد مفهوم السجع انطلاقاً من تشبيهه بالقافية،

(١) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فخر الدين الرازى، ت إبراهيم السامرائى، محمد بركات حمدى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥، ص ٦٥.

(٢) من الأمثلة التى ساقها الرازى، ويُلحظ أن سجعاتها متفقة من حيث الوزن، قوله تعالى: ﴿لَهَا فِيهَا سِرٌّ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾، حيث تتفق الألفاظ "مرفوعة" و"موضوعة" فى الوزن الصرفى والعروضى معاً. راجع نهاية الإيجاز، فخر الدين الرازى، ص ٦٥.

(٣) يعد ابن الأثير واحداً ممن اشتراطوا الوزن فى تحقيق السجع، ويصيح ذلك فى صورة مسلمة، إذ يقول: "كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعاً". ويقصد بالموازنة اتفاق الفواصل فى الوزن، وهذا يعنى أن السجع عنده يجتمع فيه أمران: التماثل الحرفى، والاتفاق الوزنى. راجع، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥، ج ١، ص ٢٧٢.

(٤) الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، ت محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣، ج ٢، ص ٥٤٧. وانظر كذلك، مفتاح العلوم، السكاكى، ت نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٤٣١.

ومن هذا المنطلق جعل يتساءل: علام يطلق "السجع" على اللفظة الأخيرة من الفقرة المسجوعة، أم على التوافق الحادث بين اللفظين الآخرين من التركيب السجعي؟ راداً جماع الأمر إلى ما يكشف عنه التشبيه، يقول: "وعلى كل حال فليست القافية عبارة عن تواطؤ الكلمتين في آخر البيتين، فالمناسب في التشبيه بها أن يراد بالسجع في كلامه [يقصد السكاكي] اللفظ لا توافقه الذي هو مصدر هو وصف لذلك اللفظ... لأن الكلام في تحرير الاصطلاح، ولا يلزم كون الشيء علة في التسمية الاصطلاحية، كون تلك العلة هي المسماة. نعم، إن تقرر للسكاكي كون التوافق هو المسمى جاز أن يقال: وهذا مراده على معنى تقدير المضاف، أي توافق الفواصل في النثر كتوافق القوافي في الشعر، وهو خلاف الظاهر... فلما انفتح باب التأويل في كلام "السكاكي" جاز حمله على ما ذكر... فتحصل من ظاهر ما تقرر عند المصنف والسكاكي أن السجع قد يطلق على نفس الكلمة الأخيرة من الفقرة لموافقتها للكلمة الأخيرة من فقرة أخرى، ومرجع المعنيين واحد".^(١)

وكما هو واضح من نص ابن يعقوب، فإنه عرّف السجع مقايضة، فكان قياس السجع على القافية هو السبب في ترشيح ذلك المفهوم الذي تبناه، وإن يكن قد خالف به إجماع البلاغيين على أن المقصود بالسجع هو التوافق الحادث بين الألفاظ الفواصل المتماثلة في الحرف الأخير لا الكلمة الأخيرة ذاتها. يقول ابن سنان (ت ٤٦٦هـ) السجع هو "تماثل الحروف في مقاطع الفصول".^(٢) ويعرفه ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) بأنه "تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد".^(٣) ويلتقى معه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) فيذكر تعريفاً يتطابق مع تعريف ابن الأثير معنى وإن كاد يختلف لفظاً، إذ يقول: "ومنه [أي من المحسنات اللفظية] السجع، وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد".^(٤) وحينما

(١) مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، سعد الدين التفتازاني، ابن يعقوب المغربي، بهاء الدين السبكي، دار الهادي، بيروت، ط ٤، ١٩٩٢، ج ٤، ص ٤٤٥.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ت على فودة، مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٩٩٤، ص ١٦٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، محمد محي الدين عبد الحميد، ج ١، ص ١٩٥.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ج ٢، ص ٥٤٧.

نتابع شرّاح التلخيص فيما عقّبوا به على تعريف القزويني نجدهم يضيفون إليه عبارة "في الآخر"؛ أي اتفاق الفاصلتين في كونهما على حرف واحد كائن في آخرهما.^(١) وهذه إضافة قصد منها إبراز البعد المكاني لبنية السجع، غير أننا حين نعرضها على القانون الذي رده مجتمع البلاغيين والنقاد القدامى والمتمثل في اشتراط بناء السجع على الوقف تحقيقاً لدوره الإيقاعي - يتكشف أن ذلك التحديد المكاني لا ينبغي أن يُسلم به تسليماً تاماً؛ فالتوافق لا يكون واقعاً في الحرف الأخير إلا إذا كان الوقف بالسكون. والحقيقة أن تحديد شرّاح التلخيص لموضع السجع لا يضع في الحسبان الحالات التي يكون الوقف فيها حرفاً لاحقاً لحرف التسجيع، كحالات: الوقف بألف الإطلاق، أو هاء السكت، وهذه إشكالية يُعنى البحث بالتوقف عندها في فصل لاحق.

بيد أن تعريف السجع الذي صاغه وتداوله جمهور البلاغيين والنقاد يعد لافتاً للنظر؛ ذلك أنه لا يركز على الظاهرة الأساسية المنتجة للسجع؛ ظاهرة التكرار الحرفي، قدر تركيزه على الظاهرة المصاحبة للتكرار، والمتمثلة في توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وذلك المسلك راجع إلى أن عناية القدماء بالتنويعات الشكلية المعتمدة على الحرف إنما كانت تتم في إطار رصد أوسع، هو العناية بالادل بالدرجة الأولى، ومن ثمّ كان هناك حديث عن توافق دوال الفواصل، لا عن التكرار الحرفي المهيء للسجع.

ونقف في حد السجع على عنصر لم تستطع المحاولات المتكررة للبت في أمره إنهاء القول فيه؛ ذلك العنصر هو "الوزن"، فقد وجدنا الخليل والرماني والرازي ومن سار على نهجهم في التعريف بالمشابهة يشددون على تذييل تعريف السجع بعبارة "من غير وزن" مؤكدين الفروق بين السجع والقافية باعتبارهما نظيرين. إلا أن في آثار البلاغيين والنقاد التعريفية ما يشير إلى توسّع مفهوم السجع، فالعلوي (ت ٧٤٩هـ) يجعل "الوزن" عنصراً أساسياً في حده، إذ يقرر أن معنى السجع هو: "اتفاق الفواصل في الكلام المنثور في

(١) انظر: شروح التلخيص، مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح، ج ٤، ص ٤٤٥.

الحرف، أو في الوزن، أو في مجموعهما".^(١) والواضح من متابعة الدرس البلاغي عند ابن الأثير وابن سنان وآخرين غيرهما ممن تناولوا بنية السجع -إن المقصود بالوزن هو "الوزن الصرفي"، وهو ما عناه ابن سنان الخفاجي في معانيته لقول أبي الحسين بن سعدة حينما ذكر جزءاً من بعض رسائله "لم أجد لسوء الظن مساعاً، ولا لظاهرة الإعراض قبولاً،..."^(٢)، مصرّحاً -تتقياً على العبارة- بأن "في هذا الكلام تركاً للمناسبة بين الألفاظ لأن قبولاً ليس على وزن مساع".^(٣) ومن البين -إذن- أن المقصود بالوزن عند ابن سنان هو الوزن الصرفي لا العروضي؛ لأن الكلمتين متفقتان عروضياً.

ولا شك أن العلوى كانت له دوافعه الخاصة التي جعلته يدخل الوزن ضمن حد السجع وإن انتفى التماثل الحرفي، فهو يرى أن "المقصود بالسجع في الكلام إنما هو اعتدال مقاطعه وجريه على أسلوب متفق"،^(٤) ومن ثم فإن إدخال الوزن ضمن حد السجع كان راجعاً إلى تحقيقه للاعتدال واتفاق الأسلوب اللذين رأى العلوى فيهما نواتج تتجلى عن التسجيع فتدعم فاعليته الوظيفية تلك التي تكون وثيقة الارتباط بتأثيره النفسي وباستجابة المتلقى لذلك التأثير. فالاعتدال -كما يقول العلوى- "مقصد من مقاصد العقلاء، يميل إليه الطبع، وتتشوق إليه النفس".^(٥)

تحدد دلالات مصطلح السجع:

المفاهيم المقدّمة حتى الآن يجمع بينها تصوّر نظريّ واحدٌ يعتبر السجع بنية بلاغية بديعية، ولكن هذا التصوّر لم يستطع أن يسجل لنفسه السيادة في تاريخ النقد العربي؛ ذلك أن تصوراً آخر يزاحمه، لا ينظر إلى السجع بوصفه

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوى، المقتطف، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٣٣٢هـ، ١٩١٤، ج٣، ص ١٨.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوى، ج٣، ص ٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٠.

بنية بلاغية وإنما بوصفه نوعاً من الأنواع القولية. ونقف في آثار البلاغيين والنقاد على نصوص تعد من أقدم تجليات التناول لأنواع المخاطبات، عُيّنت بتصنيف المنجزات اللغوية مفسحة للسجع مكاناً بينها. بيد أن الذين خاضوا في هذا الحديث قد انقسموا إلى فريقين؛ أحدهما: يلحق السجع في التصنيف بباب النثر تحت مسمى "النثر المسجوع"؛ ويرجع ذلك إلى قانون كتابة السجع في صورة خطية أفقية، كما أنه يتفق مع الثنائية السائدة في الخطاب البلاغي الذي رأى أن الكلام إما أن يكون نثراً أو شعراً، أما الفريق الآخر فيرى السجع فناً أدبياً قائماً بذاته، لا هو النثر، ولا هو الشعر، ولكنه نمط أدبي ثالث له استقلاله، أو هو فن يمكن أن يُدرج في قائمة الفنون الأدبية: كفن القصيد، وفن الخطبة، وفن الرسائل، وفن الرجز، وغير ذلك من الفنون.

وفي القول الموجّه إلى عبد الصمد بن عيسى الرقاشي: "لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟"^(١) نرى تفريقاً ظاهراً بين جنسين أدبيين هما: السجع والنثر.

وبرغم أن الجاحظ في عرضه لمبحث السجع عزف عن صياغة مفهومه أو تقرير قواعده فإن في مقولاته بعض الإشارات التي تقف شاهداً على طريقة فهمه لذلك المصطلح، فهو يقول نقلاً عن معاصريه: "وجدنا الشعر من القصيد والرجز، قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قالوا شعراً قليلاً كان ذلك أم كثيراً وسمعوا واستنشدوا، فالسجع والمزدوج دون القصد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟"^(٢) يبدو أن فهم الجاحظ لمصطلح السجع يتجاوز كونه أداة بلاغية، فهو إنما يقصد به فناً من فنون القول البشري يبرز إلى جوار الشعر والنثر والازدواج.

والراجع أن الجاحظ صدر عن ذلك الفهم في الصفحات التي قدّمها تحت عنوان "باب أسجاع"، حيث بدأ ذلك الباب بمقولات لا وجود لسجع في أغلبها،^(٣)

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ت وشرح حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ج١، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٧٦.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٨٣.

فنقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قوله: "أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرَج". ونقل عن يزيد بن المهلب قوله: "والهفأة على طليّة بمائة ألف وفرَج في جبهة الأسد".^(١) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - قوله "استغزروا الدموع بالتذكر" وعن عيسى بن عمر قوله: سمعنا الحسن يقول: "اقدّعوا هذه النفوس فإنها طلّعةٌ واعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية. وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور".^(٢)

تلك بعض مقولات غير مسجوعة صرّ بها الجاحظ هذا الباب المضطلع برصد صور من الأسجاع، وبرغم ذلك، فليس بإمكان الدارس أن يتصوره جاهلاً بما للسجع من أساس، فمن اللافت أن الجاحظ كان إذا وصل إلى السجع الفعلي يقول: "ومن الأسجاع: ...". ثم يذكر نماذج مسجوعة فعلاً، ويستمر إلى أن يخرج مرة أخرى إلى الترسل. وهنا يُسجّل البحث موقفاً منهجياً لا يمكن إغفاله؛ إذ من المعلوم أن الجاحظ رجل استطرادي، يتحدث في أمر، فإذا عَنّ له غيره تناوله، ثم عاد إلى ما كان فيه، غير أنه مع العلم بذلك الموقف المنهجي، فإن المقولات المشار إليها ما تزال تطرح مشاكل، فإذا كان الجاحظ واعياً بما يقوله فإنه ينبغي البحث عن الأسباب التي دفعته إلى أن يُدخل في هذا الباب أقوالاً غير مسجوعة، فليس من قبيل الصدفة أن تجمع هذه المقولات بوجه خاص، ويصنّف بها هذا الباب الذي وُضع له عنوان محدد، ولا يصح أن نتصور أن الجاحظ قد رصد هذه النماذج من لا شيء.

إن هناك أكثر من استنتاج يفرض نفسه عند قراءة النماذج غير المسجوعة التي أوردها؛ فإما أن يكون ذلك خطأً من النساخ، استقر وجرى عليه المحققون، وإما أن يكون الجاحظ قد فهم السجع بخصوص هذه النصوص على أنه كلام يتحقق فيه الاستواء، وأنه يشبه بعضه بعضاً، وهذا معنى من معاني السجع أوردها البحث فيما سبق، فكأن الجاحظ كان يتحرك في إطار ذاكرة تراثية للنص السجعي، وينطلق من تصور لهذا الفن تكون بشكل عفوي عبر زمن مديد من الممارسة، حيث ترسخ الاستواء والتشابه تاريخياً في الكلام المسجوع، وأحكم

(١) الطليّة: الفرس أو الكأس المطلية.

(٢) اقدّعوا: كفوا. طلّعة: أي تطلّع إلى كل شيء. حادثوا: أي أجلوا واشحدوا، والدثور: الدروس، يقال دثر أثر فلان أي ذهب، كما يقال درس وعفا.

ارتباطه به، حتى صار، في عقل الجاحظ، علامة أخرى على تحقق ذلك الفن الأدبي.

وللباقلاني -أيضا- حديث عن تقنيات السجع باعتباره فناً أدبياً شأنه في ذلك شأن الشعر، يقول: "وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مرذولاً، وربما أخرجه عن كونه شعراً".^(١) ويتأكد لنا صدق تصورنا حول كيفية فهم الباقلاني لمصطلح السجع حينما نراه يُقسَّم الكلام البديع المنظوم إلى: "أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة".^(٢)

ولا شك أن اعتبار السجع فناً أدبياً يتسق مع نشأته التي ارتبطت بواقع ديني وبطبعة دينية كرسست السجع للتعبير عن مراميها، مخلفة للتراث نوعاً إبداعياً عرف باسم "سجع الكهان"، ولقد تأتى للسجع -في ضوء هذه النشأة- أن تعلقت به الداللتان معاً: كونه أداة تعبيرية، وكونه فناً من الفنون الأدبية. وليس من الغريب أن تتنازع الكلمة هاتان الداللتان؛ فالسجع بنية بلاغية بديعية تمتلك القدرة على نقل الكلام المنثور من حالة النثرية الخالصة إلى حالة جديدة ذات طابع إيقاعي مميز. ولأن السجع يمكن أن يستغرق النسيج اللغوي للنص؛ لذا فقد صار التوسع في مفهومه إلى حد اعتباره نوعاً من أنواع المخاطبات الأدبية أمراً ليس بمستغرب في التراث. ولقد سجل "التهانوي" نقلاً عن تقدموه، خاصة شراح التلخيص، حقيقة تعدد المفاهيم الاصطلاحية للسجع. فالسجع يُطلق على: "نفس الكلمة الأخيرة من الفقرة باعتبار كونها موافقة للكلمة الأخيرة من الفقرة الأخرى... وقد يطلق على التوافق المذكور الذي هو المعنى المصدري وبهذا الاعتبار قيل: السجع تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر، وقد يطلق على الكلام المسجع، أي الكلام الذي فيه السجع، ويجوز أن تسمى

(١) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، ت محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط

أولى، ١٩٩١، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

الفقرة بتمامها سبعة تسمية لكل باسم جزئه".^(١)

والملاحظ أن التقعيد البلاغى لبنية السجع كان نتاجاً لهذه المفاهيم مجتمعة حتى عند أولئك الذين جعلوا للسجع مفهوماً محدداً صدروا به مباحثهم عنه - وبعبارة أخرى- نقول إن دائرة الشرح والتقعيد كانت أوسع نطاقاً من حيز اشتغال المفهوم الذى دوتوه فى صدارة مبحث السجع، ومن ثم فإن هذا العمل التقعدي يستوجب الوقوف عنده للكشف عن كيفية تحريك التفكير البلاغى فى الشرح والتقعيد لهذه البنية البلاغية، وعن الخلفيات التى وجهت حركته.

[٢] التناول البلاغى لبنية السجع:

المتابعة التطبيقية الراصدة لأشكاله:

عَدَّ البلاغيون فى السجع ألواناً من الأداء، وهذه الألوان لا تتول إلى تجريدات ذهنية - كما هو الحال فى غير مبحث من مباحث البلاغة - فقد بدعوا منطقة حركتهم من الصياغة، وساقهم مراقبة تشكلاتها السجعية إلى رصد عدة أصناف من السجع كانت - فيما يبدو - نتيجة حتمية لجماع المفاهيم المقدمة له. فقد تمخض الرصد عند شرّاح التلخيص مثلاً عن ثلاثة أوجه رئيسية للسجع، تنزل على سلم القيمة، يربط بينها رابط جوهري هو حدوث الاتفاق بين الأحرف الأخيرة من الفواصل، بوصف هذا الاتفاق الحقيقة الكلية التى ينبى عليها السجع، وتتمايز تلك الأوجه من خلال متغير أسلوبى اعتمد عليه القدماء فى تقريع السجع وتصنيف أشكاله؛ إذ اعتبروا الوزن - بما له من شأن فى تكثيف الإيقاعية - مبدأ أساسياً فى تحديد وضع الفروع على سلم القيمة. بيد أن وجود الوزن يظل مجرد إمكان؛ لذا فإن الغالبية نظروا إليه باعتباره متغيراً، لا يعين حقيقة السجع، ولا يوضح ماهيته. فلو قدرنا انتقاء التواطؤ على حرف واحد فى النهاية لبطلت حقيقة السجع، ولا يحدث ذلك مع انتقاء الوزن. وأفرغ السجع أو وجوهه عند شرّاح التلخيص هي:^(٢)

(١) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوى، الداخس، دار صادر، بيروت، م ٢، ص ٦٧٠.

(٢) انظر شروح التلخيص، سعد الدين التفتازانى، ابن يعقوب المغربى، بهاء الدين السبكى، ج ٤، ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

أولاً: السجع المطرف:

وهو ما اتفقت فاصلتاه في الحرف الأخير^(١) دون الاتفاق في الوزن، ومثّلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن "نوح" عليه السلام ﴿لَمَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^(٢). ففاصلة القرينة الأولى من التركيب السجعي تتفق مع فاصلة القرينة الثانية منه في حرف الراء، ولكنهما مختلفتان وزناً. وسُمّي هذا الوجه بالمطرف لأن قيمته الإيقاعية تكمن عند الأطراف حيث يحلّ التوافق الحرفي.

ثانياً: السجع المتوازي:

وهو ما اتفقت فاصلتاه في الوزن إضافة إلى الاتفاق في الحرف، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْقُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾^(٣)

ثالثاً: الترصيع^(٤):

وقد يمتد التوازي الصوتي والوزني ليستغرق كافة كلمات التركيب السجعي أو أكثر ما فيه، كقول الحريري: ((فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه)). ففي الترصيع توسيع لقاعدة المتوازي بحيث نلاحظ أن كل لفظ مساو لما يقابله وزناً وتقفية، فيطبع مساو ليقرع، والأسجاع مساو للأسماع، والجواهر مساو للزواجر، والفاصلة مساوية للأخرى. ويصف

(١) مع عدم الاعتبار لألف الإطلاق أو هاء السكت التي تمثل علامات على الوقف، لا حروفا أصلية في بنية اللفظة.

(٢) سورة نوح: ١٣-١٤.

(٣) سورة الغاشية: ١٣-١٤.

(٤) والترصيع كمصطلح مأخوذ من ترصيع العقد، وذلك، أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر. انظر: الصحاح للجوهري=تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦، ج-٣، ١٢١٩.

العسكري هذا المثال بكونه (سجعا في سجع) مضيفاً أنه أفضل الوجوه.^(١)

وقد حرص ضياء الدين بن الأثير على تحديد الشرط اللازم لتحقيق الترصيع، فألح على ضرورة بث الاتفاق الصوتي والوزني في كل أجزاء القرينتين، منتقداً ما ذهب إليه بعض العلماء الذين خالفوا حقيقة الترصيع -كما تمثلها هو- حين أجازوا اتفاق القرينتين في الجُل لا الكل. ويبدو أن تشديد ابن الأثير على هذا الشرط جاء بدافع إبعاد بعض النماذج القرآنية عن أن تكون ترصيعاً، على اعتبار أن الترصيع -كما يتصوره- فيه زيادة تكلف، ومن هذا المنطق كان يلزم أن يجد سبباً لنفي الترصيع وما يستتبعه عن قداسة النص القرآني، سبباً يرد به أدلة من ذهب من البلاغيين إلى أن في كتاب الله تعالى شيئاً من الترصيع، فقد جعل الشرط السابق توكأة اعتمد عليها في دحض حجج المؤيدين لحضور الترصيع في النص القرآني، إذ يقول: "فأما قول من ذهب إلى أن في كتاب الله منه شيئاً ومثله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ فليس الأمر كما وقع له؛ فإن لفظة (لَفِي) قد وردت في الفقرتين معاً، وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه [وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية] -لكنه قريب منه".^(٢) ولا يميل البحث إلى الاتفاق مع رؤية ابن الأثير في أمر هذا الشرط الذي وضعه لتحقيق الترصيع، فإن علماء البلاغة حينما ترخصوا في ضرورة حدوث التوازي الصوتي والوزني بين كل أجزاء القرينتين، واكتفوا بحضوره في بعضها إن لم يكن حاضراً في الكل فهم إنما كانوا ينطقون بما أملتة النصوص الأدبية التي تجسّد فيها الوجهان معاً بما لهما من أساس واحد لا يصح معه إدراج أحد الوجهين تحت بنية بلاغية جديدة، أو ضرب الصفح عن أحدهما.

هناك -إذن- عملية تتبع لحيز اشتغال السجع تدريجياً من الأقل فالأكثر، من حيز ضيق التوافق فيه لا يتجاوز الحرف الأخير من الفقرات، إلى نطاق أوسع يركز فيه البلاغيون على دوال الفواصل، ويتابعون ما قد ينضاف إلى التواطؤ الحرفي المذكور من تواطؤ وزني من شأنه أن يسهم في تكثيف الإيقاع، لا على مستوى الحرف الأخير، ولكن على مستوى اللفظة الأخيرة بكاملها.

(١) انظر: الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص ٢٨٨.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، ج-١، ص ٢٥٨.

وتتسع المساحة الرصدية التي مارس القدماء فيها دراستهم لأوجه السجع، فنرى بعضاً منهم يدخل الترصيع ضمن هذه الأوجه. والحق أن هذا التوجّه البلاغي له مبرراته التي تتسق مع اتساع الإطار المفهومي للمصطلح، ذلك الاتساع الذي فرض نفسه على عمليّة التعييد، وأفضى إلى وجود حديث عن الأوجه التي بيّناها، والتي تعد امتداداً بالسجع إلى خارج نطاق اشتغاله الأصلي الذي يحدده التعريف الاصطلاحي بأنه توافق الأحرف الأخيرة من الفواصل. غير أننا نجد بعضاً ممن وعوا ذلك التعريف، يعدلون عن اعتبار الترصيع من السجع ويختصونه بمبحث وحده باعتباره بنية بلاغية مستقلة.

أثر التعريف بالمشابهة في صياغة بعض القوامح الخاصة بالسجع:

لا جدال في أن تعريف السجع بطريق الإحالة على القافية قد مثل حركة خفية أفرزت عدداً من المسائل المتصلة بالشرح والتععيد لهذه البنية البلاغية. فقد استحوذت طريقة التعريف بالمشابهة على مجامع التصور النقدي عند كل من "بهاء الدين السبكي" و"ابن يعقوب المغربي"^(١) حتى إنهما عاملاً السجع معاملة القافية، إذ قاما بتطبيق بعض خواصها الكيفية عليه. ويتبدى ذلك في تأكيدهما أن الوزن في السجع هو الوزن الشعري، قال السبكي: "ينبغي أن يكون المعتبر هو الوزن الشعري لا التصريفي".^(٢) وأول ما يشار إليه بصدد هذا الرأي هو أنه صيغ نتيجة التحريك التعيدي في إطار المقايسة؛ مما أفضى إلى الحديث عن وزن شعري معتبر في السجع قياساً على الإجراء الوزني المعروف في التعامل مع القافية. وفي تقديرى، أن هذا الحديث يثير إشكالاً حول خصوصية الجنس الأدبي الحاضن للسجع، مفاده؛ هل تتعارض طبيعة هذا الجنس الأدبي مع إجراء الوزن الشعري فيه أم لا؟

(١) رأينا صورة من هذا من قبل في الوقفة المتأنية التي أفرد لها "ابن يعقوب" لاستكناه مفهوم السجع في ضوء التماس بينه وبين مفهوم القافية. فالظاهر أن التعريف بالمشابهة قد مثل مقدّمة انطلق منها شراح التلخيص أثناء بحث عدد من قضايا السجع.

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، جـ ٤ ص ٤٤٦، وانظر، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، جـ ٤، ص ٤٤٩.

أحاط الدارسون بما جاء على لسان "السبكي" و"ابن يعقوب"، لكنهم اكتفوا بالإحاطة والنقل عنهما دون الإجابة عن عدة تساؤلات منها: لماذا كان وزن السجع وزناً شعرياً هو الأصح من وجهة نظر الرجلين؟ هل توجد أسباب أخرى غير طريقة التعريف -جعلتهما يَعدّلان عن القول بالوزن التصريفي الذي عناه غالبية البلاغيين إلى القول بالإجراء الوزني الشعري؟ ثم لماذا كان اعتبار الصيغة الصرفية يمثل ملحظاً ثابتاً في مؤلفات الغالبية؟ ولماذا لم يقل البلاغيون بالوزن التصريفي في تعاملهم مع القافية؟ هل أدركوا لكل من السجع والقافية خصوصيات جعلتهم يعمدون في هذا إلى الصيغة الصرفية وفي تلك إلى الوزن الشعري؟

لقد جرى التمييز بين وجهين للوزن يمكن إجراؤهما في التعامل مع السجع، وزن تصريفي هو المعتبر من وجهة نظر غالبية البلاغيين، ووزن شعري قال به صاحباً شروح التلخيص انطلاقاً من ثبات المفهوم الذي يؤكد مشابهة السجع للقافية. والإجراءان يسترعيان الانتباه لما يثيرانه من تساؤلات على نحو ما قدّمت.

ونلج من مدخل أحسبه ذا قيمة في استكناه أسباب الفريق الأول في القول بالإجراء الوزني التصريفي. فيتحتّم النظر -بادئ ذي بدء- في كل من الشعر والنثر للوقوف على الخصوصية التي تميز كل نوع منهما عن الآخر، إذ من المفترض أن إدراك هذه الخصوصية كان الموجّه الأساسي في تحديد طبيعة الإجراء الوزني المعتبر في التعامل مع السجع، وذاك المعتبر في التعامل مع القافية.

إن قضية الفرق بين الشعر والنثر قضية تمهيدية جوهريّة؛ بوصف القافية بنية شعريّة، والسجع بنية نثرية. والافتراض الذي يطرح نفسه هو أن ارتباط كل بنية منهما بجنس أدبي حاضن لها كان المرتكز الأساسي الذي أملى على النظر البلاغي إجراءاته التحليليّة، وتحددت في إطاره الملامح الوصفية للبنيتين.

ولئن كان البحث ينطلق من يقين بوجود تناقض شكلي بين النوعين: الشعر والنثر، فإنه لا يتجاهل ما يكون بينهما من نقاط التقاء أقرها النقد العربي القديم في قول حازم القرطاجني (ت ٦٧٤هـ) "إن صناعة الشعر تستعمل يسيراً من الأقوال الخطابيّة، كما أن الخطابة تستعمل يسيراً من الأقوال الشعرية لتعتضد

المحاكاة في هذا بالإقناع، والإقناع في تلك بالمحاكاة^(١). هذه اللفتة الخطيرة، تشير إلى ما بين الشعر والنثر من تميّع الحدود، وبرغم صحة ما جاءت به، فإنه لا يمكن إنكار ما ينطوى عليه النوعان من ظواهر تؤكد تمايزهما "ومدخل التمايز الأصيل عند القدماء يعود -غالباً- إلى الإطار الشكلي، وهو ما اتكأ عليه كثير منهم كقدامة وابن طباطبا العلوي وابن رشيق ومن سار على دربهم"^(٢).

والحق أن البحث البلاغي في سعيه لضبط خصائص كل نمط بالتركيز على ما يتمتع به من فريدة شكلية -استطاع أن يضع يده على الخاصية النوعية المميزة لكل من الشعر العمودي والنثر الأدبي، وتتأكد منهجيته عند متابعة وصفه لبنية خلصت للشعر "كالقافية" وأخرى خلصت للنثر "كالسجع" إذ يتكشف أن المواصفات التي أسندتها البلاغة لكل بنية كانت تتسق مع الخاصية النوعية للجنس الأدبي الحاضن لها. فالشعر تتأني له طبيعة مفارقة من جهة بنائه الصوتي المتسم بالانتظام. والانتظام مفهوم شكلي علّقه القدماء بالوزن والقافية، وإن ارتقى الأول مكانة خاصة، من حيث اعتبر الركن الأهم من أركان الشعر، يُمكن له في جنسه بقدر اشتماله عليه، يقول ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) "الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاهَا به خصوصية"^(٣). ويرى حازم القرطاجني أن "الأوزان مما يتقوّم به الشعر، ويُعد من جملة جوهره"^(٤). فهو أهم المداخل إلى نظرية الأنواع في الإبداع الأدبي القديم، من حيث يكون لحضوره تأثير خاص في الفعل الشعري، وعاه النقاد العرب حينما تحدثوا عن مزية الشاعر المتأنية من تقيده بنظامين مختلفين عليه أن يُراكب بينهما: نظام إيقاعي متمثل في وجود قالب وزني يكون -قبل الحدوث الحقيقي للفعل الشعري- اعتبارياً وسابقاً على الكلام. ونظام لغوي متضمن لعناصر الدلالة المعجمية والنحوية. وأثناء قيام الشاعر بإذابة النظامين في مساحة البيت، يضطلع الميزان الإيقاعي النظري بدور الموجه حيث "تكون اللغة في الشعر مشدودة دلالات وهياكل إلى هذه البنية

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٩٣.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، لونجمان، ط أولى، ١٩٩٧، ص ٣٢.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٨١، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ص ٢٦٣.

المتسلطة، فيصبح الفعل الشعري فعلاً تحويلياً يغيّر من طبيعة اللغة ذاتها، بما أنه يعيد صياغتها صياغة تستجيب لمقتضيات النسقين^(١).

وهكذا ندرك لماذا ينبغي وزن القافية وزناً شعرياً؛ فالقافية تنتج من تزاوج النظامين: الإيقاعي واللغوي، ومن ثم فإن وزنها يكون جزءاً من الميزان العروضي العام للبيت ويُستخدَم في تحديد وزنها الأساس اللغوي للوزن الشعري، وهو الحركة (/) والسكون (o) أو ما يُطلق عليه "الفونيم الإيقاعي".

هذا بالنسبة للقافية، أما فيما يتعلق بوزن السجع وزناً صرفياً، فإن ذلك المسلك يجد هو أيضاً تفسيره الخاص بالنظر إلى طبيعة النثر. فالبنىات النثرية لا تقوم على مبدأ التعاقب في الزمن، ولا يتسلط بها قالب اعتباري سابق على الكلام؛ أقصد البحر الشعري، فهي حرة إلا من توجيه المعنى الذي يكون مُتمثلاً في الذهن ثم يخرج في صورة مادية من خلال عمليتي: اختيار المفردات والتأليف بينها، على معنى أن الخطاب النثري ينشأ عن نظام وحيد وهو النظام اللغوي مفردات وتراكيب. هذا هو الشيء الذي تفتن إليه القدماء، إذ أدركوا، وهم يحددون الطبيعة المفارقة للجنسين: الشعر والنثر، أن الكلام فيهما يجري على وجه مغاير، من حيث يتحكم نظامان في بنية الخطاب الشعري، بينما يتحكم نظام واحد في بنية الخطاب النثري. ومن هذا المنطلق، وجدنا البلاغيين في تعاملهم مع النثر والنثر المسجوع، يبحثون عن بديل للفونيم الإيقاعي بوصفه أساساً وزنياً يمثل خبرة مشروطة ببنىات التفاعيل.

فمن المعلوم، أن الدوال في النثر تتحرك متحررة من الارتباط بتفعيلة، أو بمعنى أدق، متحررة من الارتباط بميزان نظري كالذي قامت بحور الشعر ببلورة أشكاله. غير أنه ربما خلفت حركة الدوال داخل الجمل المتتابعة بعض التوازنات الوزنية نتيجة التقابل المكاني بين دالين لهما نفس الهيئة. ومن هنا ظفر الدال بعناية مضعفة بصفتيه الإفرادية والتركيبية،^(٢) ثم من جهة ربط عملية الوزن الإيقاعي في النثر بحدود الكلمة التي صارت مجال النظر الوزني في

(١) الشعر وصفة الشعر في التراث، حمادي صمود، (فصول) مجلة النقد الأدبي، تراثنا النقدي، جـ الأول، م٦، ع١٤، أكتوبر، ديسمبر ١٩٨٥، ص ٧٨.

(٢) يعرف أحمد مختار عمر "الكلمة" بأنها: "مصطلح له في المقام الأول مغزى نحوي". راجع دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط أولى، ١٩٧٦، ص ٢٤٠.

غيبة التفعيلة، وبالتأكيد كان هذا الربط وراء ترشيح الصيغة الصرفية بوصفها أساساً للوزن داخل القول المنثور. وصلاحيّة الميزان الصرفي في التعامل مع النثر راجعة إلى كونه معياراً "يؤتى به لكي تحدد من خلاله هيئة الكلمة"^(١) التي قلنا إنها مجال النظر الوزني في النثر، وهذا بخلاف الوزن الشعري الذي ارتبط في ذهن القدماء بتحديد هيئة التفعيلة.

والخلاصة؛ كان البحث قديماً عن أساس آخر لوزن السجع أمراً يتلاءم مع طبيعة النثر والوحدة الموزونة فيه. وإن كان البحث يرى أن الاعتماد على الوزن التصريفي المعروف في الدرس الصرفي القديم له مثالب لا تغفل، أهمها: أنه لا يتعامل إلا مع الكلمات التي أقرها الدرس الصرفي، وهي الأفعال المتصرفّة، والأسماء المتمكنة المعربة، أمّا المبنيات من الأسماء كالضمائر، وأسماء الشرط، وأسماء الأفعال، وكذلك الأفعال الجامدة والحروف، فإنه يطرحها نهائياً من حساباته؛ ومن ثم فلا يمكن عن طريق الوزن التصريفي تحديد صيغة الفاصلة في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ﴾^(٢)؛ لأن الفاصلة -هنا- واحدة من الضمائر وقِفَ عليها بهاء السكت.

ومن مثالب الوزن التصريفي -أيضاً- أن توازي صيغ الكلمات لا يكون مصحوباً دائماً بترديد لصورة صوتية واحدة، مما يعطى مؤشراً على توازن ناقص. فالكلمات (صادقون، خاشعون، كافرون) تتوازي صرفياً، كما أن لها في النطق نفس الصورة الصوتية. أما الكلمات (قال، سعى، ضرب) فإنها تتوازي على مستوى الصيغة الصرفية فقط، فالميزان الصرفي يقابل كل كلمة منها بزنة (فَعَلْ)، بينما تكون صورها الصوتية مختلفة تماماً،^(٣) فكلمة (قال): يتم نطقها على

(١) من وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، أحمد كشك، ط١، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٩.

(٢) سورة القارعة: ١٠.

(٣) يرجع التعارض بين الصيغة الصرفية والصورة الصوتية إلى اعتماد الميزان الصرفي على فكرة الأصول، حيث يؤسس معياراً مفترضاً يصبح حاكماً للواقع المستعمل للكلمة، فنجدده يزن كلمة (قال) بزنة (فَعَلْ)، وما كان هذا الوزن موافقاً لمنطوق هذه الكلمة، وإنما هو موافق لأصلها المفترض وهو (قول) بفتح الواو فالدرس الصرفي يعتبر "الواو" -هنا- أصلاً في جذر الكلمة،

كثنتين (قا- ل) القاف والألف المد وحدة نطقية، واللام وحركتها وحدة نطقية أخرى. وكلمة سعى: يتم نطقها على كثنتين كذلك وإن اختلفت كيفية صورتها الصوتية عن الكلمة السابقة (س- عى) فالسين وحركتها وحدة نطقية، والعين وياء اللين وحدة نطقية أخرى. أما كلمة ضَرَبَ فهي مكونة من ثلاث وحدات نطقية - (ض- ر- ب) - الضاد المفتوحة، ثم الراء المفتوحة، ثم الباء المفتوحة. ونخلص من هذا التحليل إلى أن البنية الصوتية المقطعية للكلمات السابقة تختلف كمّاً وكيفاً؛ نتيجة عدم توالى الصوامت والحركات فى نسق موحد، وبالتالي فإن الكلمات ليست موزونة إلا فى إطار ما أقرّه الدرس الصرفى من زنتها.

وبالمقابل؛ فإن عدم اتفاق الصيغة الصرفية لا يعنى بالضرورة افتقاد التوازى الإيقاعى الصوتى، فالصيغ الصرفية قد تكون متغايرة ومع ذلك يلاحظ أنها تضمّر الاتزان على مستوى توازى البنية المقطعية للدوال، ففى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الذى يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى^(١)، نجد أن كلمتى (الأشقى، والكبرى) تتفقان فى البنية المقطعية على هذه الشاكلة

ال	-	أش	-	قى
ص	ح	ص	-	ص
ح	ح	ح	-	ح
ال	-	كب	-	رى

مع الأخذ فى الاعتبار أن الصيغة الصرفية لكلمة (الأشقى) هى (الأفعل)، والصيغة الصرفية لكلمة (الكبرى) هى (الفعل).

ولعل شُرّاح التلخيص حينما ذهبوا إلى إجراء "الوزن الشعرى" فى التعامل مع الفواصل المسجوعة - كانوا يصدرون عن وعى بالمثالب التى ذكرناها للوزن التصريفى، وينطلقون من رصد أمثلة يحضّر فيها التوازن الصوتى وإن غاب توازى الصيغ الصرفية. فقد أشار "ابن يعقوب المغربى" إلى هذه الملاحظة وهو بصدد شرح السجع المتوازى، حيث قال: "وقد يختلف النصف المقابل فى الوزن فقط ويكون متوازياً كقوله تعالى: ﴿لَا الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾^(٢)

وأن تطوّرها أو صيرورتها إلى حرف الألف لا ينفى كونها أصلاً، وبذا يسوى الميزان الصرفى بين حرفين أحدهما صحيح وهو "الواو" والآخر حرف مد، هذا إضافة إلى كونه يسوى بين صورتين صوتيتين مختلفتين كمّاً وكيفاً. ولمتابعة هذه المسألة باستفاضة راجع: من وظائف الصوت اللغوى، أحمد كشك، ص ٢٠ - ٢٥.

(١) سورة الأعلى: ١١ - ١٢.

(٢) سورة المرسلات: ١ - ٢.

فالمرسلات مع العاصفات متفقان تقية ولم يتفقا وزناً وكل منهما نصف القرينة، كذا قيل وفيه نظر؛ لأن المعتبر من الوزن هنا الوزن الشعري كما قيل لا الوزن النحوي، وعليه فهما متوافقان إذ المتحرك في مقابلة المتحرك الساكن في مقابلة الساكن وعدد الحروف المنطوق بها واحد فيهما وإن كان وزن المرسلات في النحو "المفعلات" والعاصفات "الفَاعلات" (١) تستحق هذه المقولة منا وقفة، فابن يعقوب يُرِدِف "الوزن التصريفي" بعبارة "الوزن النحوي"، وقد يعنى هذا أنه يدرك منذ البداية أن للوزن التصريفي هدفاً أو وظيفة لا اعتبار لها في هذا الباب؛ فالوحدات "في الصرف ليست مجرد صيغ أو صور لفظية خالية من المعانى النحوية، وإنما هي وحدات ذات قيمة نحوية على مستوى التركيب" (٢) بمعنى أنه يترتب على حضور صيغة صرفية معينة داخل تركيب معين ظهور خواص نحوية معينة في الجملة أو العبارة. وبما أن هذا الدور الوظيفي الصرفي لا يعنينا في مبحث السجع، وبما أن قضية الوزن في السجع هي الدور الوظيفي الصرفي لا يعنينا في مبحث السجع، وبما أن قضية الوزن في السجع هي في أساسها قضية إيقاع؛ لذا فإنه يكفي في تقديره أن يكون عدد الحروف المنطوق بها في الفاصلتين واحداً، وأن يكون للصوامت والحركات النسق نفسه في التوالى، أى أن تكون للفواصل البنية الصوتية المقطعية نفسها. وقد أعمل ابن يعقوب هذا المعيار مكتفياً به، وفي غيبة معرفة القدماء بمفهوم المقطع اللغوي، اتجه الرجل إلى "الوزن الشعري" يحدد من خلاله مدى تحقق الاتزان الإيقاعي بين الفواصل. واستخدام الوزن الشعري يجد تبريره لدى البحث، ذلك أن هذا الوزن يمكن أن يكون قائماً على الإحساس بمسألة "المقطع اللغوي".

التشكيل المسافى للعبارات المسجوعة:

من متابعة الدرس البلاغي في فهمه لمصطلح السجع تبين لنا أن ثمة حضوراً لزاويتين من وجهة النظر، أولاهما: تعتبر السجع أداة من أدوات التعبير البديعى، وتعنى -أول ما تعنى- بتحديد البعد المكانى لعمله، وقد تبنى هذه الرؤية جمهور البلاغيين. أمّا الزاوية الأخرى: فإنها تعد السجع نوعاً أدبياً شأنه في ذلك شأن الشعر وفنون النثر من رسالة وخطبة ... إلى آخره.

(١) مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربي، جـ ٤، ص ٤٤٩.

(٢) من قضايا اللغة، مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت، ط ١، ١٩٩٥، ص ١٨٥.

والأمر- اللافت أن زاويتي النظر هاتين لم تتقا على طرف نقيض في تناول السجع وشرح قوانينه وشروطه؛ فمن الملاحظ أن أصحاب وجهة النظر الأولى تجاوزوا في توصيفهم لتقنيات السجع وفي تحديدهم للشروط الواجبة فيه -المنطقة المحددة له بوصفه وسيلة تعبيرية قائمة في بنية التراكيب وذات بعد مكاني محدد، فقد بدت تحركاتهم الشكلية والعميقة كما لو كانت تهدف للوصول إلى إمام كاف بالصورة التي عليها الخطاب المسجوع، على معنى أن أصحاب هذه النظرة اتجهوا بالسجع إلى معنى النوع الأدبي. وأول أدلة هذا التوجه الملاحظات التي ذكرها البلاغيون حول طول العبارة المسجوعة فقد بحثوا ذلك الأمر تفصيلاً، وانشغلوا باكتشاف البناء الإيقاعي للسجع انشغالهم بدراسة البناء العروضي للشعر. وحول هذا الأمر كتب عبد الفتاح كيليطو في إحدى مقالاته المعنوية بدراسة فن المقامة يقول إنَّ "السجع يفترض وجود نسق وزني أقل صلابة بالتأكيد من ذلك الموجود في الشعر ولكنه مع ذلك يخضع لبعض القواعد التي لم يقصر البلاغيون في تقنينها"^(١) حيث اتجهوا -مدفوعين بفهم طبيعة الأدب- إلى النظر في التشكيل المسافي للكلام المسجوع لرصد ما يمكن أن يتخلق عن ذلك التشكيل من صور التوازن التي تسهم في تكثيف الإيقاعية. فدراسة عروض السجع أو التشكيل المسافي له تأتت من وعي مبكر بقيمة التوازنات المنتظمة في الخطاب الأدبي عموماً مقارنة بالحديث العادي. "فإنه ينبغي أن نلاحظ أن الخطاب المستعمل عادة لا يُعنى كثيراً بخلق توازنات منتظمة، وهو لا يبدأ في تشكيل هذه التوازنات إلا عندما يبتعد عن الاستعمال المتوسط ويشرع في الترتيب الجيد للكلمات، وعندئذ يهدف إلى تحقيق غرض فعال غريب عن الرسالة التي تتوخى مجرد التوصيل، لافتاً للنظر إليها في ذاتها، ومبرزاً تميزها التعبيري"^(٢). وانطلاقاً من الوعي بطبيعة الأدب قام البلاغيون بالبحث في البناء الإيقاعي للسجع، وكان خفوت الإيقاع الوزني التفعيلي أول ما يصدد الذوق الذي نمّاه تأسيس جماليات الأدب داخل حقل الشعر، فراح البلاغيون يبحثون عن إجراءات أخرى لدراسة النسق الإيقاعي،

(1) Le Genre séance: « une introduction »; Abdelfatah Kilito, studia Islamica, 43 (1976), p 29.

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٦٤، ١٩٩٢، ص

ويلاحقون البنيات الإيقاعية التي يَسْمَحُ بها النص المسجوع، فكانت دراسة التشكيل المسافى هي إحدى مظاهر ملاحقة الإيقاع.

ودراسة التشكيل المسافى -بتعبير القلقشندي- هي: "ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر".^(١) وتحديد طول العبارة المسجوعة يتم عن طريق عد "الألفاظ" التي تحتوى عليها. فلقد أدرك القدماء أنه لا يمكن الاعتماد على التفعيلة الشعرية في قياس مسافة العبارة المسجوعة، فالتفعيلة لها قانون محدد قائم على تتابع فونيماتها في الزمن وتحطيم هذا التتابع هو الذى خلق الحوار حول ضرورة قياس المسافة بغير مقياس الشعر، فاستخدم البلاغيون اللفظة بوصفها وحدة قياس وقسموا العبارات المسجوعة -تبعاً لعدد الألفاظ- إلى عبارات قصيرة وأخرى طويلة. وجعلوا أقل ما يكون من القصيرة "لفظتين" وأزيد ما يكون منها عشرة ألفاظ، وما زاد على هذا العدد فهو من العبارات الطويلة.

ويضع أبو العباس أحمد القلقشندي حدًا أقصى لطول العبارة المسجوعة اعتماداً على الحد الأقصى لطول العبارة المسجوعة في القرآن الكريم، وهو عشرون لفظة، ومن ثم يقرر أنه "ينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ما ورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام، وأقوم نظام".^(٢) وبرغم ذلك التشديد على الطول المسموح به فى العبارة المسجوعة -يسجل القلقشندي آراء ذات قيمة لكل من ضياء الدين بن الأثير، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ممن صرحوا بأنه لا ضابط للسجع الطويل ويبدو للبحث أن هؤلاء العلماء كانوا على صواب فيما صرحوا به، ففي القرآن من الآيات المسجوعة ما يزيد طوله بكثير عن العشرين لفظة، كما أن فيه من الآيات ما يتكوّن من لفظة واحدة مثال قوله تعالى: ﴿لَا الرَّحْمَنُ﴾، عَمَّ الْقُرْآنُ^(٣)، وقد أغفل البلاغيون هذه الظاهرة حينما ذكروا أن السجع القصير أقل ما يكون من لفظتين، والظاهر أن رأيهم هذا كان قائماً على مراعاة الحد الأدنى من الجملة التامة، أو ما يمكن

(١) صبح الأعشى، تأليف الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندي، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨، ج-٢، ص ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ج-٢، ص ٢٨٧.

(٣) سورة الرحمن: ١-٢.

تسميته "المكوّن التركيبى الأصغر"؛ ويُقصد به: الجملة المكوّنة من تأليف أقل عدد من الوحدات الصرفية. وثمة اعتراضات يمكن أن تُقدّم بوصفها ردّاً على رؤية البلاغيين فى هذه المسألة، فإنّ تعبيراً من مثل (ينصرونه) هو لفظة واحدة ولكنها فى عداد جملة تامة إذ تشتمل على فعل وفاعل ومفعول، ثم إن انتهاء العبارة المسجوعة ليس مؤشراً بالضرورة على حدوث انفصال دلالى بينها وبين العبارة التالية، فالكلام المسجوع لا يتوخى الجمع بين كل من الوقف الصوتى والوقف الدلالى، بل ربما يجىء الوقف حيث لم يكتمل المعنى الذى يمتد فى العبارة التالية وقد يكون التعبير المتمم لفظة واحدة تكميليّة،^(١) كما فى قوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿لَاؤْمِنُ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مَذْهَبَانِ﴾.^(٢)

ولقد اعتبرت المسافة التعبيرية موضوعاً سيميوطيقياً، فاهتم صاحب "حسن التوسّل" برصد دلالات الأشكال الخطية طويلاً وقصراً، فهو يرى أن العبارات القصار "تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة"^(٣) أما العبارات الطوال "فهى ألدّ فى السمع؛ يتشوّق السامع إلى ما يرد متزايداً على سمعه"^(٤) وتعد هذه الآراء محاولة عربية موهلة فى القدم لدراسة الأدلة الخطية من خلال ربطها بما تتطلبه الطباع وما تفرزه القدرات. فقد ربط شهاب الدين الحلبى الشكل المسافى بالشخصية المنتجة له حيناً، وبالشخصية المتلقية له حيناً آخر. ومن الواضح أن هذه المحاولة مسكونة بتوجه حرص على أن يبرر كلا الوجهين: الطول والقصر؛ وذلك لاحتواء النص القرآنى على الوجهين معاً. فإن السجعات الطوال

(١) إن ما يحدث فى العبارة المسجوعة من عدم الجمع بين الوقفين: الصوتى والدلالى لا يحدث فى البيت الشعرى لأنه ضد التقاليد الموروثة التى حرصت على الحد من الصراع بين الوقفين العروضى والدلالى. راجع فى إيضاح هذا الأمر كتاب، بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة. أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، كتابات نقدية ع ٣، ١٩٩٠، ص ٦٦-٦٧.

(٢) سورة الرحمن: ٦٢-٦٤.

(٣) صبح الأعشى، القلقشندي، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٦.

لم تكن من تقاليد السجع الموروثة،^(١) أى أن تلك القيم الدلالية والجمالية التى ذكرها "الحلبى" كانت مرتبطة بثقافة معينة، ونص مقدّس، اتخذ البلاغيون بنيته الشكلية معياراً لتحديد الحد الأدنى والحد الأقصى من عدد الوحدات الخطيّة الداخلة فى المسافة طولا وقصرا.

ويقدّم "ابن الأثير" مجموعة من الإمكانيات التعبيرية المتصلة بترتيب العبارات المسجوعة باعتبار الطول والقصر، فيذكر أربعة قوالب مكونة من فقرتين أو ثلاث^(٢) مع تقييم كل قالب منها.

ألقاب الأول: عبارة عن سجعات متساوية الطول لا تزيد ألفاظ إحداها على الأخرى.^(٣) ويمثل ابن الأثير لذلك القالب بقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ ضُبْحًا﴾.^(٤) وقوله: ﴿وَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.^(٥) ويتبيّن من متابعة السجع القرآنى أن هذا القالب قد يمتد ليشمل أكثر من ثلاث عبارات متساوية الطول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا

(١) وكذلك، لم يكن تفاوت الأطوال من تقاليد السجع فى الإبداع الجاهلى، ولعلنا نتذكر قول الباقلانى فى هذا الشأن "متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجّع وتفاوت كان خطبا" إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٣. وقد اتخذ الباقلانى من ذلك قاعدة تدعم رفضه لورود السجع فى القرآن.

(٢) الملاحظ أن ابن الأثير قد استتبط هذه القوالب من سجع القرآن، فكانت أغلب الأمثلة التى ساقها فى هذا الباب أمثلة قرآنية.

(٣) معلوم أن الأساس العروضى للسجع عند القدماء، بصفة عامة، هو اللفظة، ومع ذلك نلاحظ أن الأمثلة التى ضربها ابن الأثير لا تتساوى فى عدد الألفاظ فحسب، بل تتساوى كذلك فى عدد المقاطع الصوتية الداخلة فى تكوين كل آية، وهذا يكشف عن موهبة من مواهب ذلك البلاغى الذى أرى أنه كان يمتلك إحساساً عميقاً بالإيقاع العددي.

(٤) سورة العاديات: ١-٣.

(٥) سورة الضحى: ٩-١٠.

الْجَحِيمُ سَعُرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِقتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ^(١). فهذه وحدة سجعية تشتمل على أربع عشرة آية، يوجد من بينها ثلاث عشرة آية متساوية الأطوال، كل منها ثلاثة ألفاظ^(٢)، ويتجلى عبر هذه الوحدة تنظيم أسلوبى بالغ الوضوح، حيث تبدأ الآيات جميعها بنفس الصيغة وتتخذ البناء النحوى نفسه. متمثلة فى صور متتابعة من الشرط، موضوعاتها أمور مستقبلية تكشف عن اثنى عشر مشهداً من مشاهد البعث، وفيها يسهم التوازى النحوى فى خلق إيقاعية تتزايد مع وجود التوازى العدى فى كم الألفاظ. ويعد التوازى الإيقاعى المتجلى فى هذه الوحدة السجعية من خلال التتابع اللفظى المنتظم كمياً مثيراً سمعياً يعكس طرفاً من الجمال الموسيقى فى النظم الصوتى القرآنى تجلُّ به التلاوة، ويعذب به الجرس.

ويقرر ابن الأثير أن السجع المتساوى الأطوال أشرف أنواع السجع منزلة. وهناك تصورات مماثلة تؤكد ثبات هذا الحكم القيمي فى العقل البلاغى والنقدى القديم. فها هو "بهاء الدين السبكى" يقول: "أحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيهاً بالشعر فإن أبياته متساوية"،^(٣) ويضيف "ابن يعقوب المغربى" أن "أحسن هذا الأحسن أقصره قرينة لصعوبة إدراكه وعزة اتفاقه ولقرب سجعه من السجع بخلاف التطويل".^(٤) ويبدو أن ابن يعقوب يردد تصوّراً نقدياً راسخاً، إذ نعثر فى مقولات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) على تبرير آخر لحسن السجع القصير المتساوى الأطوال، إذ يقول إن "الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره، وإذا طال الكلام وجدت فى القوافى ما يكون مجتبأ ومطلوباً مستكرهاً".^(٥) ولقد حاول النقاد أن يقدّموا تبريرات تدعم الحكم بأفضلية السجع المتساوى الأطوال على باقى صور السجع وإن تمحّل أكثرهم فى إيجاد العلة الحاكمة بذلك، قال السبكى: "وعلته أن السمع ألف الانتهاء إلى غاية فى السجعة الأولى فإذا زيد

(١) سورة التكويد: ١- ١٤.

(٢) بالنسبة لعدد المقاطع الصوتية في كل آية من هذه الآيات، فهو يجرى على النحو الآتي:

[٧، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩، ١٠، ٨، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩ مقاطع].

(٣) عروس الأفراح، السبكي، جـ ٤، ص ٤٤٩.

(٤) مواهب الفتح، ابن يعقوب المغربي، ج ٤، ص ٤٤٩.

(٥) البيان والتبيين، الجاحظ، ج ١، ص ٢٧٦.

عليها ثقل عليه الزائد لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأولى كمن توقع الظفر بمقصوده من فهم المراد له ولم يجده أمامه".^(١) ويضع ابن الأثير تبريراً أبعد غوراً يُفهم منه أن "الاعتدال" المصاحب لتساوى الأطوال هو الأساس الذى حَكَمَ منطقَه فى ترتيب تساوى أطوال العبارات المسجوعة على سلم القيمة.

والواقع أن الحكم الذى أصدره القدامى فى هذا الصدد يعود إلى تقدير زائد للإيقاع بوصفه قيمة جمالية لها ارتباط بنفس الإنسان التى تميل ميلاً غريزياً إلى الاتساق والهارمونية. ويبدو أن رؤية القدامى فى مسألة السجع المتساوى الأطوال كانت مواكبة لروح عصر كان فيه الإيقاع هو مدار البحث البلاغى حتى إن قدامة بن جعفر قد ذكر عدداً من المباحث تدور كلها حول تحقيق الإيقاع الزمانى والمكانى فى العمل الأدبى وقد أجمل هذه المباحث مصدراً إياها بعبارة "أحسن البلاغة".^(٢)

وفى كل من القالبين: الثانى والثالث، يضبط ابن الأثير جماليات التفاوت المحسوب بين العبارتين المسجوعتين من حيث الطول.

فبالنسبة للقالب الثانى: يرى "ابن الأثير" أن السجعتين إذا لم تكونا متساويتين فى الطول فيلزم أن تكون السجعة الثانية - فى الوحدة المكوّنة من فقرتين - أطول قليلاً من الأولى. والظاهر أن ابن الأثير كان يحذو حذو العسكرى فى ذلك.^(٣) لكنه - على خلاف العسكرى - كان يضع شرطاً للتفاوت فى الطول، فحسبما يرى لا يكون ذلك القالب مقبولا إلا إذا كان طول السجعة الثانية غير مخلّ بالاعتدال أى: "أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول، لا طولا يخرج به عن

(١) عروس الأفراح، السبكي، جـ ٤، ص ٤٤٩.

(٢) نص كلامه هو: "وأحسن البلاغة: الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم، وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف، والمبالغة فى الوصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعانى فى المقابلة والتوازي، وإرداف اللواحق وتمثيل المعانى". جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الخانجي، القاهرة، ١٩٣٢، ص ٣.

(٣) انظر: الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٩.

الاعتدال خروجاً كثيراً؛ فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويُعد عيباً". (١)

ويمثل ابن الأثير لهذا القالب بقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَذَبُواَّ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا، وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾. (٢) فالأمر المقبول -عنده- هو أن تأتي السجعة الطويلة تالية للقصيرة وليس العكس، واختلاف الطول المسموح به -في رأيه- يكون في حدود كلمة أو كلمتين. ولكن توصيفات ابن الأثير التعليمية لا تتفق مع ما ورد في القرآن، ولا مع ما جاء في الإبداع العربي المسجوع، وقد أدرك "أبو هلال العسكري" هذا الأمر، فبرغم إلحاحه على ضرورة حدوث الطول لصالح السجعة الثانية فإنه لم يغفل وجود أمثلة تشذ عن مذهبه حيث قال: "إنه قد جاء في كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر... (حتى) جاء في كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- منه شيء كثير... كقوله للأَنْصار يفضّلهم على من سواهم: إنكم لتكثرّون عند الفزع. وتقلّون عند الطمع... (وقوله) -صلى الله عليه وسلم- رحم الله من قال خيراً فغنم. أو سكت فسلم... وكقول أعرابي: فلان صحيح النسب، مستحكم السبب، من أي أقطاره أتيتّه أتى إليك بحسن مقال، وكرم فعال... وقال آخر من الأعراب... اللهم اجعل خير عملي، ما ولى أجل". (٣) واللافت في الأمثلة السابقة، أن اعتبار العبارة السجعية الأولى أطول بالقياس للعبارة السجعية الثانية هو أمر حادث على المستوى السطحي للصياغة فقط ويتجلى خطيئاً؛ لكن الأمر يبدو مختلفاً عند تمعن المستوى الذهني، فمثلاً، في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (إنكم لتكثرّون عند الفزع. وتقلّون عند الطمع) يُلحظ أن كلمة (إنكم) تحضر -ذهنياً- في العبارة الثانية وإن لم تظهر كتابياً.

القالب الثالث: هذا القالب مكوّن من سجتين أيضاً، بيد أن السجعة الثانية فيه تكون أقصر من الأولى، وينتقده ابن الأثير واصفاً إياه بأنه عيب فاحش (٤) وحجته في ذلك "أن السجع يكون قد استوفى أمدّه في الفصل الأول بحكم طوله،

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ج١، ص ٢٣٤.

(٢) سورة الفرقان: ١١-١٣.

(٣) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٤) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، ج١، ص ٢٣٥.

ثم يجيء الفصل الثانى قصيراً عن الأول، فيكون كالشئء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها^(١). وضرورة ألا تكون السجعة الثانية أقصر من سابقتها هي من الأمور التى لقيت قبولا في مؤلفات البلاغة. وهو ما أكده "ابن سنان الخفاجي" (ت ٤٦٦هـ)، حيث قال: "فأما الكلام المنثور فالأحسن منه تساوى الفصول في مقاديرها أو يكون الفصل الثانى أطول من الأول. وعلى هذا أجمع الكتاب وقالوا: لا يجوز أن يكون الفصل الثانى أقصر من الأول والذوق يشهد بما قالوه ويقضى بصحته، ولهذا السبب استقبحوا إطالة الفصول لئلا يؤتى بالجزء الأول طويلاً فيحتاج إلى إطالة التالى له ليساويه أو يزيد عليه، فيظهر فى الكلام التكلف ويقع ما لا حاجة للمعنى والغرض إليه"^(٢).

القبالب الرابع: وبالنسبة للقبالب الرابع من القبالب التى رصدها "ابن الأثير"، فهو مكون من ثلاث سجعات الأوليان منها متساويتان فى الطول أما السجعة الثالثة فإن طولها يكون ضعف السجعتين السابقتين. وقد مثل ابن الأثير لهذا القبالب بقول من إنشائه، قال: "[الصديق من] لم يعتد عنك بخالف، ولم يعاملك معاملة حالف، وإذا بلغت أذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف"^(٣). وكما هو ظاهر، فإن السجعتين الأولى والثانية متساويتان، إذ تحتوى كل منهما على أربع كلمات فى حين تحتوى الثالثة على عشر كلمات. وهذا القبالب المسافى لافت للنظر؛ ذلك أنه -وفقاً لملاحظة "ديفين. ج. ستيوارت"- "يكافئ بيتاً مصرعاً تبعه بيت آخر غير مصرع"^(٤).

هذه هي القبالب الأربعة التى رصدها ابن الأثير لإبراز إمكانيات تشكّل المسافة فى السجع. ويرى البحث أن الأحكام التقييمية الملحقة بهذه القبالب قد

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٨٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ٢٣٤.

(٤) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ت: محمد بريوى، مجلة فصول، م ١٢، ع ٣، ١٩٩٣، ص ٢٥. هذا مع فارق أن وحدة الوزن فى الشعر هي التفعيلة، وفى السجع "اللفظة".

تكون مقبولة إذا نُظر إلى الوحدة السجعية^(١) منفصلة عن النص التي وردت فيه، فالمعايير المتمثلة في استخدام الكلمات (أحسن - ألد - عيب فاحش) هي معايير مضللة ما لم تنتج اعتماداً على وعى بالكيفيات التي تتكاتف بها وحدة سجعية مع بقية الوحدات في النص تكاتفاً ناجحاً، وهذا ما تجاهله الوصف الترائى الذى اتخذ مادة فحصه من الشواهد والأمثلة المعزولة عن قوامها الكلى. فليس للتساوى أو التفاوت فى مدى الفقرات المكوّنة للوحدة قيم مطلقة تحملها الوحدة السجعية معها إلى النص بصرف النظر عن الوحدات المجاورة لها؛ ذلك أنه تتخلق من خلال التجاور تلوينات إيقاعية جديدة، ومن ثم فقد تفقد "القوالب المسافية" القيم المطلقة التى مُنحت إياها فى الوصف والنقد الترائى.

وتدلّ هذه التعديدات التى تأخذ عن البلاغيين القدماء بالتقنين للسجع من جهة الميزان الصرفى والعروضى، ثم من جهة الطول والقصر، وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما، على نزعة شكلية تعنى بضرب من معمار الصياغة وهندسة الجُمْل المسجوعة، مما يدل على أن الشكل باتت له -بلغة الجشطالتيين- صيغة وأرضية يتحرك فوقها المضمون. وتدل من جهة أخرى على أن السجع فى عصور لاحقة ازدهرت فيها الفنون ذات الطابع الإسلامى، يحكمه كما يحكم هذه الفنون، قانون تكرار الوحدات، وهذا مما لا يتأتى دفعة عند تأمل فنون الأرابيسك، إذ يبدو تكرار الوحدات المتنوعة محكوماً بقياسات تؤلف هندسة الشكل -لاسيما فى فن الزخارف الإسلامية. ونحن على هذا النحو بإزاء قاعدتين هما التكرار والتنوّع، ومن جدلية العلاقة بينهما تتألف الصيغة بإيجاد تقسيم للوحدات اللغوية فى السجع، والشكلية فى الزخرف وفن المنمنمات، بحيث يتكرر كل قسم من أقسام الوحدات المتنوعة على نحو منتظم.^(٢)

(١) استخدم ديفين ج. ستيوارت تعبير "الوحدة السجعية" ليعبر عن عدد العبارات السجعية التى تتجمع مشكلة وحدة واحدة. انظر السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٠.

(٢) انظر: البديع فى تراثنا العربى، عاطف جودة نصر، مقال منشور فى مجلة فصول، م ٤، ع ٢٤، ١٩٨٤، ص ٧٩.

[٣] مواصفات السجع الجيد عند القدامى:

قدّم البلاغيون في تناولهم لبنية السجع دراسة موسّعة حول المواصفات الأولية التي ينبغي أن توجد في السجع الجيد. وبالنظر في مؤلفات البلاغة يتضح أن المواصفات المتعلقة بالجودة اتسمت -في الغالب- بكونها شروطاً سلبية؛ ذلك أن البلاغيين قد طرحوها في صورة مجموعة من المحاذير التي يشترط غيابها كي يدخل السجع دائرة الجودة. ولا يكاد يخلو مؤلف بلاغي اهتم بظاهرة التسجيع من ذكر مواصفة أو أخرى من المواصفات الفارقة بين السجع الحسن والسجع القبيح المتكلف. والملاحظ أن نطاقات النظر البلاغي امتدت في استظهار تلك المواصفات -أو المحاذير- إلى مستويات عدّة، فقد بدأ البعض حركته من منطقة الحرف المعزول دلاليًا، والذي ينتج التسجيع من تكرار صورته السمعية في ختام كل عبارة، وفي طليعة هذا الفريق "ابن سنان الخفاجي"، يرثى لما أصاب بعض الخطب وغيرها من الكلام المنثور من تكلف من جرّاء انشغال مبدعيها بصناعة التحسين بالمسجوع من القول، فقذف هذا التّماذي وإبلاً من غلواء التكرار. ومن هذا المنطلق قدّم الرجل شرطاً يجب اعتماده في السجع، حيث أوصى بالألا "تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد لأن ذلك يقع تعرّضاً للتكرار، وميلاً إلى التكلّف".^(١)

وإذا كان النظر البلاغي قد انصرف فيما سبق إلى حيّز الروى الواقع في ختام الفاصلة، فإن البلاغيين قد توغلوا إلى نطاقات أرحب، يستظهرون المواصفات التي ينبغي توافرها في السجع الجيد، والمحاذير التي ينبغي تجنبها فيه على كافة مستويات الوصف اللغوي: المستوى الإفرادى والمستوى التركيبى، وعلى مستوى الدلالة المتعلقة بالمفردات المسجوعة وبالتراكيب نحوية كانت أو سجعية.

فعلى المستوى الإفرادى، لم تترك البلاغة للمبدع حرية التعامل مع أى دال لمجرّد أنه ينتهى بالحرف الأخير الذى يُبنى عليه السجع، فعملية الاختيار محكومة بمجموعة من المواصفات التي ترشح لفظة دون بدائلها للحلول في ختام العبارة. وقد عمد "ضياء الدين بن الأثير" إلى الكشف عن إجراءات الحُسن في

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٧١.

القول المسجوع مَصْنُوعَةٌ في شكل شروط أربعة، الشرط الأول منها يتصل بعملية الاختيار، والأساس فيها عنده "أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة"^(١)، ويقصد بقوله (غثة - باردة) "أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن"^(٢) وقد تعارف البلاغيون المتأخرون من أمثال "الخطيب القزويني" (ت ٧٤٩هـ)، والشيخ "سعد الدين التفتازاني" (ت ٧٩٢هـ) على أن حسن المفرد وجمعي أدق - فصاحته^(٣)، يأتي من خلوه من عيوب أربعة هي: (تنافر الحروف - الغرابة - مخالفة القياس اللغوي - الكراهة في السمع)^(٤).

أما الشرط الثاني الذي ذكره "ابن الأثير" لجودة السجع فيتحقق في السياق، فللوصول إلى سجع جيد ينبغي أن يتم التركيب باتباع الخطوات التي أوضحها - من بعد - "الدسوقي"، حيث يلزم ملاحظة المعاني مع ما يقتضيه الحال من تقديم أو تأخير أو حصر أو غير ذلك، فإذا أتى بالمحسنات اللفظية بعد ذلك يكون تمام الحسن، وإن لم يؤت بها كفت النكات المعنوية^(٥). وقد حكى الجاحظ عن "بشر بن المعتمر" أنه قال في وصيته في البلاغة: "إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها؛ بل وجدتها قلقة في مكانها، نافرة من موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موطنها. فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يُعَبِّك بترك ذلك أحد. وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيهما عابك من أنت أقل عيباً منه،

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ١٩٧.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) اختصر "التهانوي" كلام "ابن الأثير" حول ما ينبغي للسجع من شروط الحسن، وبالأخص فيما يتصل بعملية الاختيار، قال إن أهم تلك الشروط هو (اختيار المفردات الفصيحة، واختيار التأليف الفصيح). انظر: كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي، م ٢، ص ٦٧١.

(٤) انظر: شروح التلخيص، ج ١، ص ٧٦ - ٧٧.

(٥) انظر: حاشية الدسوقي، على شرح العلامة سعد الدين التفتازاني على متن شروح التلخيص، الشيخ محمد بن عرفة الدسوقي، ج ٤، ص ٤٦٩.

وأزرى عليك من أنت فوقه".^(١) والتكلف الذى حذر منه بشر، يتصل -كما هو واضح من كلامه- بالعملية السياقية؛ وعلى الأخص، بعيبين أساسيين من العيوب التى يلزم التخلص منها لدخول هذه العملية إلى دائرة الجودة، أو لنقل -كما قال التهانوى- لدخولها دائرة "التأليف الفصيح". ويتمثل هذان العيبان فى (ضعف التأليف - وتنافر الكلمات مجتمعة).

ويضيف "العلوى" عنصراً جديداً لمواصفات السجع الجيد متحرّكاً -هو أيضاً- على المستوى السياقى التركيبى؛ بيد أنه لم يُعن -كغيره- بتركيب نحوى، وإنما عُنَى بالتركيب السجعى والدلالة المتعلقة به، فقد اشترط "أن تكون تلك المعانى الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة، ولا مستكرهة، ولا ركيكة مستبشعة؛ لأنها إذا كانت غريبة نفرت منها الطباع، وكانت غير قابلة لها، وإذا كانت ركيكة مجتّها الأسماع، فكل واحدة من السجعتين دالة على معنى حسن بانفراده، ولكن انضمام أحدهما إلى الأخرى هو الذى ينافر من أجل التركيب".^(٢) فإن التناقض وغرابة المعنى لا يحدثان إلا عند الشروع فى المزوجة بين العبارتين المسجوعتين لخلق تركيب سجعى، وحينئذ تكبر المسافة الدلالية بين زوجى السجع، وينغلق المعنى عن الفهم كنتيجة طبيعية للمنافرة بينهما.

ويقدم ابن الأثير شرطاً ثالثاً يتصل بالدلالة، مسئلتهما إياه من أقوال سابقيه. فهو يرى أن اللفظ المسجوع ينبغى أن يكون مقصوراً على إفراز الدلالة، وهو المطلب الذى عبّر عنه بأن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ.^(٣) فالبلغيون اعتمدوا المستويين معاً: المستوى السطحى والمستوى الذهنى فى الحكم على جودة السجع، وإذا عدنا إلى مقولات "الباقلانى" وجدناها تتطوى على الشرط نفسه، حيث يميل إلى تغليب الدائرة الذهنية على الدائرة السطحية حاثاً على ضرورة ارتباط المستوى السطحى بالمستوى العميق وترتبه عليه؛ وانطلاقاً من ذلك أخذ يفرّق بين السجع الحسن الذى ينبنى على اتباع اللفظ للمعنى، والسجع القبيح الذى ينبنى على اتباع المعنى

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٦٤.

(٢) الطراز، العلوى، ج-٣، ص ٢٢.

(٣) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، ج-١، ص ١٩٨.

فيه للفظ الذى يؤدى السجع، ويقدم الباقلانى قانونا عاما مصنوعا فى شكل مقدمات تنتج عنها فرضية مزدوجة تتحو بالسجع صوب الحسن أو تتحرف به إلى التكلف، فيمضى قائلا: "متى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى".^(١) ومن المحقق أن الدرسين البلاغى والنقدى يجعلان أصل الحسن فى المحسنات اللفظية -بل فى التشكيل الصياغى عموماً- كون الألفاظ توابع للمعانى دون العكس.^(٢)

ولا نكاد نجد ما نعزوه من جديد لعبد القاهر الجرجانى. فقد انتهى من خلال النظم إلى تصوّر يروغ إلى اعتبار اللفظ وعاء لموعى فيه هو المعانى التى ينبغى أن تكون لها السيادة والأصالة والتبعية بحكم أوليتها فى النفس، ومن ثم لم ينفلت الجرجانى من دائرة الثنائية المهيمنة على البحث البلاغى؛ أقصد ثنائية اللفظ والمعنى، صحيح أنه كان أبعد نظراً غير أنه قدّم المعانى وأعلى من شأنها ونظر فى الألفاظ بوصفها توابع وخداماً وأوعية بما يشير إلى أنها تخلو تارة وتملئ أخرى، يقول: "ومن ها هنا رأيت العلماء يذمّون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضيم لهما المعنى، ويدخل الخل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسف فى الاستعارة بسببهما، ويركب الوعورة، ويسلك المسلك المجهول. كالذى صنع أبو تمام فى قوله:

سَيْفُ الْإِمَامِ الَّذِي سَمَّتْهُ هَيْبَتُهُ لَمَّا تَخَرَّمَ أَهْلَ الْأَرْضِ مُخْتَرِمًا
قَرَّتْ بِقُرْآنِ عَيْنِ الدِّينِ وَانْشَرَّتْ بِالْأَشْتَرَيْنِ عَيْنُ الشَّرِّكَ فَاصْطِلَمًا

وقوله:

ذَهَبَتْ بِمِذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ وَالتَّوْتُ فِيهِ الظُّنُونُ أَمْذَهَبُ أَمْ مُذْهَبُ

ويصنعه المتكلفون فى الأسجاع".^(٣)

(١) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٢.

(٢) انظر: مفتاح العلوم، السكاكى، ص ٤٣٢.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ت محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٥٢٣.

وفي كتاب "أسرار البلاغة" يحدد عبد القاهر المسلك الذي لابد منه للابتعاد عن التكلف في المحسنات اللفظية، فعنده أنه لا يوجد "تجنيس مقبول ولا سجع حسن حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا".^(١) فتلك النظرات المعتمدة على أحكام سيادة المعنى وأصالته وتبعية اللفظ له، إنما تساقق ازدواجية النظر السلفي إلى اللفظ والمعنى بوصفهما عنصرين منفصلين.

وتعبر فكرة الوعاء والموعى فيه عن طبيعة فكر فريق من القدماء في تناول مشكلة اللفظ والمعنى. فقد اعتبروا الألفاظ أوعية للمعاني مثلما تبدى لنا من خلال مذهب عبد القاهر، غير أن هناك خُلف في القياس، والخُلف هنا راجع "إلى أن الرابطة بين اللفظ والمعنى تتجلى في وضع تزامن ومعية لا تسمح بانفصال أحدهما عن الآخر، وليس اللفظ وعاء يخلو تارة ويمتلئ أخرى على نحو ما هو واقع في الظروف والأوعية، ذلك أن كلاً منهما يخلق صاحبه بحيث يبدو تأمل أحدهما تأملا للآخر، وكما يكشف نسق الألفاظ عن نسق المعاني، تترتب المعاني في بنياتها وفق ما تترتب الألفاظ، وهما في نهاية الأمر وجهان متضامان لحقيقة واحدة".^(٢)

وفي سياق رصد العيوب الدلالية التي تصيب التركيب السجعي، وقف ابن الأثير متابعا لها، منتقدا تكرر المعنى الواحد في جمل سجعية متتالية؛ ذلك لما فيه من تطويل. ومن ثم اشترط "أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها".^(٣)

وقد يكون لنا أن نفكر في طبيعة التكرار الذي جعله "ابن الأثير" واحداً من محذورات التركيب السجعي، فنميز بين نوعين منه: تكرار بإعادة العبارة الأولى

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ت محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط٣، ١٩٧٩، ج١، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) النص الشعري ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة الشباب، ١٩٨٩، ص ١١٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، ج١، ص ١٩٩.

نفسها لفظاً وتركيباً وبالتبعية معنى. وتكرار بإعادة المدلول مع اختلاف الدال. والتكرار بصورتيه كان مثار خلاف في المؤلفات البلاغية؛ إذ أخذ جانباً من جدل القدامى، ووقفوا بين معارض له ومؤيد. فيرى "الخطيب القزويني" التكرار عيباً في قول ابن عباد "طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلاهم نحورهم" (١). وهذا المثال من نوع التكرار الذي عابه ابن الأثير؛ لما فيه من اتفاق المدلول بين عنصرى التركيب السجعى. والبحث إذ يستعرض الموقف من تكرار المدلول فإن له فيه رأياً. "فالمدلول لا يمكن أن يتكرر بكل حملته الدلالية والإيحائية دون تكرار الدال نفسه والنمط التركيبى للعبارة" (٢). وقد حاول اللغويين العرب إظهار الفروق اللغوية الدقيقة بين المترادفات (٣). يقول ابن الأعرابي: "كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا، فلم نلزم العرب جهله" (٤). وفى مقولة ابن عباد سאלفة الذكر يُحمل التكرار على أصل الدلالة المجردة، أو ما يرمى إليه الكلام بينما الواقع أن الكلمات فى العبارة الثانية تتحمل بدلالات وإيحاءات مختلفة بعض الشيء، وهذا ما أغفله "القزويني" حينما رأى فى استخدام الدوال: (أصلاهم، نحورهم) تكراراً معيباً لمدلول العبارة الأولى، حيث نظر إلى هذه الدوال خارج وظيفتها البانية للإيقاع، وخارج الحركية التى يبعثها تفاعل المترادفات، أو لنقل -بتعبير أدق- تفاعل شبه المترادفات فيما بين بعضها البعض.

(١) الإيضاح، الخطيب القزويني، جـ ٢، ص ٥٤٨.

(٢) قضايا الأسلوب عند الباقلاني فى كتابه إعجاز القرآن، بركات رياض، رسالة ماجستير، مخطوطة، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٨، ص ٢٥٧.

(٣) تحدث فى هذا الأمر طائفة من العلماء منهم: أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (ت ٢٣١هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ)، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت ٣٣٠هـ)، وأبو على الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، وأبو الحسين أحمد ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ).

(٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مكتبة دار التراث، ط ٣، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠. وانظر: الأضداد، أبو بكر بن الأنباري، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠، ص ٧.

ويأخذ الجدل حول تكرار المدلول الواحد شكلاً إيجابياً، إذ حاول بعض البلاغيين الكشف عن معناه وفوائده، خاصة أنه حاضر بشكل واضح في النص القرآني، ونظرة فيه تشير إلى هذه الحقيقة، فعلى وجه التكرار جاء قوله تعالى: (أُولَئِكَ فَأُولَئِكَ فَأُولَئِكَ فَأُولَئِكَ) (١) وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣) وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) وهذا ما دفع بالكثير من القدامى إلى الاهتمام بمسألة التكرار والبحث عن وظائفه. ومن هؤلاء "الباقلائي" الذي عقد باباً في كتابه (نكت الانتصار لنقل القرآن) لدراسة معنى التكرار وفوائده، محاولاً تأويل التكرارات القرآنية بحسب السياقات التي وردت فيها. "ونجد التكرار عنده ينقسم - من حيث وقعه على المتلقى - إلى قسمين: أحدهما بليغ مستحسن موظف لأداء الدلالة في النص، والآخر ثقیل مستقبح وذلك ما كان في وقت واحد وسبب واحد، يجعل المتلقى ينفر منه". (٥) ومن قبله؛ ربط الجاحظ الصياغة التكرارية بما تقتضيه الدلالة، فلا مانع عنده أن يتكرر المدلول في جملتين متتاليتين - سواء كانتا مسجوعتين أم لا - إذا كان التكرار موافقاً لضرورة المعنى وتقريره، ومن ناحية أخرى؛ ربط تكرار الصيغة أو الدلالة برغبات المبدع في لفت المتلقى إلى القول والمراد منه.

وكما حرص البلاغيون على توافر مواصفات الفصاحة في الكلام المسجوع، فقد اشترطوا كذلك وضع مجموع العوامل المصاحبة للخطاب من مقام ومقتضى حال في الحسبان حتى يضمنوا للقول المسجوع نيل مواصفات البلاغة فضلاً عن الفصاحة، فإن تحقيقها مرهون بإطار إضافي، يلزم فيه ملائمة الصياغة للحالات الإدراكية والثقافية للمتلقى، ومراعاة البعدين الزماني والمكاني ودورهما الفاعل في توجيه حركة التركيب التعليقية توجيهاً داخلياً.

(١) سورة القيامة: ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة التكاثر: ٣-٤.

(٣) الانفطار: ١٧-١٨.

(٤) سورة الشرح: ٥-٦.

(٥) قضايا الأسلوب عند الباقلائي في كتابه "إعجاز القرآن"، بركات رياض، ص ٢٥٧.

ويدلل أبو هلال العسكري على الأهمية الأسلوبية لمراعاة البعد المكانى أو المقام، بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- "قد اعتمد فى موضع تجنب السجع وهو معرض له وكلامه كان يطالبه (فقال) وما يدرك أنه شهيد... لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا ينفعه... ولو قال بما لا يعنيه لكان سجعاً".^(١) ويتدخل العسكري فى إلقاء مزيد من الضوء على هذا الاختيار الذى يتعلق بنظام بنائى محدد يكون للمقام فيه فاعليته التوجيهية؛ فالصياغة هنا كانت محكمة بطبيعة المقام وبأطرافه، حيث تتحقق البلاغة من خلال حوارية تراعى الآخر استمالة وإقناعاً عن وعى وقصد من قبل متكلم دفعه وعيه بالمقام إلى تشكيل صياغته على نحو مخصوص، فالحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قول الرسول "ينفعه" كان أليق بالمقام فعدل إليه لما لذلك الدال من قدرة على إنتاج المعنى المراد.^(٢) وما السجع إلا مدّخر من إمكانيات الصياغة والتعامل معه أو تركه مرهون بمسوّغات، إذ إن الكلام، وبخاصة البلاغى ليس صنعة بلا موجهات وإنما يتكئ على مرجعيات أساسية من أهمها مراعاة السياقات الخارجية المصاحبة لإنتاج الحدث اللغوى، وهو ما أدركه البلاغيون تحت مقولة (المقام والحال). ويركز ابن النفيس فى كتابه "طريق الفصاحة" على المقام باعتبار مراعاته خطأ أساسياً فى الوصول إلى التأثير الاستحسانى للسجع ولغيره من الأدوات البلاغية، فيذكر أنه لا "يكفى فى حسن السجع ورود القرآن به، قال: ولا يقدح فى ذلك خلوه فى بعض الآيات، لأن الحسن قد يقتضى المقام الانتقال إلى أحسن منه".^(٣) فلكى نقيّم عنصراً تعبيرياً ما يلزمنا رصد البعد المكانى، وإقامة اعتبار له، فالسجع مثلاً ليست مزيّته ذاتية بحيث نحكم بالحسن كلما واجهنا بل إن هذه المزية تركز على أمرين باعتبار أن السجع لا يبتعد تماماً عن تشكيل الناتج الدلالى، أولهما: توافق الناتج المراد مع الصياغة. والآخر: التواءم بين الناتج الدلالى والمقام والحال.

هكذا يؤسس التوافق بين الكلام وبين مقتضى الحال والمقام قاعدة تشكل

(١) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص ٢٨٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٧، ج ٣، ص ٢٩٥.

ماهية البلاغة عند القدماء، وقد شاع بين الدارسين أن هذه الأحوال المقتضاة تنصرف عند القدماء إلى أمور تتعلق بالمرسل إليه دون المرسل، والحق أن في ذلك إغفالاً لجهود بلاغية عنيت بالمتكلم، وما له من دور فعال في إبداع الصيغ الأدبية وفق أحوال نفسية متنوعة. فرجل مثل السكاكي يُعنى بكافة أطراف الاتصال، جاعلاً الصياغة انعكاساً للأحوال الخاصة والعامة للمرسل، الذي يقيم عملياته الاختيارية، ويضع تراكيبه وفق حالته الذاتية، وطبائعه النفسية والعملية، ووفق ما يحيط به من ظروف البيئة.

وبرغم الإشارات البلاغية إلى ارتباط الصياغة بمبدعها، فإنه "لا يمكن أن ننكر وجود نوع من الاهتمام البلاغي بالمتلقى على حساب المبدع أحياناً، ذلك أن تفتح الدرس البلاغي جاء متأثراً بالدراسات التي دارت حول القرآن من تفسير وتأويل، ومن نحو ولغة، حيث كان الالتكاء في هذا الدرس على ارتباط النص القرآني بمتلقيه، إذ كان هناك حرج شديد في تناول الخطاب القرآني بالنسبة لمصدره، وكان هذا موجهاً للدرس البلاغي -دون وعي- إلى الالتكاء على المتلقى وحالاته الإدراكية، وظل هذا الحرج الديني مانعاً من التعامل مع المبدع تعاملًا حرًا طليقاً".^(١)

وإذا كان من المحاذير البلاغية تبعية المعنى للفظ، فإن البلاغيين واصلوا الاعتداد بذلك المحذور خلال كلامهم عن مراعاة الاعتبار المناسب للحال، فكل حال تستدعي بناء لغويًا معينًا يأتي ناتج الدلالة بما يلائم أحوال المخاطبين ومطالب الأنماط النوعية للمواقف، ورعاية المعاني التي تناسب الوقائع على تفاصيلها هي في النظر البلاغي القديم معيار البلاغة والقوة والبراعة،^(٢) وهي ركيزة الترجيح بين المبدعين بها يتبين الكامل من القاصر. من هذا المنطق أخذ شراح التلخيص على صاحب بن عباد أنه كان يطوِّع المعاني لاختياراته الصياغية، حيث يقصد قصدًا إلى المحسن البديعي فلا يواتيه التحسين في بعض الأقوال إلا على معنى ليس مقصودًا ولا مطلوبًا ولا علاقة له بالواقع مطلقًا. ومن الأمثلة التي اعتبرت نموذجًا للمحسن المتكلف؛ مجيء التسجيع على حساب المعنى ومقتضى الحال الواقعة اللذين صاروا تابعين للألفاظ، وذلك في قول

(١) البلاغة العربية قراءة جديدة، محمد عبد المطلب، ص ٢١٢.

(٢) انظر: مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربي، جـ ٤، ص ٤٧٠.

الصاحب "أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم" فقد أراد المجانسة بين كلمة (قم) وهى اسم المدينة، وفعل الأمر قم، فلم يواتيه ذلك إلا على حساب المعنى؛ إذ صاغ معنى ليس مقصوداً ولا واقعياً؛ ولذلك قال القاضي "ما عزلنى إلا هذه السجعة" مشيراً إلى أن حاله لا تستدعى العزل، فليس ثمة خلاف بينه وبين الصاحب، ولا شكوى موجهة تجاهه من الرعية، ولكن العزل كان ناتجاً من الحرص على التحسين اللفظى فحسب. والحق أن هذه الواقعة مما يتظرف به فى كتب التراث، وفى فصول الفكاهة التى يتندر بها، وهى أدخل فى باب المضحك اللغوى.

على أن ما سبق لا يعنى أن القدماء كانوا يُقيّمون الإبداع بما له من مرجعية فى الواقع، فالمقامات العربية مثلاً تتكى بشكل لافت على أحوال تقديرية مفترضة ربما لا يكون لها صلة بالواقع، ومع ذلك فإن القدماء كانوا يأبهون بها وبالمجيد من مبدعيها من أمثال الحريري والهمذاني، اللذين أولعا بالتحسين اللفظى فوجدوا فى الكتابة وفق أحوال تقديرية حقلاً يُرحّب بغرسهم التحسينى؛ إذ إن الكتابة على مقتضى الأحوال الواقعية ربما تحجّم ذلك الميل حيث يكون الاختيار والتأليف الصياغى مرهوناً بالمعنى الواقعى المراد التعبير عنه، والذى يصير قيّداً على هاتين العمليتين.

وبهذا الإدراك للفرق بين الكتابة وفق أحوال واقعية والكتابة وفق أحوال تقديرية مفترضة علّ ابن يعقوب المغربى عجز الحريري عن القيام بمهمته فى ديوان الإنشاء ذلك أنه "لما رتب الحريري فى ديوان الإنشاء أى كلف إنشاء معان بألفاظ تطابق بتلك المعانى المدلولة مقتضى الحال وتكون مع ذلك مع بديعياتها عجز، وقد كانت له قوة وكمال فى إنشاء ألفاظ لمعان مع بديعياتها تناسب أحوال مقدّرة تجتلب كما أراد فقال فيه ابن الخشاب حينئذ: "الحريري رجل المقامات"، أى رجل له قدرة على المعانى المستحسنة المطابقة للتقدير لا المعانى المستحسنة المطابقة للواقع؛ لأن المقامات حكايات تقديرية، فإذا رام إيجاد البديعيات مع المناسبة البلاغية تأتت له بفرض المستحيلات وفرض ما لم يقع، وبين هذا وبين ما إذا أمر أن يكتب فى قضية عينية واقعة ما يناسبها بون بعيد، فإن هذا أخص، يلزم من القدرة عليه القدرة على الأول دون العكس؛ لأن الأول من كتابة ما يريد الإنسان ويخترعه وهو سهل التناول بالتجربة، والثانى

من كتابة ما يؤمر به وهو صعب إلا على الأقوياء“ (١).

وقد احتكم شراح التلخيص إلى هذا المعيار في كل جهد إبداعي قصد إلى استخدام المحسنات البديعية، ومن ثم رجحت لديهم كفة الصابي على صاحب بن عباد، ذلك أن الأول كان يكتب ما يؤمر به ويطلب منه، أي أنه يقصد إلى المعانى التى تقتضيها الحال الواقعة ثم يطلب لها ما يناسبها من مفردات، ولا يقتصر على ذلك بل يحرص على توشية هذه المفردات بالمحسن البديعى وهو أمر صعب يشير إلى موهبة إبداعية فائقة، أما الثانى فكان يقصد إلى الألفاظ ذات المحسن البديعى أولاً فتطابق الحال المفترضة التقديرية المتخيلة التى يصنعها عقله بما يتكيف مع ما يريد قوله.

حقيقة أن شراح التلخيص انطلقوا من نقطة مبدئية تشير إلى وجود تمايز فى القدرة التنفيذية على الكتابة وفق أحوال واقعية وأخرى تقديرية لكنهم مع ذلك لم يوجهوا سهمًا عشوائيًا يطعن دائمًا فى القدرة الإبداعية لمن يكتبون وفق أحوال تقديرية مفترضة يتمثلها المتكلم، وينفعل بها، وينظم كلامه وفقًا لما يناسبها من معنى بصرف النظر عن تعيينها فى الواقع، وإنما كانت سهامهم موجهة بالدرجة الأولى إلى الكتابة وفق حال مفترضة تابعة للكلام المحسن دون أى قصد إليها فيكون الكلام الآتى على مقتضى المحسن الذى تتبعه الحال ممقوتًا.

يقول ابن يعقوب: ”فإن قلت: عند تقدير الحال نظير الحاضرة فإنشاء ما يطابقها كأنشاء ما يطابق الحاضرة فلا فرق بين الحالين. قلت: هناك اعتباران: أحدهما أن يفرض الحال أولاً فكأنه يقول: كيف تخاطب من وقع له كذا؟ فلا شك أن من له قوة على الأحوال التقديرية على هذا الوجه عمومًا تكون له فى الوقائع الحاضرة غالبًا، والآخر إيجاد اللفظ ثم يفرض له ما يطابق ولو لم يقع، وهذا هو الأسهل كما وقع للملك مع القاضى فى قوله (أيها القاضى بقم...)“ (٢). وهذا التصور للحال التقديرية المناظرة للواقعية يتفق مع وعى تراثى شامل يرى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع فقط، ولكنه مطابقة الخبر للواقع ولو

(١) مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ ٤، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

بحسب الاعتقاد والشعور والإحساس.^(١)

وأحسب أن شروط حسن السجع التى توسّع البلاغيون فى تفاصيلها لم تكن شروطا جمالية بقدر ما هى شروط معيارية. فالمواصفات التى تصل بالكلام المسجوع إلى مرتبتى الفصاحة والبلاغة هى مواصفات تدنى الكلام من معياريته، حيث تعتبر أيضا بمثابة شروط ضرورية للكلام العادى المعيارى.

وثمة مجموعة أخرى من الضوابط التى تتصل بكيفية الأداء، هدفها تحقيق قدر من جمالية السجع، وقد وقفنا على بعضها أثناء الحديث عن أقسام السجع وعما ينبغى له من الطول والقصر، فالبلاغيون عدّوا المرصّع منه أعلى طبقة مما عداه؛ ذلك لما يحدثه من كثافة إيقاعية، وتتأتى هذه الجمالية بخاصة إذا كان السجع المرصّع خاليا من التكلّف. وقد أشار البلاغيون كذلك إلى أن أحسن السجع ما تساوت قرائنه فى عدد الكلمات ليكون شبيهاً بالشعر، مع منح القصير منه جمالية أعلى.

والواقع أن فريقاً من القدماء انتهى إلى نفي ورود السجع فى القرآن الكريم، حيث اعتمدوا فى توجيههم النقدى على الضوابط المشروطة لحسن السجع وقبحه فالباقلانى يتجه إلى نفي استخدام النص القرآنى للسجع مدفوعاً بوجود

(١) يتردد فى المجال الأدبى مصطلح الصدق الفنى، وليس المقصود به صدق المبدع فى التعبير عن الأمور الواقعية فحسب، وإنما صدقه فى التعبير عن أحاسيسه وانفعالاته سواء طابق الواقع أم لم يطابقه بأن انطلق من أمور متخيّلة، من هنا خرجت المقولة النقدية القديمة "أصدق الشعر أكذبه". وهذا وإن كان مشهوراً فى المجال الأدبى، فإن له أساساً ومنطلقاً أيضاً فى مجالات أخرى. ورد فى حديث ذى اليمين ما يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلى صلاة رباعية فسلم بعد ركعتين فى غير سفر، فقال له ذو اليمين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ قال: كل ذلك لم يكن، قال ذو اليمين: بل بعض ذلك قد كان، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قائلاً: أحقا ما يقول ذو اليمين؟ قالوا نعم، فقام صلى الله عليه وسلم فأكمل الركعتين. أثار هذا الحديث إشكالا خارجا من عدم مطابقة قول الرسول للواقع وهنا شبهة الكذب مع أن الكذب مستحيل على الرسول، هنا يتصدى علماء الحديث بالتعليق على ذلك، بأن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع فقط، ولكنه مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب الاعتقاد، وبذلك كان الرسول صادقا وكذلك ذو اليمين.

أمثلة قرآنية غير خاضعة لما حدّوه من ضوابط خاصة بالسجع، حيث يقول: "فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا يخرجها عن حدّها، ولا يدخلها في باب السجع. وقد بينّا أنهم يذمّون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزاً... فلو رأوا أن ما نلّى عليهم من القرآن سجعٌ لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حدّه في البراعة والحسن. ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته".^(١)

ومع ذلك، فإن فريقاً آخر ذهب إلى إثبات وجود السجع في القرآن آخذاً في استظهار ضوابط الحسن فيه من واقع نسيج النص القرآني ذاته.

* * * *

(٤) القيمة التحسينية للسجع والجدل البلاغي حولها:

لما كان السجع واحداً من أفراد المبحث البديعي فقد ألصقت به مسألة الإضافة التحسينية كما ألصقت بغيره من الأدوات البديعية؛ إذ اعتبر زينة تضاف إلى القول، كما اعتبرت عملية التحسين غاية التأثير المنشود لهذه الزينة. ومثل هذه النظرة إلى السجع باعتباره زائداً زخرفياً تحسينياً تنطلق من بعد عقائدي إضافة إلى اتصالها بإشكالية الفصل بين اللفظ والمعنى في إطار الفكر النقدي والبلاغي.

فقد كان للجانب العقائدي تأثيرات عميقة على تنمية الاعتراض تجاه السجع، مما حدا بالكثيرين إلى رفض وروده في القرآن. فأصل ذلك الاعتراض أو النفور يثول فيما يبدو إلى حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- حين أمر في جنين بخرّة عبد أو أمة. فقال المأمور بذلك: كيف ندى من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسجعاً كسجع الكهان؟".

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ١١٩.

أثار ذلك النفور من سجع الكهان إشكالا تبارت أقلام البلاغيين في تبريره، وكان مما ذهبوا إليه، أن سجع الكهان متكلف^(١) ينبني أساسًا على إضافة السجع كزائد تحسینی إلى الصياغة من غير أن يستدعيه المعنى ويتطلبه، ولهذا رفضه الرسول، كما رفض أن يُصاغ على منواله. وفي ظل تلك الواقعة والحوار المحيط بها طُرحت لأول مرة قضية تحريم إطلاق السجع على ما في صورته من القرآن؛ إذ صار السجع مرتبطًا في ذهن الدارسين له بسجع الكهان الموسوم بالزيف التحسيني من حيث يكون السجع فيه مكونًا في البناء الشكلي ربما على حساب البناء المضموني، وانطلاقًا من ذلك التصور، وصف كل من الرماني والباقلاني السجع بأنه: يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع.^(٢)

وهذا التحرك البلاغي في وصف السجع اعتمادًا على الفصل بين اللفظ والمعنى يمكن التماس ما يبرره من وجهة نظر حدائثة. فيبدو أن البلاغيين القدامى قد توصلوا مبكرًا إلى ما يُساق نظرية أرشيبالد مكليش المتعلقة برؤيته في بناء الصوت وبناء المعنى. فهو يذهب إلى أن بناء الكلمات بوصفها أصواتًا - منفصل عن بناء الكلمات بوصفها معاني، ويتضح ذلك حينما نجد بناء الأصوات دقيقًا. منتظمًا ترتاح إليه الأذن، بينما يكون المعنى غامضًا خفيًا يحتاج إلى اكتشاف العلاقات بين معاني الكلمات ومعاني التراكيب. وما ذهب إليه البلاغيون من الفصل بين طرفي بنية الكلام والقول بتبعية أحدهما للآخر، يمكن تأويله في إطار وجهة النظر السابقة، باعتبار المقصود باللفظ مسألة "بناء الصوت" والمقصود بالمعنى مسألة "بناء المعنى" وعملية تبعية بناء كل منهما للآخر يتأتى تحديدها بالنظر إلى التوجه الإبداعي والأمر المعترف في التشكيل الصياغي، فإذا كان المعترف العناية بالبناء الصوتي بكل وسيلة ممكنة وإن دخل خلل على الناتج الدلالي بما يُعمى على المعنى الأصلي المراد التعبير عنه أو يأتي به ركيكًا مبتذلًا عن غير قصد فإنه يمكن تقرير أن المعنى تابع لبناء

(١) هناك تأويلات بلاغية أخرى لذلك الحديث سوف نقف عندها في موضع لاحق من البحث.

(٢) انظر: النكت في إعجاز القرآني، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١، ص ٩٧. وانظر كذلك: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ١١١.

الصوت -أو بتعبير آخر- أنه تابع للفظ، أما إذا حافظ التحريك الإبداعي على المعنى المراد التعبير عنه وزاد على ذلك انتظاماً واتساقاً في البناء الصوتي مع مجيء الألفاظ متمكنة مستقرة في مواضعها أمكننا أن نقرر تبعية بناء الصوت لبناء المعنى أو -بتعبير آخر- تبعية اللفظ للمعنى^(١).

وهكذا نستطيع أن نقرر تاريخياً أنّ السجع كان أول أصناف البديع التي أحاط به سياج تصوّرات حاصرته في ركن الوظيفة الإضافية (التزيينية)، زاعمة أنه يناط به تجنيس الكلام دون تصحيح المعنى،^(٢) ولقد تضخمت هذه التصورات لدى البلاغيين والنقاد المتأخرين لتعمّ كل مباحث البديع. ويبدو أن هذه التصورات نمت فعلياً مع تبلور تعريف البديع على لسان الخطيب القزويني مستخلصاً إياه من كلام السكاكي، متجلية في سياق الشروح التي قامت على تلخيصه. فالبديع -عنده- هو: "علمٌ يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية

(١) انظر: الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، آفاق الترجمة، ت سلمي الخضراء الجيوشي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١١، ١٩٩٦، ص ٣٠ وما بعدها.

(٢) انطلاقاً من ذلك رفض الباقلاني وقوع تلك القشرة التحسينية غير المقصود إليها في القرآن، ذاهباً إلى أن القصد هو مبعث التجانس الصوتي في ختام الفواصل بيد أنه لم يستطع أن يمتثل لما راح يردده من أن ما على صورة السجع من القرآن مرتبطة كله بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، مسلماً بوجود مواضع معدودة يستجلب فيها لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى، ويتجلى ذلك في قوله: "ثم إن سلم لهم مسلم موضعاً أو مواضع محدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، وأن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعاً، على ما قد بينا من القليل من الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه، فلا يقال إنه شعر، لأنه لا يقع مقصوداً إليه، إنما يقع مغموراً في الخطاب، فكذاك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه". إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ١١٢. فكأننا به يقول مع من اعتقد بوقوع تلك القشرة التحسينية غير مقصود إليها في بعض آي القرآن. وهذا يخالف زعمه المسبق بقدرته على أن يظهر ما لا يخفى من الفوائد في المواضع التي يدعون أن اللفظة المسجوعة مجرد إضافة تحسينية يمكن الاستغناء عنها.

تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة".^(١) والواضح من تعريف القزويني للبديع أنه يقصد أن الكلام متى تحقق فيه البديع، فقد تحققت فيه البلاغة كل البلاغة، لأن البديع لا يعتد به ما لم يتحقق شرطاً المطابقة، ووضوح الدلالة، على معنى أن التحسين الذي قصده القزويني يكون تحسیناً ذاتياً أساسياً في علاقته بالمعنى لا عرضياً طارئاً متكلفاً كما تذهب بعض التصورات. وذلك هو المضمون نفسه الذي قصده السكاكي؛ فحين نزع إلى تبين الخواص التي تعرض للتراكيب فتكسو الكلام حسناً ذاتياً، نذ عن ذلك الغرض بعض الأمور المدرجة تحت اسم علم البديع، فكان لازماً أن يفرد لها بالذكر بعد الانتهاء من علمي "البيان" و"المعاني"، ولا أحسبه قاصداً بوظيفتها سوى التحسيني الذاتي المرتبط بالمعنى لا العرضي المستجلب لخلق الإيقاعية فحسب. قال السكاكي بعد ما تناول علمي البيان والمعاني: "وإذا قد تقرر أن البلاغة بمرجعيتها، وأن الفصاحة بنوعيتها؛ مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه إلى أعلى درجات التحسين، فما هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ".^(٢) ولقد راح أتباع القزويني وأنصاره يلوون تعريفه للبديع عن قصده وقصد السكاكي من التحسين، وأخضعوه لنظرتهم للبديع على أنه توشية وزينة طارئة، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى تحميل القزويني مسؤولية تذييل البديع وتهميش دوره.

وربما كان عدّ السجع محسناً لفظياً عرضياً أمراً مشرعاً من قبل نظرة فلسفية إلى اللفظ عموماً تتمثل في اعتباره طينياً متهافتاً.^(٣) ومع ذلك فإننا نعثر

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، جـ ٢، ص ٤٧٧.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ٤٢٣.

(٣) وقد عبر أبو حيان التوحيدي عن مذهب أستاذه أبي سليمان طاهر بن بهرام السجستاني في هذا الموضوع فقال: "إنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي، ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان لأن الزمان ينفو أثر الطبيعة، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان لأن مستملى المعنى عقل، والعقل إلهي، ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهافت". الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، صححه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، جـ ١، د. ت، ص ١١٥.

فى المؤلفات البلاغية على بعض مقولات تجعل السجع ضرورة يقتضيها المعنى، فمنذ أوائل القرن الثالث الهجرى توقف الجاحظ فى كتابه "البيان والتبيين" عند ذلك البعد العقدى الذى فجر مسلك الجدل والنفور من السجع، وكان له فى ذلك رأى معتدل، فقد أهلت نظرتة للسجع الجيد، فى إطار تنبيه لوصايا عبد الصمد الرقاشى ومحدثيه، إلى اجتياز موقف النفور والرفض للسجع، منطلقاً من مقارنة النماذج المتكلفة بنماذج أخرى سلم لها بالجودة. وأخذ يستقى منها العناصر التى تعد من مقومات السجع الحسن، فيذكر فى "البيان والتبيين" أن جودة السجع تتعين "إذا لم يطل ذلك القول، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة، أو ملتزمة متكلفة، وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء "حُلْتُ ركبى، وخرقت ثيابى، وضربت صحابى"^(١)... قال: أوسجع أيضاً؟ فقال الأعرابى: فكيف أقول؟ لأنه لو قال: حُلْتُ إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى لكان لم يعبر عن حق معناه، وإنما حُلْتُ ركبى، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب؟ وكذلك قوله: وخرقت ثيابى، وضربت صحابى؛ لأن الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره، وإذا طال وجدت فى القوافي ما يكون مجتلباً ومطلوباً مستكرهاً"^(٢).

هكذا يرجع الجاحظ جودة السجع فى كلام الأعرابى إلى توافر قصر التراكيب السجعية. فكل جملة هى مكون تركيبى أصغر، إذ تتكون نحوياً من لفظتين [فعل مبنى للمجهول، ونائب عن الفاعل]. وقلة عدد المفردات الداخلة فى تركيب الجملة كانت كفيلة - فى تصور الجاحظ - بأن توفر للكلام نقاء من صفة التكلف.

فالقضية بالنسبة للأعرابى ليست قضية السجع ولا التأثير الصوتى، وإذا كان هناك قيمة جمالية تخلفها المحافظة على التكرار الصوتى فإن تلك القيمة لا تظهر حرة من الانشغال بمدلولات هذه الدوال التى لم يجد الأعرابى عنها حولا. فكلمة مثل (ركبى) تحمل معنى لا تستطيع المفردات (إبلى، نوقى، بعرانى) تأديته؛ ذلك أن تلك المفردات لا تمثل معادلاً معنوياً مطابقاً لواقع إبل هذا الأعرابى التى لها دور محدد، وهو أنها تتركب، وهذا ما توخى الأعرابى إبرازه

(١) حُلْتُ ركبى: أى منعت إبلى من الماء والكلأ. والركاب: ما يركب من الإبل.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج ١، ص ٢٧٦.

باستخدام كلمة (ركابى). وكذلك قوله وشققت ثيابى، وضربت صحابى، مما يؤكد أن السجع جاء ملتحمًا بالمعنى.

ويؤيد عبد القاهر الجرجاني تصوّر الجاحظ لجودة هذا النموذج، حين يقول: "فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول، هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، وعبر به الفرق عليهما، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقود المعنى، وإدخال الوحشة عليه، فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره، والسجع النافر".^(١)

(٥) المهمة الموكلة بالسجع:

تولدت كافة أدوات التعبير نتيجة الإمكانيات الهائلة لاستخدام اللغة وبدخول هذه الأدوات فى نسيج الكلام، وبتحولها من مجرد إمكانيات لغوية إلى وسائل أسلوبية تبين لها بعض الأدوار، واتضح الأثر الذى تحدثه فى العملية الإبداعية، وبالممارسة استوعب المبدعون مهامها فى النصوص، بحيث يمكن أن نقول إن كل استدعاء ناجح لأى أداة من أدوات التعبير البليغ هو قرين فهم يقينى لدورها الوظيفى.

وحيث إن أولى مراحل استخدام السجع تجلت فى العصر الجاهلى، فإن ذلك يثير تساؤلًا مفاده: ما سر الحضور الواضح للسجع فى نصوص هذه المرحلة؟ المعروف جيدًا أن صيغة التواصل الأدبى فى المرحلة الجاهلية كانت الأداء الشفوى، وقد امتدت الشفاهية لتمثل صيغة التواصل فى مرحلة ما بعد الإسلام، متزامنة مع الكتابية فى عصور التدوين "فلزمن طويل كان الصوت البشرى أساس الأدب وشرطه ولحضوره فاعلية فى تفسير الأدب الأول. ومن هنا أخذ الأدب القديم [شعرًا كان أو نثرًا] شكله وطابعه"^(٢) فجاء متسمًا بالإيقاعية إذ ركز على استعمال عناصر تعبيرية ذات خصائص سمعية مساعدة فى سياق الأداء

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ج١، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، المركز الثقافى العربى، ط١، ١٩٩١، ص ١٢٧.

الشفوى، وهذا بالضبط ما نعثر عليه فى النصوص الشعرية والنثرية وبخاصة المسجوعة منها. فمن التعارض بين الشفرة المستخدمة (النطق- الإنشاد- التلاوة) وبين رغبة المبدع فى أن يجعل عمله خالداً يحفظه الزمن برزت أشكال بلاغية عديدة وعلى رأسها السجع^(١)، وقد أنتبه "والترج. أونج" إلى ذلك، إذ يقول: "فى الثقافة الشفاهية الأولية، عليك، لكى تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبر عنه لفظياً واستعادته على نحو فعال، أن تقوم بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهى... إما فى أنماط ثقيلة الإيقاع، متوازنة؛ أو فى جمل متكررة أو متعارضة؛ أو فى كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة؛ أو فى عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة؛ أو فى وحدات موضوعية ثابتة... أو فى الأمثال التى يسمعها المرء باستمرار وترد على الذهن بسهولة، وقد صيغت هى نفسها على نحو قابل للحفظ والتذكر السهل، أو فى أشكال أخرى حافزة للتذكر".^(٢) والسجع يُعد واحداً من هذه الأشكال، وأحسب أن استخدامه قديماً كان راجعاً إلى وعى بقيمته، من حيث إنه يسهم فى منح النص طابعاً بنيوياً واضحاً ومنظماً، يفرض نفسه على الذاكرة؛ ومن هنا كان إدراجه فى النظريات النقدية الحديثة- ضمن حيل الذاكرة كأحد بنيات "فن تقويتها"^(٣) فالسجع بوصفه بنية إيقاعية هو مطلب من مطالب التفكير الشفاهى الذى يميل "إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ لأن الإيقاع -حتى من الناحية الفسيولوجية- يساعد على التذكر".^(٤)

وعندما نعى تلك الأمور فإننا نفتح باباً لتلمس ارتباط أدوات الإبداع بالسياق الخارجى وبمطالب مرحلة ما بعد الإبداع التى يوضع لها اعتبار منذ اللحظة الأولى من ميلاد النوع الأدبى. لكن الأدوات التعبيرية تتحرر بالتدريج من

(١) ولعل أولية الأداء الشفوى فى التلقى تبرر الاستمرار فى توظيف الأشكال البلاغية الإيقاعية فى نصوص مرحلة التدوين فى العصر العباسى، فاستخدام القافية والسجع وغيرهما من أدوات البلاغة ذو تعلق بمسألة الإلقاء والإنشاد وشفاهية التواصل فى محافل القول.

(٢) الشفاهية والكتابية، والترج. أونج، ت. حسن عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٨٢، فبراير ١٩٩٤، ص ٩٤.

(٣) هذه هى التسمية التى أطلقها "بارت" على البلاغة عموماً، إذ يدعوها "فن تقوية الذاكرة".

(٤) الشفاهية والكتابية، والترج. أونج، ص ٩٤.

الاتصاق ببواعث استخدامها الأول، وتتحول إلى تقليد؛ وهذا يفسر بقاء استخدام السجع على مر العصور بالرغم من غياب الوسط والباعث الشفاهي الذي استدعى استخدامه. فحسب "إيخنباوم" في "نظرية المنهج الشكلي": "يختفى الوسط (التاريخي) بينما تبقى الوظيفة الأدبية التي ولّدها لا بوصفها إحدى المخلفات وإنما بوصفها إجراء يحتفظ بكامل معناه خارج علاقته بهذا الوسط".^(١)

إننا حتى الآن نتحدث عن إحدى المهام الموكلة بالسجع، وهي المهمة العامة الثابتة التي يؤديها متى حلّ في نص ما. وقد أدرك القدماء تلك المهمة العامة التي يضطلع بها السجع، حيث يقول الجاحظ: "قليل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد، لقلّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقيد، وبقلة التقلّات. وما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة".^(٢)

وكذلك ربط "ابن جني" بين الأثر النفسي الناتج من التوظيف الجمالي للسجع وبين عمليات التلقي والحفظ، إذ يقول: "قلو لم يكن المثل مسجوعاً لم تأنس النفس إليه، ولا أنفت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله".^(٣) فإن بنية المثل -عنده كما يبدو- ذات أثر سيكولوجي؛ على معنى أن تركيبها المعتمد على التسجيع يؤثر في النفس، ثم ينعكس هذا الأثر على عمليتي الاستيعاب والاسترجاع، وغياب هذه البنية في المثل يصدم انتظام القارئ، ليس ذلك فحسب، بل يصعب عليه عملية الاسترجاع.

(١) النقد النصي، جيزيل فالانسي، ضمن مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ت. رضوان ظاظا، مراجعة: المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، ع ٢٢١، مايو ١٩٩٧، ص ٢١٦.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج ١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٣) الخصائص، ابن جني، ت محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط ٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ١، ص ٢١٦.

والأداء الشفاهي من المسائل المهمة التي ينبغي اعتبارها حين نتشوق إلى فهم حقيقة الدور الذي يضطلع به السجع في النص القرآني، فالتلاوة الجهرية^(١) كانت الأساس في انتشار القرآن، ومن ثم كان لابد من احتواء النسيج القرآني على دعامة لغوية تسهم في استعادة ذلك النسيج بصورته لفظاً ومعنى، فكان السجع بمثابة نتيجة طبيعية لشفاهية الأداء؛ وذلك لما به من جوهر موسيقي يعلق بالأفئدة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.^(٢)

ولعل الحلاوة والطلاوة التي استشعرهما العربي في النص القرآني وحاول الجاحظ أن يبرز علتها -كانتا إفرازاً لأمر؛ من بينها عناية النص بالجرس والإيقاع من خلال توظيف الأدوات الإيقاعية "كالسجع" الذي يضيف -في موضعه- دلالة مستمدة من الطبيعة الصوتية للحروف بما يحقق من موسيقى تتسق مع إطار الآية وإطار السياق وإطار السورة كلها.

وانشغال عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بقضية النظم، التي لم تتخلص من الدوران في إطار ثنائية اللفظ والمعنى، قد أخرج من حظوته الالتفات إلى فضيلة الجانب الصوتي حتى إنه استبعد أن يكون البرهان الذي بان للعرب، والأمر الذي بهرهم في القرآن راجعاً إلى الفواصل وأواخر الآيات، كما رفض أن يكون قول ابن مسعود "إذا وقعت في "آل حم" وقعت في روضات دمنات أتانق فيهن"^(٣) رفض أن يكون ذلك القول من أجل الفواصل والتحسين الناتج من تشابه الحروف الأخيرة من الآيات.

(١) ثمة ضربان من قراءة النصوص: النصوص غير المكتوبة وتتسم قراءتها بكونها شفاهية جهرية. أما النصوص المكتوبة فالأساس فيها هو القراءة الصامتة عن طريق البصر. ولا شك أن التراث الديني يستمر في توثيق أولية الشفاهي حتى فيما كان منه قائماً على نص مكتوب، ففي المسيحية نجد أن كتابها المقدس يقرأ بصوت عال أثناء الصلوات الشعائرية. وتظل الجهرية خاصية النص القرآني حتى بعد تدوينه بين دفتي المصحف لأن شعائر الصلاة الجماعية تتم من خلال التلاوة الجهرية والسماع حيث تشكل المستمعين في مجموعة ذات وشائج موحدة، ويتحقق من خلال التلاوة الجهرية حضور الخالق عز وجل كمخاطب يتحدث إلى البشر.

(٢) سورة القمر: ٢٢.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٦) السجع والفواصل:

نهضت حساسية كارهة للسجع، نبئت جذورها في بيئة الإعجاز القرآني، مدفوعة، بالأخص، بنهي النبي صلى الله عليه وسلم -عن السجع نهياً صريحاً مما خلق إشكالا؛ إذ كيف ينهى عنه بالرغم من أن صورته ذات تجل وحضور في النص القرآني. والبحث معنى بدياً بتحديد أبعاد الرأي البلاغي في هذا الإشكال الذي تمخض عن اثنين من التوجهات هي:

التوجه البلاغي الأول: ويرفض أصحابه إطلاق مصطلح "السجع" على ما ورد في القرآن من تماثل الحروف الأخيرة من الآيات المتتالية، وينصرف ذلك الفريق إلى استحداث بديل آخر لمصطلح "السجع" يضمن به فصم عرى أى علاقة بين النص القرآني وما ورد من قول في البيئة الجاهلية خاصة على ألسنة الكهنة، فاستبدلوا بمصطلح السجع مصطلحا آخر هو "الفاصلة"، وتشددوا في التمييز بين المصطلحين.

والراجع أن مصطلح "الفاصلة" انبثق من رحم علم القراءات، ثم انتقل من أئمة القراءات إلى الدرس البلاغي وعلم التفسير. والتحول إلى استخدام ذلك المصطلح بدلاً من "السجع" راجع إلى أسباب سوف يلي تفصيلها.

وإذا تتبعنا دلالة لفظة "الفاصلة" وجدنا صاحب كتاب "العين" يورد في مادة سجع ما نصه "سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل، كقوافي الشعر من غير وزن".^(١) فمن الواضح أن لفظة "فاصلة" تعنى -عند الخليل- الكلمة التي عندها موضع انفصال العبارات. ويذهب صاحب المصباح المنير إلى أن الفاصلة تتطوى على بعد مكاني يقول: "يأتيك بالأمر من مفصله، أى من منتهاه"^(٢) والمعنيان السابقان يدخلان في إهاب الدلالة اللغوية للفظ، فلا تتعداهما الفاصلة إلى ما يتضمن معنى السجع إلا إذا تأكد فيها التشاكل الصوتي للأحرف الأخيرة الذي يعد

(١) العين، الخليل ابن أحمد، مادة (س.ج.ع)، ص ٢٤٤. وقد سبق أن توقعنا عند تلك العبارات في التعريف الاصطلاحي للسجع.

(٢) المصباح المنير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، طبعة وزارة المعارف، ج-٢، ص ٨٣.

جوهر القوافي أيضاً.

وبتعمق تعريف الخليل يتبين أن السجع يعنى -عنده- صفة الكلام، أما الفواصل فإنها شبيهة بالقوافي فى أمرين: أولهما، أن الفاصلة تمثل اللفظة التى تنتهى عندها العبارة من النثر وتتفصل عن العبارة التالية، مثلما تعتبر "القافية" اللفظة التى ينفصل عندها البيتان من الشعر. وثانيهما، التشابه الصوتى بين أحرف الروى، وبناء على هذا فالفاصلة -عند الخليل- تعد جزءاً من السجع.

والفاصلة عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) تعنى ما ينفصل عنده الكلام سواء أكان رأس آية أم لم يكن، يقول: "جميع ما لا يحذف فى الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف فى الفواصل والقوافي. والفواصل قول الله تعالى "والليل إذا يسر" و"ما كنا نبغ" ويوم التناد".^(١) فكلمة (نبغ) من قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٢) ليست من فواصل السجع حيث إنها وقعت فى حشو الآية، وكذلك لفظة التناد. وقد تنبه الجعبرى إلى أن مراد سيبويه هو "الفواصل اللغوية لا الصناعية".^(٣) والمعنى نفسه نقابله لدى أحد أئمة القراءات، حيث يفرق الإمام "عثمان بن سعيد أبو عمرو الدانى" بين الفواصل ورعوس الآى، منتهياً من ذلك إلى أن "الفاصلة هى الكلام المنفصل عما بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رعوس آى وغيرها؛ وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية"،^(٤) فذلك هو المفهوم الذى ظل ملازماً لكلمة "الفاصلة" فى أحضان علم القراءات قبل أن تصير مصطلحاً ذا سمات جديدة فى ظل استخدام الدرس البلاغى لها.

وثمة تساؤل يطرح نفسه على البحث، وهو: لماذا كانت "الفاصلة" -على وجه الخصوص- هى المصطلح البديل للسجع؟ يجيب "الجعبرى" على ذلك الاستفسار،

(١) الكتاب، سيبويه "أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، جـ ٤، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) سورة الكهف: ٦٤.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، جـ ٣، ص ٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٩٠.

فقد جعل لمعرفة الفواصل القرآنية طريقتين: أولهما، توقيفى عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- "فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرةً ووصله أخرى، احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة. والوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدّم تعريفها".^(١) ويشير "الجبرى" إلى طريق آخر لمعرفة الفواصل القرآنية وذلك من خلال القياس. فلما كان معروفاً استحواذ الأسجاع والقوافى على الوقفة -بوصف كل منهما يمثل لحظة السكوت المؤقت حتى يستأنف المخاطب كلامه ويستعيد قدرته على الاستطراد-^(٢) فقد أصبح الأدوات التى يقاس عليها الفواصل القياسية من منطلق كونهما القرين المناسب.^(٣) ويبدو أن هذا الإجراء القياسى كان الإرهاصة الأولى لإحلال الفاصلة محل السجع، ولتشكل الدلالة الاصطلاحية لها فى الدرس البلاغى بأن صارت علامة على شىء آخر غير الوقف، ألا وهو التشاكل الصوتى الحاصل بين الحروف الأخيرة من الآيات. فيعرفها "الرمانى" بأنها "حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى"^(٤) ويتشدد فى التفريق بين السجع والفواصل ناظراً إلى السجع على أنه نقيصة أسلوبية وعيب بينما يصف الفواصل بأنها بلاغة، ولم يلتفت إلى الطريق القياسى -الذى تحدثنا عنه- والذى يؤكد وجود حلقة وصل بين السجع والفاصلة، فالطريق القياسى لمعرفة الفاصلة -والذى اعتبرناه بداية ميلاد جديد لهذا المصطلح- يؤكد أنه ليس لأحد المصطلحين - (السجع والفاصلة) - فضل دون الآخر، لكن "التخوف على القرآن وتقديسه وتنزيه إعجازه عن النقائص، أمور أفضت بالوجدان الإسلامى رَدْحاً من الزمن إلى أن يلوذ بما لا ينور النص القرآنى، ولا يجلى بلاغته الرفيعة ونظمه المتلاحم، ونسقه الأسلوبى الذى يسقى بماء واحد، وهى فى الحقيقة مخاوف وتوجسات، استتبعت بذرتها فى تربة الجدل على أيدي

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩٠ - ٢٩١. إن الجبرى يتحدث -هنا عن الفواصل بمعناها الذى تم

إيضاحه فى علم القراءات، وليس المعنى الذى اصطلح عليه فى الدرس البلاغى القديم.

(٢) فهناك قانون بلاغى يؤكد أن مبنى السجع على الوقف.

(٣) انظر: الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، ج ٣، ص ٢٩١.

(٤) النكت فى إعجاز القرآن، الرماني، ص ٩٧.

المشتغلين بعلم الكلام، ولم تلبث أن امتدت آثارها ونتائجها إلى الدرس البلاغي^(١).
الذي نماها، فأخذ كل من الرمانى والباقلانى يبذل جهودًا كبرى - غير مقنعة - ليثبت
أن القرآن لا يتضمن سجعا، وأن السجع معيب فى ذاته، وهو أمر لا يمكن التسليم
به، خاصة مع ثبوت نسبة أقوال مسجوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لو
سلمنا معهم بما ذهبوا إليه فإن هذه الأقوال تصير عرضة للطعن، كما أن قرونا من
الأدب العربى ستكون عرضة للإدانة كذلك.

وقد أخذ القدماء ينتصرون لمصطلح الفاصلة، ويؤكدون وروده فى القرآن دون
مصطلح السجع، مشيرين إلى الأدلة الداعمة للمصطلح الأول. وكان رفض السجع
يأتى من منطلق الرفض لإطلاق اسم أو صفة لم يقع بهما إذن شرعى فى القرآن.
والظاهر أنهم قد وجدوا ما نشدوا من إذن شرعى يؤيد مصطلح "الفاصلة" فى قوله
عز وجل ﴿لَا تَجْعَلْ لِّدِينِكَ كُفْرًا وَلَا بَغْيًا وَلَا يَكْرَهًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾^(٢) وانتصار الفريق
المعارض للسجع لمصطلح "الفاصلة" جاء استجابة لمأرب آخر، وهو استقصاء كل
أبعاد التشاكل الصوتى، خاصة أنهم حصروا السجع فى المماثلة الصوتية، وقد
وجدوا فى استخدام الفاصلة القرآنية توسيعا للأفق الدلالى باستغراق المتماثل
والمقارب صوتيا معا. وفى كلام "الرمانى" صورة لما كان يعتمل من نقاش يتعلق
بإتساع الأفق الدلالى لمفهوم الفاصلة لىتضمن التقارب الصوتى بخلاف القافية فى
الشعر أو السجع من النثر. يقول معللاً لذلك: "وإنما حسن فى الفواصل الحروف
المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل
والمقاطع، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة. وأما القوافى فلا تحتل ذلك لأنها
ليست فى الطبقة العليا من البلاغة، وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة
القوافى، فلو بطل أحد الشئيين خرج عن ذلك المنهاج، وبطل ذلك الحسن الذى له
فى الأسماع، ونقصت رتبته فى الأفهام"^(٣). وبغض النظر عن مدى الاقتناع بهذا
القول فإن ما ذكره الرمانى بالنسبة للقافية يمكن أن ينطبق على السجع كذلك، الذى
يتوازى مع القافية من حيث إنه ليس فى الطبقة العليا من البلاغة وإذا أضفنا اسمه
بالتكلف، تأتى من خلال ذلك الذهاب إلى أن الكلام لا يكتنفه من البيان ما يدل على

(١) مقال، البديع فى تراثنا العربى، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) سورة فصلت: ٣.

(٣) النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ص ٩٨-٩٩.

المراد فى وجود السجع وإنما تكون مرجعية تحسين الكلام فيه ماثلة - كما هو حال القافية - فى تجانس الأصوات. فالتشاكل السجعى يعنى أصواتاً متماثلة فقط.

وتعتبر تلك المقولة بحثاً فى تقنيات الخطاب التى تسمح بإثارة انتباه المتلقين للكلام الذى يقدم لهم. فالرمانى يضع النص القرآنى - صياغة ومعنى وأدوات صانعة لهذا النسيج المحكم - فى قمة سلم البلاغة، أو كما يقول "فى الطبقة العليا منه"؛ وذلك لأنه ينقل المعنى إلى المتلقى فى أحسن صورة من اللفظ دون أن يحتاج إلى إجراء بلاغى مبالغ فى تحسينه، بما يعنى أن مجيء الفواصل على أحرف متماثلة أمر ليس حتمياً فى نظر الرمانى، وإذا حدث ذلك كان إضافة إلى بهاء الصياغة واكتمالها. أما خطاب البشر فهو - عند الرمانى - واقع فى طبقة متوسطة أو دنيا من سلم البلاغة ولذا يكون بحاجة إلى إجراء بلاغى مفتعل، يستدرج المتلقى إلى الخطاب، ويوقع به فى المقول الذى لا يستطيع أن يستحوذ عليه إلا إذا كان ذا إيقاع واتساق، ومن ثم لا تحسن القوافى والأسجاع إلا إذا جاءت على أحرف متماثلة صوتياً.

التوجه البلاغى الثانى: أما عن والتوجه البلاغى الثانى الباحث فى قضية السجع والفاصلة فإنه يتحرك فى اتجاه نقيض لزاوية النظر السابقة، إذ لم يتوقف أصحابه عند نفي السجع عن القرآن، بل إنهم أقرّوا وجوده فيه، وهو مذهب أبى هلال العسكري، وابن سنان الخفاجى، وضياء الدين بن الأثير، وآخرين. يقول العسكري: "جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج، مخالف فى تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق".^(١) إن أبا هلال العسكري، الرجل المعاصر لميلاد تيار البديع، لم ير ما يستدعى معارضة ورود السجع فى القرآن؛ لأنه بالفعل أداة أسلوبية ذات وجود مؤكد فى نسيج النص.

وفى سر الفصاحة رأى معتدل فى قضية السجع والفاصلة، ففيه أن الفاصلة القرآنية على ضربين؛ "ضرب يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع، وضرب لا يكون سجعاً وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعنى المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعاً سهلاً وتابعاً

(١) كتاب الصناعتين "الكتابة والشعر"، أبو هلال العسكري، ص ٢٨٥.

للمعاني وبالضد من ذلك؛ حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو المذموم المرفوض. فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه في الفصاحة وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة^(١). ومن تحليل ابن سنان لأضرب الفواصل تبرز المعايير التي بواسطتها تتفاضل أنماط الفواصل، فالمحك الأساسي في ذلك هو أن تفضي المعاني إلى أي ضرب منهما إفشاء طبيعياً بحيث تأتي الفاصلة متمكنة في مكانها، أما إن كانت الألفاظ هي المفضية إلى الفاصلة فإن ذلك يجعل الكلام بعرض الاستكراه والضعف والتكلف. وتلفتنا فطنة ابن سنان إلى أن "المحذورات التي من أجلها كان ذم السجع ليست ذاتية له ولا ناشئة من طبيعته، وإنما هي أمور عارضة يمكن أن ينفصل عنها ويتجرد منها فلا يكون مذموماً"^(٢). فعنده أن "المذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ورد ليصير وصلة إليه"^(٣). وثنائية معيار التقويم هذه هي المذهب المجمع عليه لدى المشتغلين بالبلاغة القديمة، والملاحظ "أن التصورات القديمة عالجت محسنات البديع، بلة الموضوعات البلاغية الأخرى، انطلاقاً من هذه القسمة الصارمة؛ فهذه كومة من الألفاظ، وتلك كومة من المعاني"^(٤).

وفي "المثل السائر" يتجلى موقف دارسي تقاليد البيان العربي من وقوع السجع في القرآن - وهو موقف معارض بشكل ظاهر لموقف دارسي إعجاز النص القرآني ومفسريه - يقول ابن الأثير: "وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم؛ فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة، كسورة

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٦٥. وعبارة ابن سنان عالياً، توحى ضمناً باستخدام مصطلح "الفاصلة" في غير النص القرآني.

(٢) مقال: السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، الشيخ عبد الرحمن تاج، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٣٦٤، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٣٤.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤) البديع في تراثنا الشعري، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، ص ٧٥.

الرحمن، وسورة القمر، وغيرهما، وبالجمله فلم تخل منه سورة من السور“ (١).
والأمر الغريب ذهاب ابن الأثير إلى أن نم فريق من القدماء للسجع نابع من
إخفاقهم في الصياغة على منواله، فيراه غير مكروه لذاته. غير أنه لم يأخذ من
رفضهم للسجع منطلقاً إلى إعادة تفسير لنظرتهم المناوئة له؛ ”إذ ليس من اللازم أن
الإنسان إذا عجز عن شيء كرهه دائماً، بل قد يعجز الإنسان مثلاً عن قول الشعر
مع إعجابه به وبمن يقوله“ (٢).

ويبدو أن اعتدال النظرة إلى السجع قد نشأ من الإقرار بأعراف إبداعية جديدة.
فتلك المؤلفات التي لم تمنع من ورود السجع في القرآن ولم تر فيه نفوراً ولا
استكراهاً قد عاصرت استيعاب تيار البديع بعد أن اختفت وطأة النقد والمعارضة
التي وجهت إليه وانبهر به عدد من المبدعين والقراء، وقد شكل استيعاب تيار
البديع نقطة انطلاق التمرّد على الموقف القديم من السجع، وأخذ الموقف اتجاهها
معاكساً لما كان عليه من قبل، إذ درج النقاد والبلاغيون على تنصيب الشاهد
القرآني بوصفه أعلى ما وصلت إليه البلاغة - حكماً ومقياساً وزنوا عليه التقدّم في
توظيف ضروب البديع، وفي مقدمتها السجع. ومن هنا جاءت المراقبة الواعية
لتشكلات السجع في نصوص العربية عامة وفي النص القرآني بصفة خاصة، كما
جاءت العناية بالشروط الواجب توافرها في السجع الجيد.

وأقول بعبارة أخرى إن تأمل أدوات الإبداع اقترن على مر العصور بتأمل
موازٍ في النص القرآني، فهو الخطاب المهيمن، وهو الخطاب الذي يُوجّه لمتلق عام
ومن هذا المنطلق أصبح هاجس البلاغيين والنقاد التدليل على أن بنية النص القرآني
لا تتوقف عن انفتاحها وأنها مؤهلة لأن يلحظ داخلها كل تحول إبداعى جديد، وكان
ذلك التدليل حتمياً خاصة بعد أن تم استيعاب ذلك الإبداع، والتف حوله حواريوه.

السجع في القرآن بين المعارضة والقبول، وتفنيد كل فريق لأدلتهم: وبين
معارض لورود السجع في القرآن ومؤيد، راح كل فريق يقدّم الأدلة الداعمة لمذهبه
في الرفض أو القبول. وتوقفوا عند حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ص ١٩٥.

(٢) دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر،
ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ٤٧.

قدمنا من قبل، والذي نهى عن السجع بقوله: "أسجعًا كسجع الكهان". فقد شغل هذا الحديث القائمين على شرح قضايا الإعجاز القرآني والتفسير البلاغي، وأول ما يعثر عليه في هذا الصدد ما قدمه أبو عثمان الجاحظ في سياق الحوار الدائر بين عبد الصمد بن عيسى الرقاشي ومحدثيه من المسجدين بالبصرة، حيث تأمل "عبد الصمد" ما في حوزته من عبارات الرجل التي أنشأها على غرار أسجاع الجاهلية فلم يجد فيها شبهة تكلف من حيث الصياغة بيد أنه ربطها بمقصد الرجل إلى إبطال الحق المأمور به متوسلاً طريق التشادق في القول. أورد الجاحظ قول الرقاشي: "لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن، لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق في الكلام".^(١)

وقد اتخذ "الباقلاني" من ذلك الحديث مؤيداً لنفي السجع من القرآن، ويعلل نفيه بعيداً عن الصياغة جاعلاً من الكهانة وحدها دافعاً لذلك قال: "كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب؟ ونفيه من القرآن أجدر بأن تكون حجة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر".^(٢)

أما أبو هلال العسكري فإنه يتجه بصورة تعسفية إلى تأكيد سيادة التكلف في عبارات الرجل انطلاقاً من موقف مسبق ينهض على الاعتقاد التام في تفشي التكلف في سجع الكهان.^(٣) ويذهب ابن الأثير إلى مثل هذا القول: "فالسجع إذا ليس بمنهى عنه، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع في قول الكهان؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسجعاً كسجع الكهان؟ أى: أحكما كحكم الكهان؟"،^(٤) إذ "لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال: "أسجعاً. ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان، فلما قال: "أسجعاً كسجع الكهان" صار المعنى معلقاً على أمر".^(٥) فالسجع عند ابن الأثير ليس مذموماً في ذاته، وكذلك كلام الرجل "فالسجع الذي أتى به... كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكر لنفسه؛ وإنما

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ ١، ص ٢٧٦.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ١١١.

(٣) انظر: الصناعتين، العسكري، ص ٢٨٦.

(٤) المثل السائر، ابن الأثير، جـ ١، ص ١٩٧.

(٥) المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٩٦.

المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة".^(١)

وفى ظل حركة النقد والبلاغة والتفسير، التى اتخذت من إثبات إعجاز القرآن وتفرّد نصه بخروجه على المعهود من نظام جميع كلام العرب -مدخلاً للرد على أرباب عقيدة التوحيد والعدل من المعتزلة ومن اتبع سبيلهم، ممن قالوا بالصرفة كمحصلة منطقية لإيمانهم بكون كلام الله مخلوقاً صرف عن معارضته أنه إلقاء فى الروح. ومن هذا المنطلق اتجه النقاد والبلاغيون إلى إلحاق الدونية بمفهوم السجع ليكون فى درجة مغايرة لما هو فى تقدير السجع من القرآن.

ويبدأ الرمانى فى طرح أدلته على نفي السجع من القرآن إذ يقول: "إنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة؛ إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة".^(٢) يبنى الرمانى وجهة نظره فى رمى السجع بالعرضية من خلال رجوعه إلى جذره المعجمى أو الاشتقاقى. والغريب أن الرمانى قد جعل الأصل الاشتقاقى محدداً لقيمة المصطلح -باعتبار أن الاصطلاح يكون قائماً على عملية واعية- على أن "الباقلانى" يرفض رد تكلف المصطلح الاشتقاقى وحده، ويقرر أنه لا معنى لهذا الاتجاه "لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاقى وحده، ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا؛ لأن رويّه يتفق ولا يختلف، وتتردد القوافى على طريقة واحدة".^(٣)

وإذا كان الباقلانى لا يقبل التصوّر السابق، فإنه يقدّم تصوّرات ومبررات أخرى وذلك من خلال تحليله لعدد من الأدلة التى يراها مؤهلة لرفض ورود السجع فى القرآن. ويخرج الدليل الأول من المفاضلة بين القرآن الكريم والقول البشرى. فلو "كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز...

(١) المصدر نفسه، ج١، ص ١٩٧.

(٢) النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ص ٩٨.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٥.

ولو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو إلى معارضته، لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم... ولو كان عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به، ويصرفونه إليه ويتوهمونه فيه، وهم فى الجملة عارفون بعجزهم على طريقه، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم^(١). ويرى البحث أنه لو كان الهدف هو تفرّد النص القرآنى بمصطلحه دون غيره من القول العربى، لما قلنا بورود التشبيه والاستعارة والجناس وما إليها منبنى البلاغية التى لم يتعلل القدماء لوقوعها فى النص القرآنى. "ومما يؤسف له أن هذه [الأدلة] الضعيفة... لا تتفق مع اللغة العربية وما تميزت به من مرونة واتساع وتفنن فى التعبير. وليس فى القرآن آية واحدة تدل على أنه كالم العرب بما لا يفهمونه إذ يقول تعالى: ﴿لَلِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٣)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٦). هذه الآيات وأمثالها تدل على أن القرآن إنما كالم العرب وفق ما كانوا يتعاطون من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وسجع وتجنيس ومقابلة^(٧)."

والدليل الثانى من أدلة الباقلانى فى نفى السجع عن القرآن هو: أن السجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تتافى النبوات وليس كذلك الشعر.

والدليل الثالث: نحى إلى تعيين الانفصال بين السجع وما جرى على مثاله من

(١) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١١-١١٤.

(٢) سورة النحل: ١٠٣.

(٣) سورة إبراهيم: ٤.

(٤) سورة يوسف: ٢.

(٥) سورة الزخرف: ٢.

(٦) سورة الشورى: ٧.

(٧) البديع فى تراثنا الشعرى العربى، عاطف جودة نصر، ص ٧٤.

القرآن من خلال ما لاحظته الباقلاني من عدول القرآن عن الضوابط التي وضعت للسجع الحسن. وقد نشأت نظريته هذه من اعتماد الضوابط بداية ثم يليها تطبيق ما في النص القرآني عليها. وهذا الدليل لا يفي بغرضه في نفي ورود السجع في القرآن الكريم، إذ لا يستطيع أن ينفي ورود بعض الآيات ملتزمة لهذه الضوابط التي رآها أصلاً في السجع.

ويذهب أحد المستشرقين وهو -ديفين استيوارت- إلى أن سبب رفض الباقلاني لوقوع السجع في القرآن هو اعتقاده بأن "أية محاولة للقول بوجود قواعد شكلية تتال من قدرة الله".^(١) ونسأل: ألا يرى أن ذهاب الباقلاني إلى القول بالفواصل هو من قبيل الاعتراف بالقواعد الشكلية لا نفيها كما يدعى.

والدليل الرابع: ويتصل بالمصطلح المناسب للقول بوجوده في القرآن. وقد أعرض الباقلاني عن مصطلح السجع انطلاقاً من التحديد الاشتقاقي له، وهو إدبار يرتوى من منبع ديني بحت.

ويرى القائلون بوجود السجع في القرآن أنه مما يبين به آثار الصناعة، وتتجلى الفصاحة في استخدامه؛ ذلك أن براعة استخدامه يتضح بها فضل الكلام. وقد استشهدوا على كثرته في النص القرآني. ورغبة في تنزيه القرآن عن أن يكون مماثلاً لأي نص بشري فقد شددوا على أن ما جرى على القرآن من السجع والازدواج مخالف لأي نص بشري فقد شددوا على أن ما جرى على القرآن من السجع والازدواج مخالف في تضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق.

والخلاصة أنه قد بان من دراسة قضية السجع والفواصل على هذا النحو الذي قدمناه، أن رفض السجع انبثق من أصل عقائدي، حاول بعض البلاغيين والنقاد والمفسرين التماس ما يؤيد مذهبهم، بيد أنهم تعسفوا نتيجة لهذا البعد العقائدي فلم يتجهوا إلى النص مباشرة للمقارنة بين ما ورد فيه وما هو من السجع، ولكنهم سلكوا طريقاً آخر باعد بينهم وبين العمق في إثارة القضية بشكل علمي موضوعي.

(١) السجع في القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستوارت، ص ١٠.

كانت هذه وقفات حول مفهوم السجع فى التراث ووظيفته مع مناقشة آراء المعارضين لوجوده فى القرآن، والقائلين بوجوده. ونحاول فيما يأتى الوقوف أمام النص القرآنى لاستجلاء هذه السمة الأسلوبية ومدى تجليها فيه وذلك من خلال دراسة تحليلية تتخذ منحى أسلوبياً.

الفصل الثانى

السجع القرأنى (كميا - صوتيا - شكليا)

[١] الإحصاء الكمى ودلالته

[٢] البناء الصوتى

[٣] البناء الشكلى

[1] الإحصاء الكمي ودلالاته

يهتم البحث في هذه الجزئية من الدراسة برصد مجموع البنى السجعية مقارنة بمجموع البنى المرسلّة؛ للوقوف على نسبة كل منهما واستخلاص الدلالة الكلية التي يمكن أن تحدد موقف الخطاب القرآني في الميل إلى إحدى الطريقتين: السجع أو الترسل.

وقد يطعن البعض في قيمة العناية بهذه المعالجة الإحصائية، مشيراً إلى أن ميل النص القرآني إلى استخدام السجع أمر يبدو واضحاً ليس في حاجة إلى إحصاء للتدليل عليه. وبالنسبة لرؤية البحث فإن لها توجهاً آخر، فالتصورات المبدئية الموجهة من قبل الشعور والإحساس تبقى في عداد الافتراض الذي يحتاج إلى الكشف عن مدى كفاءته، وقد نجانب الصواب إذا قنعنا بالحدس وحده عاملاً يوجه الاستنتاجات والأحكام العلمية، وإذا تعاملنا مع الاستنتاجات المؤسسة على الحدس على أنها حقائق قاطعة. ويصدق هذا الكلام -بصفة خاصة- على الأحكام التي تقطع بترجيح كفة ظاهرة أسلوبية على بدائلها من ناحية الكم، وذلك دون أن تعتمد إلى استخدام إجراء حاسم يحول الحدس إلى يقين. إن هذه الأحكام تظل افتراضات فحسب؛ وهنا تتمثل الحاجة إلى اختيار وسيلة علمية منهجية يختبر بها ثبات الحكم الافتراضي، ومن ثم تصبح للمعالجة الإحصائية قيمتها؛ حيث إنها تفيد في قياس مدى كفاءة الافتراضات المطروحة، كما تمنح فرصة اكتشاف العديد من النتائج التي تتوارى خلف التصور المبني على الحدس، وذلك من خلال استكناه الدلالات الإحصائية للأرقام.

بيد أن الحكم المعتمد على الحدس والحكم المؤسس على الإحصاء ليسا حتماً أن يكونا على طرفي نقيض، فالغالب أن يتفقا، ومع ذلك فإن الإحصاء يظل له مبرراته أيضاً، إذ لا يمكن الجزم عن طريق الحدس بأن التفوق الكمي لظاهرة أسلوبية على بدائلها هو تفوق دال أو ذو قيمة، ولا يمكن التأكد من ذلك إلا بتحديد دقيق لمدى كثافة الظاهرة وبدائلها في النص، فقد يكون تفوقها محدوداً للغاية لا يُمكن الاعتماد عليه في القطع بمسألة الاختيار الأسلوبى، أو بتعبير آخر، لا يعتد به في تحديد الإيثارات اللغوية للنص. علاوة على ذلك فإن تقييم دور الظاهرة في التشكيل الأسلوبى للنص لا يتحدد بشكل جاد وصارم إلا بعد تعيين درجة شيوعها وطرق توزيعها.

ودراسة السجع القرآنى تستدعى قبل بدء الإحصاء أن يقوم البحث بتحديد مفهوم السجع الذى سيتبناه التطبيق، خاصة بعد أن تكشف من متابعة آراء البلاغيين والنقاد القدامى وجود عدة مفاهيم تطلىق عليها جميعا لفظة سجع، وبعد أن رأينا بنيتى الموازنة والالتزام تجتازان بوابة السجع، وتصحبان جزءاً منه على يد بعض البلاغيين مع أنهما بنيتان مختلفتان عنه تماماً.

فالسجع: من التتويجات اللغوية التى تتأتى على المستوى السطحى للصياغة، ويتسم بكونه بنية بديعية إيقاعية يرتكز إيقاعها على التكرار الصوتى المنتظم، إذ يعتمد على تكرار الحرف الأخير من الفقرة فى نهاية الفقرة التالية لها. ويسمى الحرف الذى يتولد السجع من تكراره "روياً"، كما تسمى الكلمة موطن الروى "قاصلة". وهناك مجموعة مصطلحات أخرى مصاحبة، يتعين على البحث تحديدها؛ ذلك أنها تشكل بعضاً من معجمه اللغوى الذى سيطالعنا كثيراً فيما يلى من صفحات. فالسجع يقسم الكلام إلى عبارات يطلق على الواحدة منها فقرة أو "عبارة مسجوعة"، ويطلق على العبارات المسجوعة فى علاقتها بعضها ببعض داخل الكلام مصطلح "تراكيب سجعية"، والتراكيب نفسها تنتظم فى كيان كلى هو وحدة؛ وهو المصطلح الذى رده "ديفين ج ستيوارت" فى دراسته لبنية السجع فى القرآن.^(١)

وإذ يتوجه البحث إلى إحصاء السجع القرآنى ومعاينة تجليه فى النص فى مقابل تجلى الترسل، فإنه يضع نصب تحركه قضية ينبغى مناقشتها أولاً.

فالتعريف المتقدم يوضح الركيزة الجوهرية لحضور بنية السجع فى النص، فهى تقوم على تكرار الحرف الأخير من عبارات تدخل فى تركيب أساسه هذا التكرار، وتولد السجع يعتمد -على الأقل- على ثنائية بوصفها حدًا أدنى للاشتراك فى الصوت الختامى؛ ومن ثم يتجلى مفهوم الوحدة متمثلاً فى بنية السجع. ويرى البحث ضرورة استثمار هذا المفهوم لتحديد الآيات المسجوعة الداخلة فى وحدة من الآيات الأخرى غير المسجوعة، وفى هذا الصدد تتقدم بعض التساؤلات لتطرح نفسها على البحث، منها: هل يكتفى فى تحديد الوحدة

(١) انظر: السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٠.

السجعية بملاحظة تكرار الحرف الختامي من الآيات فحسب؟ وهل سورة تنتهي آياتها بالحرف نفسه تعد وحدة سجعية واحدة؟ ما عدد الآيات في الوحدة السجعية القرآنية؟ يلاحظ أن في القرآن الكريم آيات تحتاج إلى إنعام نظر لتحديد وضعها الإحصائي أهى من السجع أم الترسل؛ ذلك أنها قد تتفق مع الآية التالية في الحرف الأخير بينما تختلف مع السابقة أو العكس، والطريق الأمثل لتحديد وضعها الإحصائي هو التوجه إلى النص لرصد إجراءاته في تجميع الآيات القرآنية المسجوعة في وحدات يتعين بتحديد ما معرفة الآيات الأخرى غير المسجوعة التي تتخلل بناء النص.

ولقد شغلت هذه المسألة "ديفين ج. ستيوارت". فقام في مقال "السجع في القرآن: بنيته وقواعده". باقتراح عدة أسس تجميعية لأجزاء الوحدة السجعية القرآنية.^(١) فهو يرى أن تماثل مقاطع الفصول في السجع ليس العامل التجميعي الأساسي في عملية الربط بين الآيات، "فالقرآن يمدنا بأعداد كبيرة من السطور المتوالية المتحدة القافية بحيث يصل عددها إلى أربعين أو أكثر أحيانا غير أنه من الواضح في بنيتها أن السطور تنقسم إلى وحدات أصغر".^(٢) كما يذهب ستيوارت إلى أن الاعتماد على التماثل الحرفي في تحديد عدد الأجزاء المشاركة في تكوين الوحدة السجعية يعد غير كاف ولا دقيق، ويعلل ذلك بأننا قد نجد مجموعتين من السجعات مميزتين تميزا واضحا ولهما مع ذلك نفس القافية. وبناء عليه اتجه "ستيوارت" إلى تقديم بعض الاقتراحات بالأسس التجميعية في الوحدة السجعية القرآنية استخلصها من المتابعة الرصدية للقرآن، كما قام بمتابعة القواعد التي يمكن أن تتخذ مؤشرا على الانتقال من وحدة سجعية إلى أخرى، وفيما يلي تلخيص للأسس التي اقترحها بوصفها إجراءات يقوم بناء عليها تقسيم السجع القرآني إلى وحدات سجعية.

الأساس التجميعي الأول: المطلع

والمطلع: عبارة افتتاحية يتعلق بها دلاليات بقية الآيات بعدها. ويذهب "ستيوارت" إلى أن الإتيان بمطلع جديد معناه بدء تلقائي لوحدة جديدة.

(١) انظر: السجع في القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٢-٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢-٢٣.

وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة يكون فيها المطلع هو العنصر التجميعي، ومثل ستيوارت^(١) لذلك بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.^(٢) فالعبارة الموضوعية بين قوسين تمثل الرابط الذي يشد أجزاء الوحدة إليه. والملاحظ أنها تتكرر على المستوى الذهني، فتمتد ذهنيا في الآيتين الثانية والثالثة وإن لم تتكرر خطياً. وقد أتى ستيوارت بهذا المثال السابق حيث إنه يعتمد في تعريف السجع النوعين المتماثل والمتقارب معاً. ومع ذلك فإن الإجراء الذي رصده له حضوره في آيات قرآنية تنتهي بالتماثل الحرفي مثال قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾.^(٣) ويلاحظ في النص القرآني أن العبارة الافتتاحية قد تكون كلمة أو كلمتين أو فقرة كاملة تمثل العامل المعنوي المشترك الذي يجمع أجزاء الوحدة، وهذه الفقرة قد تكون عنصراً من عناصر السجع، أو مستقلة عنه. ونمثل للحالة الأولى بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْيِرُّ، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى. [إِنَّ الْإِنْسَانَ] خَلَقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.^(٤) نرى هنا كيف جاءت كل وحدة على روى واحد، تجمع بين أجزائها علاقة معنوية وثيقة، ونمثل للحالة الثانية بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا، [وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾.^(٥) فإن الآية الأولى من بداية كل وحدة تظهر مستقلة بذاتها غير داخلة في السجع، ومع ذلك تمثل مركز انطلاق العامل المعنوي المشترك الذي تسرى فاعليته في بقية الآيات المكونة للوحدة.

الأساس التجميعي الثاني: طول الفقرة. فالوحدة السجعية تتغير بتغير طول السجعة حتى وإن لم يختلف الروي. ويمثل "ستيوارت" لذلك بقوله تعالى: ﴿أَقُلْ أَغُودًا بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ،

(١) انظر: السجع في القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ١٧.

(٢) الفاتحة ٢-٤.

(٣) الغاشية ١٣-١٤.

(٤) المعارج: ١٥-٢١.

(٥) الانشقاق: ٧-١٢.

الَّذِي يُوسِّنُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿١﴾ فبالرغم من اتفاق الروى فإن السورة تنقسم إلى وحدتين، وتمثل أطوال الآيات الأساس التجمعى فى كل وحدة سجعية منهما، فالوحدة الأولى مكونة من مطلع يعقبه كلمتان فى كل آية، أما الوحدة الثانية فإنها مكونة من كلمات أربع ثم خمس ثم ثلاث.

الأساس التجمعى الثالث: توازى التركيب النحوى. ولدينا فى سورة التكوير أربع عشرة عبارة مسجوعة تكون وحدة متماسكة، ونلاحظ فيها أن هناك درجة عالية من التوازى بين العبارات التى ينتظمها تركيب نحوى واحد من أولها إلى آخرها. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ﴾ (٢).

الأساس التجمعى الرابع: استخدام آية تقريرية أو فاصلة، ونسميها آية فاصلة؛ لأنها تفصل بين الوحدات، وتعين حدود الوحدة. ونرصد تكرار الآية الفاصلة فى ثلاث سور قرآنية برزت فيهن هذه الظواهر الأسلوبية بشكل لم يبدو فى غيرها. والسور الثلاث هى "الرحمن - القمر - المرسلات". فقد تكررت ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فى الرحمن إحدى وثلاثين مرة. و﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ فى القمر أربع مرات، و﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ مرتين. وتكررت ﴿لَوْ يَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فى سورة المرسلات عشر مرات.

الأساس التجمعى الخامس: حرفه الروى. فإن تغيير حرف الروى بعد عدد من الآيات هو أحد وسائل فصل النص بين وحداته السجعية، "ولدينا فى سورة العاديات مثل واضح لهذا النوع فى البناء ﴿وَالْعَادِيَاتُ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتُ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتُ صُبْحًا، فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا، فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ،

(١) سورة الناس: ١ - ٦.

(٢) التكوير: ١ - ١٤.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ^(١). تنقسم السورة إلى أربع وحدات مسجوعة، لكل واحدة منها روى مختلف^(٢). هو على الترتيب (الحاء، والعين، والdal، والراء).

هذه هي الأسس التجميعية التي رصدها "ستيوارت" في دراسته للسجع القرآني. ويلاحظ أن غالبية تحركات "ستيوارت" كانت على مستوى السطح الصياغي معتمداً على التغيرات الشكلية فحسب، وهذا جهد لا يمكن إغفاله، بيد أنه لا يكفي لرصد كل الوحدات السجعية في القرآن الكريم. فمن الواضح أنه لا يمكن القيام بمسح شامل للسجع القرآني بالاعتماد على هذه الملاحظات الشكلية فقط، فثمة حاجة إلى أساس تجميعي يمكن إجراءه في النص بكامله لتحديد الآيات المسجوعة وتمييزها من الآيات المرسلّة، وقد راح البحث يستقصى في نص القرآن الكريم عن إجراء عام أو يمكن تعميمه.

فإذا عدنا إلى سورة العاديات التي مثل لها ستيوارت على تصنيف الوحدات السجعية وفقاً لتغير حرف الروي إذا عدنا إليها وقرأنا وحداتها كلا على حدة، فسنرى ماهية العلاقة التي تربط بين فقرات الوحدة، والتي بدت -هنا- واضحة كل الوضوح. فإن ما يمسك حبل مجموعة من الفقرات وينتظمها جميعاً في وحدة سجعية واحدة ليس فقط تماثل أحرف الروي، بل إن بين الفقرات رابطاً آخر لم يتعرض له التحليل البلاغي ويبدو أن الدراسات الحديثة -أيضاً- لم تلتفت لوجوده عدا دراسة محمود المسعدى لإيقاع السجع العربي^(٣). فمن الظواهر اللافتة في هذه السورة، أن الخروج من وحدة سجعية إلى أخرى، كان يرتبط بالخروج من فكرة إلى فكرة، أو من مقام إلى مقام. فالآيات الثلاث الأولى تنبئ على القسم؛ إذ يقسم الله سبحانه وتعالى بالخيل الغازية حتى تعدو فتضبح، ويمتد المشهد الذي تكون فيه الخيل هي المحور الأساسي للحديث

(١) العاديات: ١-١١.

(٢) السجع في القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستيوارت، ص ٢٦.

(٣) يقول محمود المسعدى: "فينبغي التأكيد على أن ظاهرة المزاجية المعنوية لها في السجع أهمية تحمل على ترك القول بأن القافية هي العنصر الأساسي فيه والتأكيد على أنها مجرد عنصر إيقاعي لا يعدو الوظيفة الإضافية التي بينها". الإيقاع في السجع العربي محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦، ص ٤٩.

مصوراً أثر عدوها حين تتقدح النار من حوافرها، وهى تسعى جاهدة للوصول إلى مكان الإغارة فى الوقت المحدد (أى فى الصباح). وينتقل محور الحديث فى الوحدة الدلالية الثانية من الخيل والقسم ووصف صفات هذه الخيل فى عدوها إلى الوادى الذى حدثت فيه الإغارة ليصور شكله بعد عدو الخيل به، وقد علاه الغبار، والتقت فى وسطه الخيل العاديات بجموع الأعداء. ثم يأتى الجواب على القسم مُمثلاً محورا معنويا جديداً يتأكد من خلاله كفران الإنسان بنعمة ربه، حيث تتصرف الألف واللام فى كلمة الإنسان (التعريف) للعهد دون الجنس، إذ ليس كل الناس كنودين كفرة جحدة. والإنسان هنا هو مركز الحديث، هو نفسه شاهد على كفره بنعم الله مع حبه الشديد لها حباً ينسيه آخرته وما يحدث يوم البعث من حساب وجزاء على ما قدمه من عمل. واختيار المقسم به يراعى فيه الصفة التى تناسب الموقف المقسم عليه؛ فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "الخيـل معقود بنواصيها الخير"^(١)، وفى هذا القول كناية عن الغنائم التى ينعم الله بها على المنتصر بعد انتهاء الغارة، فالعلاقة الدلالية العرفية بين الخيل والخير هى علاقة السبب بالمسبب، وقد تسمى الخيل خيراً لتعلق الخير بها، وجاء ذلك فى قول رب العزة فى خبر سيدنا سليمان: **وَإِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**^(٢). غير أن الإنسان يفرط فى شكر ربه على ما أنعم به عليه وينشغل عن المنعم بالنعم من مال وخيرات، فهو "لحب المال وإثار الدنيا وطلبها قوى مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس"^(٣). وفى ختام السورة يتوجه الخالق عز وجل بسؤال توبيخى يتوعد فيه الإنسان الذى بدا جاهلاً بمصيره، كأنه لا يعلم أنه مبعوث بعد موته، وأن الله سبحانه وتعالى مطلع على ما يفعله بنو الإنسان، مجازيهم يومئذ بأعمالهم.

هكذا يتضح أن كل وحدة سجعية تتمتع بمحور معنوى خاص يمثل الرابط الذى تتماسك به أجزاء الوحدة داخلياً، ويعتبر السجع -هنا- علامة هذا الارتباط

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعارف، د.ت، جـ ٣، ص ٣٢٨.

(٢) سورة ص: ٣١ - ٣٢.

(٣) الكشف، الزمخشري، جـ ٤، ص ٢٢٩.

خارجيا؛ ولذا نقول إنه يؤدي دوراً أكبر من إنتاج الصوتية وتحسين الكلام حيث يعمل مؤشراً على حركة المحتوى. ومن البين أن هناك تلاؤماً واضحاً بين الوحدات المسجوعة على مدار السورة بأكملها ويرجع ذلك إلى وجود معنى عام ينتظمها، وليس هذا قاصراً على سورة العاديات، فإن المناسبة^(١) تتجلى في كل سورة قرآنية ومتابعتها تؤكد تحقق التماسك بين الوحدات.

ومن ثم نرى أن الصياغة في السورة عبارة عن سبكة متلاحمة العناصر، فالصوت الموحد في نهاية الفواصل عامل ربط ظاهر، يشغل وجدان المتلقى بصفة دائمة بمنطقة الرنين الصوتي، كما يشغل عقله -كذلك- من حيث إنه يحدد البداية الدلالية ونهايتها، بما يتيح للمتلقى الذي يدرك هذا النظام أن ينتبه بعد كل تغير في السجع إلى أن هناك حركة ذهنية جديدة عليه متابعتها.

وإذا كان هذا المبدأ يظهر بوضوح في سورة العاديات، فإن له -أيضاً- حضوره في غالبية المواضع في النص القرآني، التي تفرض علينا نظامها الذي يتفق مع المبدأ الملاحظ؛ وهو أن المحتوى يمثل الأساس التجميعي الذي يربط العبارات المسجوعة ويخلق منها وحدة. ويبدو ذلك المبدأ في صورة جليلة في السور الآتية: الشرح، البلد، الفجر، الطارق، البروج، الانشقاق، الانفطار، التكوير، النازعات، ... وغيرها من السور القرآنية المكية لمن يمعن النظر وبخاصة في مثل هذه النماذج التي اتسمت بتنوع أحرف الروي.

وإذا رجعنا إلى السجع الذي كان ينشئه الخطباء والكتاب في الجاهلية أو في صدر الإسلام أو فيما بعد ذلك، وبحثنا فيه عن مدى صحة وجود رابط بين المستوى السطحي للصياغة والمستوى الذهني فإننا نستخلص الأمور الآتية:

أ- أن الخطيب أو الكاتب كان يخرج من سجع إلى آخر، فينتقل بعد عدد من الفقرات يبنها على روى معين إلى روى آخر يبنى عليه سلسلة أخرى من الفقرات.

(١) يقصد بالمناسبة: أن ترتيب آيات القرآن داخل السورة الواحدة حسب وروده عن النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء متناسباً متلائماً متلاحماً بحيث تمثل كل سورة قرآنية وحدة دلالية كبرى بذاتها.

ب- أن الفقرات المتتالية التي أتت على حرف واحد في نهايتها، كان ينتظمها محور معنوى واحد.

ج- أن الخروج من سجع إلى آخر كان يرتبط بالانتقال من محور معنوى إلى آخر.

ولنستدل على هذا ببعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر. نطلع في مقولات الجاهلية على بعض فقرات من خبر خروج خمسة نفر من طيء إلى سواد بن قارب ليمتحنوا علمه. "فتكلم برج وكان أسنهم قال: جاذك السحاب، وأمرع لك الجناب، وضفت عليك النعم الرغاب؛ نحن أولو لآكال، الحدائق والأغيال، والنعم الجفال؛ ونحن أصهار الأملاك، وفرسان العراك... فقال سواد: والسماء والأرض والغمر والبرض، والقرض والفرض؛ إنكم لأهل الهضاب الشم، والنخيل العم، والصخور الصم؛ من أجأ العيطاء، وسلمى ذات الرقبة السطعاء. قالوا: إنا كذلك. وقد خبأ لك كل رجل منا خبيثاً لتخبرنا باسمه وخبيثه. فقال لبرج: أقسم بالضياء والحلك، والنجوم والفلك، والشروق والدلك؛ لقد خبأت برثن فرج، في إعليط مرخ، تحت أسرة الشرخ. قال: ما أخطأت شيئاً، فمن أنا، قال: أنت برج بن مسهر، عصرة المقعر، وثمال المحجر".^(١)

وأول ما يلاحظ في هذه العبارات هو خروج المتكلم من سجع إلى آخر، وفي ذلك تحسين للكلام؛ لأن النفس في النقلة من صوت إلى صوت -أو بتعبير أدق- من روى إلى روى راحة شديدة، واستجداداً لنشاط السمع بالخروج من حال إلى حال.

وعند قراءة هذا الخطاب نجد أن محور المعنى يبادر إلينا وقد قاده السجع

(١) الأمالى، أبو على القالى، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ج٢، ص ٢٨٩.

أمرع: أخصب. الجناب: ما حول الدار. الآكال: الحظ والرزق في الدنيا. الأغيال: جمع غيل وهو الماء الجارى على وجه الأرض. الجفال: الكثيرة. الغمر: الماء الكثير. البرض: الماء القليل. الشم: الطوال. العم: الطوال. أجأ: جبل بطفء وكذلك سلمى. العيطاء: الطويلة. السطعاء: الطويلة. الدلك: اصفرار الشمس عند المغيب. البرثن: ظفر كل ما لا يصيد. إعليط: وعاء ثمر المرخ. مرخ: شجر تقدم منه النار. أسرة الشرخ: القد الذى يشد به خشب الرحل، المعمر: الذى ذهب ما له. والمحجر: الملجأ المضيق عليه.

ووشى بحدوده. فإن انقسام القول إلى وحدات سجعية يتوافق مع تعدد المحاور المعنوية، بحيث يمثل كل محور رابطاً تجميعياً بين جملة من الفقرات السجعية، يعمل على تماسكها في وحدة سجعية واحدة، ومن ثم يتضح لنا أن الرابط في الوحدة السجعية رابط معنوي باطني من ناحية- ورابط شكلي سطحي من ناحية أخرى. وبالعودة إلى فن المقامة يتأكد أن ذلك نظام عام أو قانون يحكم كل نماذج السجع وأنماطه وليس خاصية للنص القرآني، وهذا ما أقره "محمود المسعدى" خلال تحليله للمقامات العربية.^(١) ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول الهمداني في المقامة العاشرة: "رأيتَه صلى الله عليه وسلم في المنام، كالشمس تحت الغمام، والبدر ليل التمام/ يسير والنجوم تتبعه، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه/ ثم علمنى دعاء أوصانى أن أعلم ذلك أمته/ فكتبته على هذه الأوراق بخلق ومسك، وزعفران وسك/ فمن استوهبه منى وهبته، ومن رد على ثمن القرطاس أخذته".^(٢) وفي هذا المثال يتضح "أن بنية السجع عند الهمداني أساسها في غالب الحالات الازدواج الإيقاعي مقترناً بازدواج المعنى؛ أى بارتباط المعنى الوارد في الفقرة الأولى من الزوج بالمعنى الوارد في الفقرة الثانية".^(٣) والأساس نفسه نجده في مقامات الحريري كما نجده في المقامات اللزومية للسرقسطى، وفي غير ذلك من أنواع الخطابات المسجوعة.

ويبدو أن انشغال القدماء بالسجع من الناحية الشكلية دون التعمق ناحية المدلول، أو إيجاد علاقة بين الناحية الشكلية والناحية الدلالية للتراكيب بعضها ببعض الآخر، كان راجعاً إلى تصوّرهم القائم على الفصل بين الشكل والمعنى وهو فصل منهجى استلزمه البحث والتبويب لمقولات البلاغة بشكل منظم وإن أخفى وراءه حقيقة إدراك البلاغيين للأساس التجميعى الذى يربط التراكيب السجعية كما يبدو من خلال الأمثلة التى ذكروها للسجع.

ومما سبق يمكن إدراك الدور الذى يضطلع به السجع فى النصوص

(١) انظر: الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد محمود المسعدى، ص ٤٩، وما بعدها.

(٢) مقامات الهمداني: المقامة العاشرة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٢٤، سطر ٢٦-٣٠ من ص ٥٩.

(٣) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٧٥-٧٦.

المسجوعة، فهو يؤدي دوراً في إنتاج الصوتية وتحسين الكلام، هذا وقد استغلت الوظيفة العملية في اللغة إمكانات اللغة في صورتها الخاصة بأداء الوظيفة التحسينية، فقامت بتوظيف السجع وهو أحد متطلبات تحسين الكلام -على حد تعبير القدماء- في إبراز الحدود الفاصلة بين فكرة وأخرى.

ولبروز المبدأ السابق ملاحظته في مواضع من النص القرآني وفي المؤلفات العربية المسجوعة وفي شواهد السجع التي اجتزأتها البلاغة أثناء متابعتها الرصدية في النصوص؛ لذا فإن البحث يعتبره إجراءً يصلح تعميمه والعمل به لتحليل السور التي جاءت مسجوعة من أولها إلى آخرها على الحرف نفسه، والسور التي تتخللها آيات مرسلة، فالمعنى الواحد هو الذي يراكب بين جملة من العبارات المسجوعة ويخلق منها وحدة سجعية، وبناء على هذا فإن تحليل السورة القرآنية إلى وحدات دلالية هو خطوة ذات قيمة؛ إذ تتعين في إطار الوحدة الدلالية أين تبدأ الوحدة السجعية وأين تنتهي، كما تتحدد الآيات المرسلة غير المسجوعة.

والمبرر الإحصائي لتقسيم السجع القرآني إلى وحدات يتجلى من خلال أمرين؛ الأول: أننا نقابل في القرآن الكريم آيات مفردة في دلالتها، تبدو مسجوعة إذا ما نظرنا إليها في إطار الآيات المحيطة بها، ولكن كل آية تمثل كياناً منفرداً يستقل بمحتوى خاص، ومن ثم نرى إخراج هذه الآيات من السجع، لأن طبيعته التي تعرفنا عليها، أن يكون معتمداً على الثنائية كحد أدنى؛ ثنائية من عبارات تتماثل في الحرف الختامي ويربط بين طرفيها رابط دلالي. ويظهر من الإحصاء الذي قام به البحث بإجرائه على النص القرآني أن الآيات المفردة -غير المسجوعة- وردت في النص القرآني خمسا وثمانين مرة. وهذا الإحصاء له دوافعه التي تبرر القيام به فإن أول ما بدأ به البحث هو افتراض وجود آيات مفردة تخلق إشكالاً أهي تنتمي إلى السجع أم لا تنتمي إليه؟ فهي تستقل بمحتواها وإن تماثلت قافيتها مع القوافي المحيطة، وهذه الآيات التي تمثل إشكالاً في انتمائها إلى السجع أو الترسل وردت في النص القرآني سبع مرات فقط، ومن أمثلتها قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾

إن ما يثير الإشكال هو أن الآية أتت مخنومة بنفس قافية الآية السابقة عليها التي انتهت بقوله تعالى: ﴿...﴾، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ وذلك التكرار الصوتي لن يعتد به البحث مع غياب شرط وحدة المحور المعنوي الذي اعتمدناه إجراءً أساسياً في تراكب الآيات المنتهية بالصوت نفسه، والجدول الآتي يبين نسبة وقوع الآيات المفردة إلى مجموع الآيات غير المسجوعة في القرآن الكريم.

مجموع الآيات الخالية من السجع	مرات تردد الآيات المفردة غير المسجوعة	النسبة المئوية	مرات تردد الآيات التي مثله مشكلة في انتمائها إلى السجع أو الترسل
١٤٠٩	٨٥	٩٥ و ٥%	٧

إن هذه النسب -مع قلتها- تؤثر في الإحصاء العام للسجع. ويمكننا أن نرصد صور الوحدات المفردة في القرآن الكريم؛ وهي:

- ١- الحروف المقطعة إلا إذا دخلت دائرة السجع.
- ٢- في القصص عندما يستقل كل مشهد عن تاليه بمحور معنوي له اتصال خفي بالدلالة العامة، ومن الإعجاز الصوتي في القرآن أنه يتم في الغالب توظيف حرف مختلف تبعاً لاختلاف المشاهد ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) البقرة: ٢٨٤.

إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١) فإن كل آية تبدأ بلفظة "إِذَا"، تلك التي تحيل على مشهد مستقل عن تاليه، وقد جاء اختلاف الصوت الذي تنتهي به كل آية مؤشراً على هذا الاستقلال.

٣- آيات مفردة تتخلل السور مستقلة بمحورها الدلالي في إطار الدلالة العامة للسور، مثل قوله تعالى: ﴿لَإِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ^(٢)﴾ ونرصد صور الوحدات المفردة كذلك في الآيات التي تتناول الأحكام، حيث استقل كل حكم بذاته، والغالب فيها أن تكون على أحرف مختلفة أيضاً، وقد تكون في إطار الموضوع نفسه ولكن كل حكم ينقطع عما قبله أو ما بعده. مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ أَلْوَنُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَآمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٣)﴾. فهذه الآيات على أحكام مختلفة، والملاحظ أن تغاير صوت الروى كان قرينا لتغاير الأحكام.

٥- أشكال متفرقات من الأوامر الموجهة من قبل الخالق عز وجل، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا^(٤)﴾

(١) البقرة: ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٨.

(٣) سورة البقرة: ٢١٩ - ٢٢١.

(٤) سورة النساء: ١٣٥ - ١٣٦.

فاختلاف الأمر في الآيات منح علامة تظهره على المستوى السطحي من خلال استخدام حرف مختلف. في كل آياته.

والآيات المفردة ليست سوى شطر من الإجابة على السؤال الذي يهمنى هنا وهو مسألة الآيات، التى تبدو مسجوعة وهى فى الحقيقة داخلية فى بنية الترسل. ويعنىنا هنا أن نعرض لجانب من العلاقات بين الوحدات. يقول الخالق عز وجل:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾. وحدة دلالية أولى.
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(١). وحدة دلالية ثانية.

هذه الآيات تنقسم وفقا لمحتواها المركزى إلى وحدتين دلاليتين؛ الوحدة الأولى: سلسلة تحتوى على ثلاث آيات، أما الثانية فمكوّنة من أربع آيات مسجوعة. ويلاحظ توافق الآية الأخيرة من الوحدة الأولى، والآية الأولى من الوحدة الثانية كل على حرف واحد فى الآخر، لكن كلا منهما تنتمى إلى محور معنوى مختلف، ويوهم التوافق الصوتى فى نهاية الآيتين أن الآية رقم (٣) من الوحدة الأولى مسجوعة مع أنها ليست كذلك؛ إذ تسبقها آية منتهية بحرف الميم. والتتبع الكلى للنص القرآنى يكشف عن الإحصاء الآتى:

وردت هذه الآيات التى تبدو مسجوعة ستاً وستين مرة، تكون فيها الآية الأولى نهاية وحدة، والثانية بداية وحدة جديدة. وجاءت الآية الأولى غير مسجوعة والثانية مسجوعة - كما فى المثال السابق - ثمان وعشرين مرة.

وثمة نمط آخر تكون فيه الآيتان - نهاية الوحدة الأولى، وبداية الثانية - غير مسجوعتين. كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّبُ الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ

(١) سورة الماعون: ١ - ٧.

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

عندما نتأمل كل آية منهما في إطار الوحدة الدلالية التي تحتويها نجد أن الآية الأولى تعد نهاية وحدة، وهي غير مسجوعة؛ إذ إن الآية السابقة عليها ختمت بحرف الراء، والأمر نفسه يبدو في الآية الثانية فهي بداية وحدة دلالية جديدة يدور فيها الحديث حول الإنفاق وقد تلتها آية مختومة بحرف النون، ومن ثم فهي غير مسجوعة أيضا في إطار محتواها. ويظهر الإحصاء أن تردد هذا النمط قد بلغ تسع عشرة مرة.

وأخيرا نرى نمطاً ثالثاً تكون فيه الآية الأولى مسجوعة والثانية غير مسجوعة ونلاحظ ظهور هذا النمط في النص القرآني تسع عشرة مرة أيضا. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ، إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٢)

يلاحظ أن كل آية من الآيتين السابقتين تتدرج في وحدة دلالية مختلفة، بدت الآية الأولى مسجوعة في وحدتها، في حين كانت الثانية غير مسجوعة في نطاق الوحدة التي تنتمي إليها؛ إذ يعقبها آية مختومة بحرف الميم. وهكذا يبدو أن تقسيم النص إلى وحدات دلالية هو ضرورة لها ما يبررها إحصائياً، حيث يبين من خلاله ما هو مسجوع مما ليس كذلك.

حدد العبارات المسجوعة في الوحدة الواحدة:

ومما يستوقفنا في هذا العرض مقولة مشهورة لابن الأثير في كتابه، "المثل السائر" وذلك قوله: "واعلم أن التصريح في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور" (٣). ثمة سؤال يطرح نفسه انطلاقاً من هذه المقولة مفاده: ما

(١) سورة البقرة: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) سورة الأنعام: ٩٤ - ٩٥.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ٢٤٢.

عدد الفقرات التي يمكن أن تكون وحدة سجعية؟ إن الفصلين من السجع يمثّلان في نظر ابن الأثير بيتاً مصرعاً من الشعر، والبيت الشعري كما هو معروف يعد وحدة أساسية مكتملة، نخلص إذاً اعتمدنا على ذلك القياس إلى أن الوحدة السجعية تتكون أيضاً من فقرتين باعتبار أنها مناظرة لبيت مصرّع من الشعر بما له من سمة الوحدة. لكن هذه النتيجة تهتز إذا تحققنا منها بعيداً عن المناظرة لنوع أدبي مختلف في خصائصه، فإن الطريق الأمثل للإجابة عن ذلك السؤال المطروح هو الرجوع إلى النتاج الأدبي المكتوب في شكل نثر مسجوع.

وعند مراجعة الأمثلة المسجوعة التي قدّمها ابن الأثير نفسه في أثناء دراسته للسجع باعتبار الطول والقصر تبين أن الوحدة السجعية لا تنحصر في كم محدّد من الفقرات. فقد ذكر ابن الأثير أربعة قوالب لوحداث سجعية مكوّنة من فقرتين أو ثلاث فقر، متخذاً من التغيير في أطوال الفقرات أساساً تجميعياً لكل وحدة. وهذا يعني أن القدماء قد أدركوا أن الوحدة السجعية ليس لها كم ثابت، وإن كانوا قد ركزوا في غالبية الأمثلة التي ذكروها على الوحدة المؤلفة من زوج من العبارات.

لنعد الآن إلى سؤالنا؛ ما عدد الفقرات التي يمكن أن تتضمنها وحدة سجعية؟ إن رصد الطابع التكويني للسجع العربي وسجع القرآن يؤكد أن متتالية من ثلاث أو أربع أو عشر فقرات أو أكثر يمكن أن تقيم وحدة سجعية واحدة. ولا نستطيع -على نحو مؤكد- التنبؤ بعدد الفقرات المكونة للوحدة السجعية؛ لأنها لا تخضع لقواعد جاهزة، فالوحدة ترفض أن تنقاد للتقنين إذ تتعدد أشكالها، واختلاف الأشكال على هذا النحو راجع إلى ارتباط طول الوحدة بالمحور المعنوي الذي يشد أجزاءها.

هناك على أية حال حقيقة تؤكدها المؤلفات المسجوعة؛ إذ تنبئ طريقة القدماء في الكتابة -وبخاصة كتاب المقامات- عن أن الثنائيات المسجوعة كانت أكثر أنواع الوحدات السجعية شيوعاً في نصوصهم. ويحق القول بأنه ليس ثمة حتى الآن سوى محاولات قليلة ترصد تباين أشكال الوحدات في السجع العربي، وتتابع وجودها في نصوصه.

وقد قام "حاييم ي. شينين" بإحصاء للوحدات السجعية ودراسة نظامها في

ثلاث مقامات طويلة لكل من الهمداني والحريري "ومن هذه الإحصاءات يظهر أن استخدام عبارتين مسجوعتين في كل وحدة يمثل ٤٨,٩٧% عند الهمداني، واستخدام ثلاث عبارات في الوحدة يمثل ٢٩,٨٣%، على حين أن استخدام أربع عبارات في الوحدة يمثل ١١,٠٤%، أما الوحدات التي تطول عن ذلك فتمثل ٤٢,٠٢%، وتلك المؤلفات من ثلاث عبارات تمثل ٢٩%، على حين أن الوحدة المؤلفات من أربع عبارات تمثل ١٧ و ٥٣%، أما الوحدات الأكبر من ذلك فتمثل ١١,٤٥%".^(١) وتشير الإحصاءات التي عملها شينين إلى تفوق نسبة الوحدات المكونة من زوج من الفقرات عند كلا الكاتبين.

وقد تتبع الهادي الطرابلسي هذه الظاهرة في نص للسيوطي بعنوان "ليلة عاصفة"، ونجد من واقع الإحصاء، أن النص يقوم على سبع وأربعين فقرة، تتجمع في واحد وعشرين زوجاً وخماسية واحدة، أي أن نسبة الأزواج المسجوعة فيه تبلغ ٨٩,٣٦%.^(٢)

ويلاحظ أن الدارسين الذين تناولوا الوحدات السجعية بالدراسة اهتموا، بصفة عامة بالأرقام، أكثر من اهتمامهم باستيضاح الدور الإيقاعي لنمط الوحدات السجعية المستخدم بكثافة في النص المدروس، أو بتتبع صدى ذلك الاستخدام في طبيعة التلقي وجمالياته من ناحية، وإبداع الدلالة والإبانة عنها من ناحية أخرى.

والسؤال الآن: هل الوحدة المكونة من زوج من الفقرات هي الأكثر شيوعاً أيضاً بين جملة الوحدات السجعية في القرآن، أم لا؟

لقد كان للبحث وقفة مع النص القرآني خرج منها بالإحصاء التالي الذي يتبين منه أكثر الوحدات السجعية تواتراً من حيث عدد الآيات المكونة لها.

(1) Aprosodic study of Saj "in classical Maqamat" shaynin part II. P.115. (un published papers, univ. Of pennsylvania, 1982).

نقلا عن السجع في القرآن، بنيته وقواعده، ديفين، ج. ستيوارت، ص ٢١.

(٢) انظر: تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي، ص ١٥٩ - ١٦٠

يضطلع هذا الجدول برصد تقسيم نص القرآن الكريم إلى وحدات سجعية، وتوضيح عدد الآيات في كل وحدة

نسبتها	ترددها في مرات	عدد الآيات في الوحدة
٧٨٠٣%	٢٥٠	٢
٣٦٠٨%	٢٦٧	٣
٨١٠١%	١٦٨	٤
٥٥٠٧%	١٠٩	٥
٥٤٠٥%	٧٢	٦
٣٨٠٨%	٣٥	٧
٦٥٠٨%	٣٣	٨
٨٥٠١%	٢٠	٩
٨٠٠١%	١٢	١٠
٨٠٠١%	١٢	١١
٤٤٠٠%	٨	١٢
٨٣٠٠%	٦	١٣
١٤٠٠%	٢	١٤
١	٤	١٥
٧٠٠٠%	١	١٦
٧٠٠٠%	١	١٧
١	١	١٨
١	١	١٩
٧٠٠٠%	١	٢٠
٧٠٠٠%	١	٢١
١	١	٢٢
١	١	٢٣
٧٠٠٠%	١	٢٤
.	١٢٧٥	٢٥

ومن الإحصاء السابق يمكننا استنتاج ما يأتي:

- ١- الوحدة السجعية في القرآن الكريم تبدأ بآيتين وتنتهي إلى أربع وعشرين آية.
- ٢- أكثر الوحدات شيوعاً في النص القرآني هو الوحدة المكونة من زوج من الفقرات المسجوعة، فقد استمرت هذه الظاهرة متحققة على مستوى النص القرآني بكامله، لها وجودها الظاهر في كل سورة من سورته، ما عدا سورة نوح. وتبلغ الوحدات المزدوجة في القرآن -خمسائة وعشرين وحدة، يختلف معدل تردها من سورة إلى أخرى. فقد بلغ معدل تردها في سورة "البقرة" تسعاً وعشرين مرة، وفي "الرحمن" ستاً وعشرين مرة، وفي الجن مرة واحدة فقط.

وقد ذكر شندلين ضمن كتابه "الشكل والتعبير في شعر المعتمد بن عباد" بعض الملاحظات الخاصة بتحليل السجع القرآني، ذاهباً إلى أن القرآن لا يشتمل على كثير من السجعات المزدوجة،^(١) في حين أن الإحصاء الذي قام به البحث يظهر خلاف ذلك، ولعله كان يعتبر الآيات المسجوعة من أولها إلى نهايتها على الحرف نفسه بمثابة وحدة سجعية واحدة.

ويمكن أن تزوج الوحدة وقد تكون داخلة في الوقت ذاته في نظام أوسع، مثل "نظام رباعي" كما في قوله تعالى: ﴿لَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.^(٢) أو "نظام خماسي" كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا، إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ، بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.^(٣)

- ٣- إذا نظرنا إلى الوحدات الطويلة بقصد ملاحظة الشكل والمحتوى، فسوف نجد أن أكثر ورودها كان في القصص القرآني، وأنها أتت -في الغالب- على شكل آيات قصيرة مصحوبة بإيقاع سريع.

(1) See: "forme and structure in the poetry of al-mutamid Ibn Abbad". Sheindlin.

نقلا عن السجع في القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢١.

(٢) سورة النبا: ٢٧ - ٣٠.

(٣) سورة الانشقاق: ١١ - ١٥.

وفى سورة النجم، ألفينا وحدة النغم تتكرر بين مجموعة كبيرة من الآيات، بلغت أربعاً وعشرين آية، جمع بينها محور معنوى واحد. (١)

إن نظام الوحدة السجعية القرآنية -على هذا النحو- يتجلى متفرداً بأسلوب خاص، يحطم أو يتجاوز محاذير بلاغية ظلت قارة فى مؤلفات البلاغيين العرب فى القرون الأولى، وظلت البلاغة العربية (التعليمية) تنهى عنها الكتاب منذ ذلك التاريخ حتى الآن، إذ ذهبت إلى أن الوحدة السجعية ينبغى ألا تطول درءاً للملل.

وليس ثمة تفسير منطقي لطول الوحدة السجعية سوى أنه وليد خط الدلالة، فنظام النص ينحصر داخله، وهو الذى يمارس سلطانه على القارئ، وهذا يفضى إلى اعتبار أن النص القرآنى يبنى بصورة يراقب فيها عملية تفكيكه إلى وحدات سجعية، ويصنع بنفسه مفاتيح هذا التفكيك، فلا تبقى لقارئه حرية كبيرة فى ذلك، ولا حيلة لقارئ النص إلا الطواعية له، فيلزم أن تكون الطواعية هى أساس التحليل. لكن ما معنى الطواعية للنص؟ إننى أعنى بها، بناء التحليل وفقاً للأنماط التى تفرض نفسها وحدها، ومما تفرضه الطواعية؛ تقسيم النص إلى وحدات سجعية تقسيمياً يراعى خصوصية إجراءات النص، كما يراعى بناء الظاهرة الأسلوبية على نحو ما تتجلى فى نصها. وقد بان لنا السجع مرتبطاً بوحدة المحور المعنى.

السجع والترسل:

يتحدث ابن خلدون فى مقدمته عن المحسنات البديعية بوصفها زائدة عن الإفادة لتمثل زينة تعبيرية، يقول: "وألحقوا بهما -يقصد علم البلاغة وعلم البيان- صنفاً آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقع أوزانه أو توريه عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لا شراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع". (٢) ويميل بن خلدون إلى الجزم فى أكثر من موضع

(١) سورة النجم: ٣٣-٥٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د. ت، ص ٤٠٧.

من مقدّمته بأن السجع مجرد "زينة"، وهذه الكلمة مازالت تشتمل على أسئلة.

وهناك عدد كبير من الناس يحملون هذا الاعتقاد عن السجع بأنه زينة، بالرغم من أن كلمة زينة لا تخلو من مراوغة إذ إنها تطرح علينا تصورين مختلفين للسجع: الأول كون السجع زينة يفهم منه كونه جميلاً، وبالإمكان أن تمتد الكلمة إلى كل ما هو هامشي ومن ثم، نبداً إثارة التساؤلات المتعلقة بمفهوم الزينة، السجع جميل! هل هذه صفة ملازمة له دون قيد أو شرط؟ هل يجب أن يكون الكلام البليغ جميلاً؟ أليكون جميلاً بالنسبة لقارئ لم ينتبه بعد إلى إمكاناته؟ أليكون جميلاً بالنسبة لقارئ لم يتحمس له أبداً؟ أليكون جميلاً في نوع أدبي يتطلب تقليص قوى الانفعال حتى يعلو صوت الطاقة الفكرية التأملية كما هو الحال في الرواية؟ ألا يودّع السجع جزءاً من بهائه حين يكون مجرد زينة أو حلقة خارجية خالية من البهاء لا دور لها في إبداع الدلالة؟

إن النص الجيد يحاول استخدام أى سمة فنية بقدر حاجة المعنى لها وليس الأمر راجعاً إلى كونها زينة. وهذا ما حدث في النص القرآني، فنص القرآن الكريم ينهض على الجمع بين بنيى السجع والترسل، ولا يعنى ذلك أنه قد تخطى عن تزيين المواضع التي جاءت مرسله -استغفر الله- فكل من السجع والترسل عناصر في بناء النص، يجب أن يتناول بهذا المفهوم. ويُفترض أن استخدام البنيىتين معاً في التشكيل الأسلوبى للنص القرآني كان استخداماً ذا مغزى، ولم يكن عفويّاً أبداً، كما يُفترض أن البنيىتين تتحركان داخل النص في نظام منضبط نعاين خلاله فاعليتها وكيفية إسهامها في تكوين أثر معين واستجابة معينة لدى القارئ، ولكن قبل أن نمضى قدماً في اختبار هذه الفروض علينا أن نتوجه إلى النص، وندعه يعبر عن اختياراته وإثاراته، من خلال رصد شيوع هذين المتغيرين الأسلوبيين فيه.

ويدلنا النظر الإحصائي إلى البنى السجعية والبنى المرسلية في القرآن الكريم على الآتى:

النسبة المئوية للآيات المسجوعة	الآيات الخالية من السجع		الآيات المسجوعة	عدد آياتها	السورة	مسلسل
	نهايات متباعدة في مخارجها وصفاتها	نهايات متقاربة في مخارجها وصفاتها				
%٢٨,٥	—	٥	٢	٧	الفاتحة	١
%٧٠,٩	٢٧	٥٢	٢٠٨	٢٨٦	البقرة	٢
%٦٥	٣٢	٣٩	١٢٨	٢٠٠	آل عمران	٣
%٣٦,٦	٤٩	٥٧	٧٠	١٧٦	النساء	٤
%٧٥	٨	٢٣	٨٩	١٢٠	المائدة	٥
%٨٦	١	٢٢	١٤٢	١٦٥	الأنعام	٦
%٩٣,٦	٣	١٠	١٩٣	٢٠٦	الأعراف	٧
%٦٩,٣	١٢	٩	٥٤	٧٥	الأنفال	٨
%٨٠,٦	١	٢٢	١٠٦	١٢٩	التوبة	٩
%٨٨	٢	٩	٩٨	١٠٩	يونس	١٠
%٧٠,٧	٢٢	١٦	٨٥	١٢٣	هود	١١
%٨٣,٧	١	١٧	٩٣	١١١	يوسف	١٢
%٤١,٨	١٢	١١	٢٠	٤٣	الرعد	١٣
%٥٥,١	١٥	٥	٣٢	٥٢	إبراهيم	١٤
%٨٦,٨	—	١٦	٨٣	٩٩	الحجر	١٥
%٨٢	—	٢٣	١٠٥	١٢٨	النحل	١٦
%٥٥,٨	١٩	٢٩	٦٣	١١١	الإسراء	١٧
%٤٧,٢	٤٣	١٧	٥٠	١١٠	الكهف	١٨
%٩٣,٨	١٠	—	٨٨	٩٨	مريم	١٩
%٨٨,٨	١٥	٧	١١٣	١٣٥	طه	٢٠
%٩٣,٧	—	٧	١٠٥	١١٢	الأنبياء	٢١
%٤١	٣٦	٩	٣٣	٧٨	الحج	٢٢
%٩٧,٤	—	٤	١١٤	١١٨	المؤمنون	٢٣
%٧١,٨	٣	١٦	٤٥	٦٤	النور	٢٤
٧٩,٢	٣	١٣	٦٣	٧٧	الفرقان	٢٥
%٨٦,٣	٥	٢٧	١٩٥	٢٢٧	الشعراء	٢٦
%٩٠,٣	—	٨	٨٥	٩٣	النمل	٢٧
%٩٤,٣	١	٤	٨٣	٨٨	القصص	٢٨
%٨٥,٥	١	٩	٥٩	٦٩	العنكبوت	٢٩
%٩٣,٣	—	٤	٥٦	٦٠	الروم	٣٠
%٧٣,٥	٤	٦	٢٤	٣٤	لقمان	٣١
%٩٠	٢	١	٢٧	٣٠	السجدة	٣٢

الأحزاب	٣٣	٧٣	٢٩	٣٢	١٢	%٤١
سبأ	٣٤	٥٤	٤٠	١٢	٢	%٧٠,٣
فاطر	٣٥	٤٥	٣٦	٦	٣	%٨٠
يس	٣٦	٨٣	٧٣	١٠	—	%٩٠,٣
الصفقات	٣٧	١٨٢	١٥٣	٢٦	٣	%٨٥,١
ص	٣٨	٨٨	٦٥	١١	١٢	%٧٣,٨
الزمر	٣٩	٧٥	٥٧	١٣	٥	%٧٦
غافر	٤٠	٨٥	٥٢	١٣	٢٠	%٦٠
فصلت	٤١	٥٤	٤٠	٦	٨	%٧٤
الشورى	٤٢	٥٣	٢٧	١٥	١١	%٤٩
الزخرف	٤٣	٨٩	٧٩	٨	٢	%٨٩,٨
الدخان	٤٤	٥٩	٥٠	٨	١	%٨٤,٧
الجاثية	٤٥	٣٧	٣٥	٢	—	%٩٣,٣
الأحقاف	٤٦	٣٥	٢٨	٧	—	%٨٢,٨
محمد	٤٧	٣٨	٣٦	٢	—	%٧٨,٩
الفتح	٤٨	٢٩	١٣	١٣	٣	%٤٤,٨
الحجرات	٤٩	١٨	٦	١٢	—	%٣٨,٨
ق	٥٠	٤٥	٢٨	٩	٨	%٦٢,٢
الذاريات	٥١	٦٠	٥٠	٤	٦	%٨٣,٣
الطور	٥٢	٤٩	٤٤	٢	٣	%٨٩,٧
النجم	٥٣	٦٢	٦٠	—	٢	%٩٦,٧٧
القمر	٥٤	٥٥	٥٥	—	—	%١٠٠
الرحمن	٥٥	٧٨	٦٧	١١	—	%٨٥,٨
الواقعة	٥٦	٩٦	٧٠	١٤	١٢	%٧٠,٨
الحديد	٥٧	٢٩	١٨	٧	٤	%٦٢
المجادلة	٥٨	٢٢	١٢	٦	٤	%٥٤,٥
الحشر	٥٩	٢٤	١٤	٦	٤	%٥٨,٣
المتحنة	٦٠	١٣	٤	٥	٤	%٣٠,٧
الصف	٦١	١٤	٩	٤	١	%٦٤,٢
الجمعة	٦٢	١١	٩	٢	—	%٨١,٨
المنافقون	٦٣	١١	١١	—	—	%١٠٠
التغابن	٦٤	١٨	١٢	٥	١	%٦١,١
الطلاق	٦٤	١٢	٨	—	٤	%٥٨,٣
التحريم	٦٦	١٢	١٢	—	—	%٩١,٦
الملك	٦٧	٣٠	٢٨	٢	—	%٩٣,٣
القلم	٦٨	٥٢	٤٧	٥	—	%٨٦,٥
الحاقة	٦٩	٥٢	٤٣	٩	—	%٨٤,٦

%٧٩,٥	٣	٦	٣٥	٤٤	المعارج	٧٠
%٧١,٤	٦	٢	٢٠	٢٨	نوح	٧١
%٦٠,٧	٥	٦	١٧	٢٨	الجن	٧٢
%٩٠	٣	—	١٧	٢٠	المزمل	٧٣
%٩٦,٤	٢	—	٥٤	٥٦	المدثر	٧٤
%٩٢,٥	١	٢	٣٧	٤٠	القيامة	٧٥
%٩٠,٣	—	٣	٢٨	٣١	الإنسان	٧٦
%٨٨	٣	١	٤٦	٥٠	المرسلات	٧٧
%٦٥	٩	٦	٢٥	٤٠	النبأ	٧٨
%٨٠,٤	١١	—	٣٥	٤٦	النازعات	٧٩
%٧٨,٥	٨	—	٣٤	٤٢	عبس	٨٠
%٨٦,٢	—	٤	٢٥	٢٩	التكوير	٨١
%٨٩,٤	٢	—	١٧	١٩	الانفطار	٨٢
%٧٥	—	١٣	٢٣	٣٦	المطففين	٨٣
%٨٤	٣	٢	٢٠	٢٥	الانشقاق	٨٤
%٦٨	٦	١	١٥	٢٢	البروج	٨٥
%٨٢,٣	٣	—	١٤	١٧	الطارق	٨٦
%١٠٠	—	—	١٩	١٩	الأعلى	٨٧
%٧٦,٩	٦٠	—	٢٠	٢٦	الغاشية	٨٨
%٧٣,٣	٤	٦	٢٠	٣٠	الفجر	٨٩
%١٠٠	١	٣	١٦	٢٠	البلد	٩٠
%١٠٠	—	—	١٥	١٥	الشمس	٩١
%١٠٠	—	—	٢١	٢١	الليل	٩٢
%٩٠,٩	١	—	١٠	١١	الضحى	٩٣
%١٠٠	—	—	٨	٨	الشرح	٩٤
%٨٧,٥	—	١	٧	٨	التين	٩٥
%٩٤,٧	٣	—	١٦	١٩	العلق	٩٦
%١٠٠	—	—	٥	٥	القدر	٩٧
%٢٥	١	٥	٢	٨	البينة	٩٨
%٨٧,٥	—	١	٧	٨	الزلزلة	٩٩
%١٠٠	—	—	١١	١١	العاديات	١٠٠
%٨١,٨	٢	—	٩	١١	القارعة	١٠١
%٥٠	—	٣	٥	٨	التكاثر	١٠٢
%١٠٠	—	—	٣	٣	العصر	١٠٣
%٨٨,٨	١	—	٨	٩	الهمزة	١٠٤
%١٠٠	—	—	٥	٥	الفيل	١٠٤
—	٤	—	—	٤	قريش	١٠٦

الماعون	٧	٤	٣	١٠٧
الكوثر	٣	٣	—	١٠٨
الكافرون	٦	٢	—	١٠٩
النصر	٣	—	٤	١١٠
المسد	٥	٤	—	١١١
الإخلاص	٤	٤	—	١١٢
الفلق	٥	٤	—	١١٣
الناس	٦	٢	—	١١٤

النتيجة الكلية للإحصاء:

مجموع آيات القرآن	مجموع المسجوعة الآيات	النسبة المئوية	مجموع الخالية من السجع	النسبة المئوية	الأصوات المقترية	نسبتها في القرآن	الأصوات المتباعدة	نسبتها إلى	الأصوات المقترية	نسبتها في القرآن
٦٢٣٦	٤٨٢٧	%٧٧,٤١	١٤٠٩	%٢٢,٥٩	٨٧٦	%١٤,٠٢	٥٥٢	%٦١,٢٩	٣٨,٧١	%٥٨,٨٥

يشير النظر الإحصائي إلى سيطرة البنى السجعية على مساحة الأداء في النص القرآني فنسبة السجع إلى الترسل $\sim \frac{1}{4}$ ^(١)، وهذا يشي على المستوى الأسلوبى بسيطرة الإيقاع التكرارى أو ما يمكن أن نطلق عليه "المؤالفة" على المخالفة. فالنص القرآني اتسم بالتشدد على شكل الرسالة، فأثر المؤالفة مؤكداً القيمة الإيقاعية للسجع، فالبنى المرسل ليست القاعدة، إنما البنى السجعية هي القاعدة بحيث لا يُرد الترسل إلا عرضاً بين آيات كثيرة مسجوعة. ولننظر في الإحصاء التالى، حيث جعل في كل قسم من الجدول عدد السور التى يوافق تسجيها النسب المئوية الموضوعية.

نسبة السجع حضور	%١٠٠	%٩٩-٩٠	%٨٩-٨٠	%٧٩-٧٠	%٦٩-٦٠	%٥٩-٥٠	%٤٩-٤٠	%٣٩-٣٠	%٢٩-٢٠	%١٩-١٠
عدد السور	١٤	١٩	٣٢	١٨	١٠	٧	٦	٤	٢	—

(١) \sim علامة رياضية تعنى يساوى تقريباً.

يبلغ عدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، المسجوع منها - فقط- هو مائة واثنان عشرة سورة، إذا قمنا بتوزيعها على النسب المئوية الموضوعات فإن نصيب كل نسبة مئوية سوف يساوى تقريبا إحدى عشرة سورة، لكن الجدول أتى دالا إحصائيا؛ فإن ما يزيد على ثلاثة أرباع القرآن الكريم يأتي مسجوعا، وتراوحت نسبة السجع فيه من ٧٠% إلى ١٠٠%، وفي هذا دليل ظاهر على هيمنة البنى السجعية، وعلى اعتمادها قاعدة في نص القرآن الكريم كما يشي بذلك الإحصاء السابق.

فالسجع -وسوف أستعير بعض كلمات الأستاذ الدكتور شكرى عياد في حديثه عن القافية-(^١) نوع من المؤلفات يختص بأواخر الآيات أو الفقرات، ويعنى تركه نهائيا الاستغناء عن نوع من المؤلفات، ولكن إذا تم إسقاطه من فقرة أو فقرتين بين فقرات أخرى مسجوعة، فإن ذلك يعنى أن صفة المؤلفات لم تعد وحدها المتحكمة فى أواخر الفقرات، بل أصبحت تقوم بجانبها صفة مناقضة وهى المخالفة.

ويجب ألا يغيب عن بالنا فى تقييم كلا العنصرين: السجع والترسل، أن نربطهما بجملة من العناصر هى: الإيقاع والمعنى. فالبنيتان تدخلان فى تحديد فاعلية النظام الإيقاعى للقرآن الكريم وتوجيهها؛ إذ ينشأ عن تضافر البنى السجعية والبنى المرسلتين توليد إيقاعى. فالترسل يكتسب صبغته الإبداعية من كسره لتوقع القارئ أو السامع، فإن الآيات تتحرك فى انتظام يزداد بتوقع سماع الصوت المسجوع فى نهاية الآية ثم يأتى الترسل فيكسر فجأة توقع القارئ، ويقتل الرتابة التى قد يحدثها تحقق انتظار القارئ لتكرار الصوت المسجوع.

واللافت للنظر أن النقد العربى درس عناصر من نظام السجع فى استقلاله، ولم يتطرق إلى العلاقات ما بين السجع والترسل فينظر فى النظام؛ والنظام ليس معادلا للعناصر، ولا لمجموعها، إنما هو ما يحكم حركة العناصر فيما بينها، والنظر فيه هو النظر فى أنماط العلاقات التى تنتظم وفقها البنيتان الأسلوبيتان، ومن ثم النظر فى انفصالهما أو تضافرها. أو هو -بتعبير آخر- النظر فى

(١) انظر: موسيقى الشعر العربى، شكرى محمد عياد، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٦٨، ص ١٣٩-١٤٠.

الفضاء الذى استراحة فيه العلاقات لحركتها فأخذت تتكرر بانتظام. ولكن ثمة أسئلة تبقى مطروحة منها: بأى كيفية تتحرك البنيتان فى النص؟ هل من منطق يعلل حركتهما؟ وهل هى حركة محكومة بنظام؟

يعمد النص القرآنى إلى تصريح المسالك الأدائية فيجمع بين السجع والترسل، لكن السجع يمثل القاعدة، بينما يمثل الترسل العدول. فكيف يقوم العدول عن المؤلف إلى المخالفة بتشكيل أسلوبية النص وخدمته جماليا ودلاليا؟ إننا لا نستطيع أن نفهم دلالة التخلّى عن السجع لصالح الترسل إلا فى نطاق النص ككل، والنظر فى النص القرآنى يشير إلى أنه قد اكتفى فى بعض مواضعه بتوظيف إحدى البنيتين، وفى مواضع أخرى كان يضافر بينهما. يقول الله تعالى: ﴿لَا السَّمَاءُ ذَاتَ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (١)

هذه الآيات تمثل وحدة دلالية واحدة لكن الروى لم يأت متماثلا فالآية الأولى مختومة بحرف "الجيم" بينما تنتهى بقية آيات الوحدة بحرف "الدال"، ومبررات المخالفة الصوتية بين نهايات الفواصل لا تظهر إلا بوضعها فى علاقة مع السياق الذى يبرز اختلافات دلالية دقيقة بين القسم فى الآية الأولى والقسم فى الآيات التالية، فالواقع أن المشاهد المقسم بها تنتمى إلى حلقات زمنية متباينة، فالسماوات ذات البروج مشهد يطالعنا فى الحلقة الزمنية الأولى "زمن الحياة الدنيا" بينما يتصل الْيَوْمَ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ "بالحلقة الزمنية التى يمكن أن نعتبرها حلقة ثالثة بعد الموت، وهى حلقة الحياة الآخرة، ومن ثم يمكن اعتبار الآن مدخلا أساسيا من مداخل تأمل الفروق الدلالية الدقيقة فى التعبير القرآنى.

وهذا الدرب من توظيف التقارب الصوتى داخل الوحدة الدلالية الواحدة -لا يعد غريبا على معمار السجع العربى، فقد أورد القالى فى كتابه "الأمالي" حديثا لمصاعب بن مزعور وخروجه فى طلب الذود، وما أخبره به الجوارى الأربع الطوارق بالحصى، ويعننا فى هذا الموضع، مقولة الجارية الرابعة: إذ تقول: "ليهبط الغائط الأفيح، ثم ليظهر للملا للصّصح، بين سدير وأملح؛ فهناك الذود"

(١) سورة البروج: ١-٧.

رتاغ بمنعرج الأجرع".^(١) هذه جملة دلالية^(٢) واحدة، يتجسد موضوعها من خلال ثلاث جمل نحوية شارحة تدعو مصاعب إلى التوجه إلى منخفض واسع، حيث تظهر أرض مستوية محصورة بين نبع للماء وموضع للندى. ولكن الجملة الدلالية لم تكتمل بعد، ولم تجب على السؤال الآتي: ما العلة التي تدعو ذلك الرجل إلى خوض الرحلة المشار إليها؟ هكذا تأتي الجملة التفسيرية الرابعة والأخيرة، لتكمل الكلام بمحموله المطلوب. واللافت أنه قد تم توظيف التقارب الصوتي للعب دور مهم يتمثل في إبراز كل من موضوع الجملة الدلالية ومحمولها؛ فما زالت الجارية على حذو واحد من السجع حيث يتجسد الموضوع في الجمل الثلاث الأولى المنتهية بصوت "الحاء"، فلما أرادت الإخبار (محمول الكلام) توجهت إلى حرف مغاير وهو حرف "العين" لتنتهي به العبارة، ويبدو أن استخدامها لصوت مقارب "للحاء" راجع إلى كون العبارات جميعها تجتمع تحت لواء الجملة الدلالية نفسها. وهنا -أيضا- أستطيع القول بأن العلة الحقيقة وراء التقارب الصوتي الحادث في الوحدة السجعية السابقة -لم تكن لتظهر إلا بالنظر في السياق.

(١) الأمالى، أبو على القالى، جـ ١، ص ١٤٣.

الغائط: المنخفض الواسع من الأرض. الصحصح: الأرض المستوية الواسعة. سدير: نبع الماء. أمّح: الندى الذى يسقط بالليل على البقل. الذود: القطيع من الإبل بين ثلاث وعشر. الأجرع: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل.

(٢) ورد مصطلح الجملة الدلالية فى مدرسة براغ، وتقوم فكرتها على التمييز فى الكلام بين وظيفتين إخباريتين لهما أهمية دلالية، وهاتان الوظيفتان تتمثلان فى تلك التى يخبر عنها وهى الموضوع (المسند إليه) Thema، والتى تخبر عن الموضوع، وهى المحمول (المسند أو الخبر) Rhem. "علم اللغة والدراسات الأدبية، برند شبلنر، ت: محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٨٥.

[٢] البناء الصوتي

توقفت الدراسة وقفات كشفية عديدة تستقصى البناء الصوتي للسجع القرآني، وقد كشف التتبع الكمي والكيفي عن وجود ظواهر صوتية ذات تردد واضح، اکتنز بها نص القرآن الكريم، مما يعنى أنها تمثل ملامح أسلوبية فاعلة فى التشكيل الأسلوبى لسجعه. والدراسة مهتمة بتعريف هذه الظواهر وكشف مهامها الإنتاجية فى النص.

وبداية أشير إلى الإجراء التنظيمى الذى اتبعته الدراسة فى عرض تلك الظواهر الأسلوبية، فبوسعنا مراقبة انتمائها إلى صنفين أساسيين سبق أن تحدث عنهما "هنريش بليث" فى النموذج النظرى الذى اقترحه لتحليل النصوص أسلوبياً^(١)، والذى قدم فيه تصورًا حول كيفية إنتاج الأدوات البلاغية. فهو يسلّم بأن جميع الصور البلاغية: صوتية، وصرفية، وتركيبية، وخطية متولدة، فى الأصل عن عمليتي عدول رئيسيتين:

(١) عدول يتأسس على تقوية الانتظام الملازم للنظام اللغوى، ولكى يحقق النص تلك التقوية فإنه يعتمد على عدة أمور أبرزها: التراكم، والتكرار، والتعادل، والتشابه؛ فالتعبيرات التى جاءت على الأصل يمكن أن تعد تعبيرات بلاغية إذا ما عززت بوحدة من وسائل التنسيق والاستخدام الفائق للعادة.

(٢) عدول يقوم بخرق المعيار متوسلاً ببعض العمليات اللسانية المساعدة من

(١) يتبنى "بليث" نموذجاً قائماً على أسلوبية العدول، يهتم بكل عناصر التواصل، ويدمج بعضها فى بعض، فقد بدا له أن بناءً سميائياً يعنى بالعناصر الأربعة: الدليل، والمرسل، والمتلقى، وبالعلاقات الحادثة بينهم، هو الكفيل ببناء أسلوبية تستوعب اجتهادات القدماء والمحدثين فى مستوى البنية الداخلية للنص وأبعاده الدلالية والتداولية، وهذا الاعتقاد هو ما حدا به إلى استلهم أفكار السيميائى "تشارلز موريس" مميّزاً بين ثلاثة أصناف من العدول: ١- عدول فى التركيب: وهو يخص العلاقة بين الدلائل. ٢- عدول فى التداول: ويخص العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقى. ٣- عدول فى الدلالة: ويخص العلاقة بين الدليل والواقع. انظر: البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائى لتحليل النص، هنريش بليث، ت: محمد العمرى، دراسات سال، ط١، ١٩٨٩، ص ٤١ - ٦٥.

زيادة، وحذف، وتعويض، وتبادل دلائل.

والبحث يتفق مع "بليث" فى أن هاتين العمليتين هما اللتان تتحكمان فى تشكيل أسلوبية أى نص أدبى؛ إذ يتولد عنهما كافة أشكال الصور البلاغية التى تمثل متغيرات أسلوبية متاحة -من جهة الإمكان العقلى- أمام الكاتب ليعمل فيها بالاختيار أو التثنية، وبالتكثيف أو التقليل، وباتباع طرق مختلفة فى التوزيع حتى تصير عناصر فاعلة فى تشكيل أسلوبية نصية، أو بتعبير آخر، لتكون خصائص أسلوبية مائزة لهذا النص.

ويصنف "بليث" المتغيرات الأسلوبية إلى صنفين، وذلك تبعاً للعملية المولدة لها، فيطلق على المتغيرات الناتجة عن تقوية المعيار اسم "التوازنات"، بينما يطلق على تلك التى تخرج عن المعيار اسم "الرخص"^(١).

والنشاط التحليلي يبدأ برصد أهم صور التوازنات التى تعد خصائص أسلوبية مائزة للسجع القرآنى، ثم يتوجه إلى الكشف عن الرخص التى يمكن أن توصف بأنها اختيار النص، مستعينا بالمعالجة الإحصائية التى تبرز مدى شيوع هذه الاختيارات، وأنماط توزيعها.

ولاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى تتوجه الدراسة إلى الإبداع السجعى عموماً، لتحديد المتغيرات الأسلوبية التى جاءت مشتركة فى أغلب النصوص المسجوعة، وبذا تتمثل فى الوعى مجموعة من القواعد الأصيلة بوصفها أدوات التعبير السجعى، وفى ظل عدم معرفة تلك القواعد ربما نعثر الوصول إلى هدف الدراسة الأسلوبية؛ وهو تحديد الخاص غير المتكرر فى السجع القرآنى، هذا الخاص الذى يمكن اعتباره عدولاً ثالثاً يهدم آلية التوقع لدى القارئ. والمعيار الذى يعزل النص عنه -فى إطار هذه المقارنة- ليس اللغة العادية وإنما هو "العرف الأدبى"، لو سُمح لى باستخدام تعبير غير دقيق أو مريب فى سياقه كهذا التعبير، فما دام القصد هو البحث عن الخصائص الأسلوبية للسجع القرآنى فى اختلافها، فإن مثل هذا القصد يضطر البحث أن يرتد، بشكل أكثر تفصيلاً، إلى

(١) إن تسمية العدول عن القاعدة الأصلية "بالرخصة" تسمية لافتة؛ إذ يبدو أن "بليث" حينما استخدم هذه اللفظة كان صادراً عن إدراك واضح لضرورة أن تكون هناك حكمة ما وراء الخروج عن القاعدة، وتلك الحكمة هى الشرط الذى لا يتم الترخص إلا فى إطاره.

السجع العربى؛ للنظر فى نظامه، وفى خصائص عناصره، وتحديد القواعد التى تمثل عناصر مكوّنة فى بنية النظام. ونحن اليوم فى حوزتنا عدد لا بأس به من الدراسات المعنّية بالسجع العربى وتحديد مواصفاته، وهذا بالطبع جدير بأن يوفر على الباحثة كثيرا من الجهد.

وفى مستوى البناء الصوتى للسجع القرآنى تتابع الدراسة مناطق الإنتاج الصوتى، وبخاصة نهايات الجمل السجعية ومدى انسجامها انسجاماً كاملاً أو ناقصاً. كما تتابع الحروف كثيرة الورد فى منطقة الثقل السجعى، والمهيئات الصوتية التى تسبق تلك المنطقة، من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم تحديداً بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، فتقف على الدور الذى تؤديه تلك المؤثرات الصوتية فى التشكيل الإيقاعى للنص القرآنى، من حيث التخفيف من حدة الإيقاع، أو تكثيفه، أو وضعه فى منطقة محايدة بين الحدة والخفة. ويظل الحديث عن الدور الذى تضطلع به تلك المؤثرات الصوتية حديثاً ناقصاً ما لم يكتمل بالتوجه إلى منطقة بحثية أهملت فى بعض الدراسات التى وجهت كل عنايتها إلى بحث الأثر الإيقاعى فحسب؛ مما وقف حائلاً دون الكشف الشامل عما تحمله تلك المؤثرات الصوتية إلى القدرة الإبداعية للنص. فالدور الممنوح عادة للمؤثرات الصوتية، هو أن تكون منتجة للإيقاع. وجدير بالذكر أنها بهذه الصفة الرسمية تشترك بصورة غير مباشرة، فى تأسيس المعنى الدلالى الذى يطرحه النص؛ فالإيقاع الناتج عنها يمثل وحدة إيحائية، ومن ثم يمكن من خلاله الوصول إلى عدد من الدلالات السطحية والعميقة فى السورة.

ومظاهر التأثير الصوتى فى السجع القرآنى كثيرة ومتنوعة غير أنه يمكن تصنيفها تبعاً لمقاييس العدول إلى صنفين كبيرين سبقت الإشارة إليهما؛ أولهما: التوازنات، والثانى: الرخص.

ويهتم البحث أولاً بالظواهر الصوتية المنتمية إلى التوازنات، تلك الظواهر الناتجة عن عمليات لسانية من شأنها أن تجعل بناء الأصوات منتظماً وإيقاعياً. والبحث فيما سبق قد أشار إلى عمليات التكرار، والتوازي، والتراكم، والتشابه، بوصفها العمليات الخالقة لصور التوازنات فى النص.

أولاً: التوازنات الصوتية في السجع القرآني:

لقد تطرقت أبحاث عدة قديماً وحديثاً -لمؤلفين عرب ومستشرقين- إلى دراسة تكرار الأصوات اللغوية في النص القرآني. واستأثرت فواصل الآيات بالجانب الأكبر من عناية الباحثين الذين أسهبوا في الحديث عن قيمتها الموسيقية والإيحائية في النص. فالزركشي يحدثنا عن أثر الفاصلة القرآنية في تحسين الكلام إذ يقول: "واعلم أن إيقاع المناسبة بين الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه في النفس تأثيراً عظيماً".^(١)

ويظل السجع والفاصلة القرآنية موضع جذب لكثير من الدارسين في العصر الحديث كذلك فهناك كتاب مصطفى صادق الرافعي "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".^(٢) وهناك مقالات أحمد الحوفي في مجلة مجمع اللغة العربية. التي انصبت على معرفة الفرق بين السجع والفاصلة.^(٣) ومقالة محمد الحسناوي أول من سمى الفاصلة.^(٤) ومقالة الشيخ عبد الرحمن تاج "السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم"^(٥)... وغيرها من الدراسات الجادة.

ويلاحظ من مقارنة الدراسات المذكورة بعضها ببعض الآخر، ومقارنتها

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧، ج١، ص ٦٠.

(٢) راجع: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ص ١١٥ - ١٢٠.

(٣) راجع: سجع أم فواصل، أحمد الحوفي، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٧، ١٩٧١، ص ١١٤ - ١٢٨. وراجع أيضاً: سجع القرآن فريد، أحمد الحوفي، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٩، ١٩٧٢، ص ٩١ - ٩٦.

(٤) راجع: أول من سمى الفاصلة، محمد الحسناوي، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٣١، ١٩٧٣، ص ١٣٧ - ١٤٧.

(٥) راجع: السجع وتناسب الفواصل، وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، عبد الرحمن تاج، ص ٢٠ - ٣٩.

بما أنتجته الدراسات البلاغية القديمة، أنها جاءت -فى الغالب- بلغة القدماء وأحكامهم الانطباعية التدوئية المجملة.

والأمر اللافت للانتباه فى دراسة المستشرقين للسجع القرآنى، برغم ما قد يسجل عليها، ابتعادها عن الانطباعية إلى حد بعيد، وانشغالها برصد نظام النص فى كليته مما أفرز ملاحظات ذات قيمة وينكر فى هذا الصدد دراستى "كارل فوللرز"، و"ديفين ستيوارت".

قام فوللرز بدراسة السجع القرآنى ضمن كتابه "اللغة الشعبية واللغة الأدبية فى الجزيرة العربية"، وقد قسم السور القرآنية إلى ست مجموعات وفقاً لنهايات الفواصل، هى:

المجموعة الأولى: وتضم هذه المجموعة السور القرآنية التى بنيت بكاملها أو أغلبها على النهاية "الياء والنون" أو "الواو والنون" وعددها ثمان وعشرون سورة هى: الفاتحة/ الأنعام/ الأعراف/ التوبة/ يونس/ يوسف/ الأنبياء/ المؤمنون/ الشعراء/ النمل/ القصص/ العنكبوت/ الروم/ السجدة/ يس/ الزخرف/ الدخان/ الجاثية/ الأحقاف/ الحجرات/ ق/ الجمعة/ المنافقون/ القلم/ نوح/ المطففين/ التين/ الماعون.

المجموعة الثانية: عددها أربع وثلاثون سورة وتضم السور التى تنتهى فواصل آياتها بنهايات منتظمة -بقدر ما- إلى جانب النهايتين "الياء والنون" و"الواو والنون" وهى: البقرة/ آل عمران/ المائدة/ الأنفال/ هود/ الرعد/ إبراهيم/ الحجر/ النحل/ الحج/ النور/ لقمان/ سبأ/ فاطر/ ص/ الزمر/ غافر/ فصلت/ الشورى/ الطور/ الرحمن/ الحديد/ المجادلة/ الحشر/ الممتحنة/ الصف/ التغابن/ التحريم/ الملك/ البروج/ الفيل/ قريش/ الكافرون/ الناس.

المجموعة الثالثة: وهى تحتوى على تسع عشرة سورة تنتهى جميع فواصلها أو معظمها بصوت صائت، وهى: النساء/ الكهف/ مريم/ طه/ الفرقان/ الأحزاب/ الفتح/ الجن/ القيامة/ الإنسان/ والنازعات/ عبس/ الأعلى/ والشمس/ والليل/ والضحى/ البينة/ الزلزلة/ الهمة/ وفى سور: النساء/ الإسراء/ فاطر/ المزمل/ النصر/ تبدو النهايات حركة غير أساسية.

المجموعة الرابعة: وهي المجموعة التي تنتهي سورها تارة بصوت صامت، وتارة أخرى بصائت وعددها ثمانى عشرة سورة هي: الصافات/ والذاريات/ والنجم/ الواقعة/ الطلاق/ الحاقة/ المعارج/ المزمل/ المدثر/ المرسلات/ النبأ/ التكوير/ الانفطار/ الانشقاق/ والفجر/ البلد/ والعاديات/ القارعة. والملاحظ أن السور السابقة جميعها مكية فيما عدا سورة الطلاق.

المجموعة الخامسة: وعددها عشر سور بُنيت فواصلها على حركة قصيرة وصوت صامت، وهي: محمد/ القمر/ الطارق/ القدر/ والعصر/ الكوثر/ النصر/ المسد/ الإخلاص/ الفلق.

المجموعة السادسة: سور بنيت فواصلها على نهايات متنوعة من المجموعة الأولى، والثالثة، والخامسة.^(١)

ويعتبر بحث "ديفين ستيوارت" أحدث ما وصلنا من كتابات المستشرقين الدائرة حول السجع القرآنى. وتأتى خصوصية هذا البحث من كونه يكرس جهده لدراسة هذه المسألة دون غيرها. فالسجع هو مدار الحديث فى الدراسة بكاملها، بخلاف غيرها من الدراسات التى انصبت على موضوعات وقضايا عديدة متنوعة، والحديث عن السجع لا يمثل فيها سوى جانب قد يكون هامشيا إذا ما قيس بالقضية الأم.

وعلى عكس الدراسات التقليدية التى توجهها الانطباعات، جاءت محاولة "ديفين ستيوارت" موضوعية فى وصف الظاهرة؛ إذ اعتمدت على التحليل الإحصائى. فقدمت إحصاء وافيا لسجع القرآن ولأنماط الفواصل فى كل سورة من سوره.^(٢) لكن بحثى "قوللرز" و"ستيوارت" قد وقفا عند الجداول، دونما اكتراث فى الغالب- بإظهار الدلالة الإحصائية، فلم يحاولا أن يستكشفا ما تتضمنه هذه الجداول ولا ما توحى به، ولم يعتنيا بإلقاء الضوء على أمور مهمة، مثل: اختيار النص للأسلوب، وتلقى القارئ له.

(1) See: volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien, Karl Vollers: Verlag von Karl J. Trubner, strassburg. 1906 p: 56- 57.

نقلا عن: من صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع ٣٦، م ٩، ١٩٨٩، ص ٩١.

(٢) انظر: السجع فى القرآن: بنيته وقواعده، ج. ديفين ج. ستيوارت، ص ٣٣ - ٣٤.

وفيما يلي أقدم الإحصاءات التي أجراها البحث على السور القرآنية -مكية ومدنية- مقدمة لتحليل كمى لأصوات السجع القرآنى.

جدول (١)
الصوامت الواقعة فى السجع القرآنى

عدد الآيات المسجوعة المنتهية بصامت	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
٤٤٦٩	النون	٢٩٥٧	%٦٦,١٧
	الراء	٥٧٣	%١٢,٨٢
	الميم	٣٥٧	%٧,٩٩
	الدال	٢٠٤	%٤,٥٦
	الباء	١٢١	%٢,٧١
	اللام	٩٧	%٢,١٧
	الهاء	٤٠	%٠,٩٠
	التاء	٣٦	%٠,٨١
	القاف	٢٢	%٠,٤٩
	العين	٢٢	%٠,٤٩
	السين	١٠	%٠,٢٢
	الفاء	٩	%٠,٢٠
	الكاف	٦	%٠,١٣
	الجيم	٥	%٠,١١
	الهمزة	٣	%٠,٧
	الحاء	٣	%٠,٧
	الثاء	٢	%٠,٤
	الظاء	٢	%٠,٤

* لم تعتبر الدراسة ألف التتوين المفتوح رويًا وإنما الاعتبار للحرف الأخير دون الألف، كذلك لم تعتبر الألف الملحقة بالهاء فى (ها) رويًا وإنما الاعتبار للهاء، وهى لا تعدد أيضا بهاء السكت، أو الهاء المنقلبة عن تاء تأنيث متحركة ولا تعتبرها رويًا وسوف يأتى بيان العلة فى ذلك.

جدول (٢)

الصوائت الواقعة في السجع القرآني

النسبة المئوية	مرات تردده	الصوت	الآيات المسجوعة المنتهية بصائت
٦٦,٧٦%	٢٣٩	الألف	٣٥٨
٣٣,٢٤%	١١٩	الياء	

جدول (٣)

الأصوات الممثلة للسجع في السور المكية

النسبة المئوية	مرات تردده	الصوت	عدد الآيات المسجوعة في السور المكية
٦١,٤٢%	٢٣٢١	النون	٣٧٧٩
١١,٧٢%	٤٤٣	الراء	
٦,٣٢%	٢٣٩	الألف	
٤,٩٥%	١٨٧	الذال	
٣,٩٤%	١٤٩	الميم	
٣,١٥%	١١٩	الياء	
٢,٧٢%	١٠٣	الباء	
١,٧٧%	٦٧	اللام	
٠,٩٥%	٣٦	التاء	
٠,٨٧%	٣٣	الهاء	
٠,٥٨%	٢٢	القاف	
٠,٥٣%	٢٠	العين	
٠,٢٦%	١٠	السين	
٠,٢٤%	٩	الفاء	
٠,١٦%	٦	الكاف	
٠,١٣%	٥	الجيم	
٠,٠٨%	٣	الحاء	
٠,٠٨%	٣	الهمزة	
٠,٠٥%	٢	التاء	
٠,٠٥%	٢	الظاء	

جدول (٤)
الأصوات الممثلة للسجع في السور المدنية

عدد الآيات المسجوعة في السور المكية	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
١٠٤٨	النون	٦٣٦	%٦٠,٦٩
	الميم	٢٠٨	%١٩,٨٥
	الراء	١٣٠	%١٢,٤٠
	اللام	٣٠	%٢,٨٦
	الباء	١٨	%١,٧٢
	الدال	١٧	%١,٦٢
	الهاء	٧	%٠,٦٧
	العين	٢	%٠,١٩

من الإحصاءات السابقة يمكن استنتاج ما يأتي:

(١) تميل حصة الروى في السجع القرآنى إلى الحرف الصامت. فقد بلغت نسبة ظهوره في أواخر الفواصل القرآنية ٩٢,٦%، بينما لم تتجاوز نسبة ظهور الحروف الضائنة (الألف والياء)^(١) نحو ٧,٤٢%.

واللافت للانتباه أن بعض الدراسات التى أجريت على كل من الشعر والسجع العربى تؤكد ميل نصوص العربية إلى استخدام حروف المعجم الصامتة بوصفها روياء؛^(٢) فشيوع الصوامت فى ذلك الموضع يفوق بكثير شيوع أصوات

(١) لم يرد حرف "الواو" سوى مرتين اثنتين فحسب فى مواضع غير مسجوعة.

(٢) لنا أن نرجع على سبيل المثال فحسب - إلى الإحصاء الذى قام به الدكتور عبد الرحمن السيد عن كتاب "الأمالي"، وفيه نجد أن نسبة استخدام الأصوات الصامتة روياء تصل إلى ٩٤,٤%، بينما لا تتجاوز نسبة استخدام أصوات اللين [الواو - الألف - الياء] ٥,٦%، ولست اعتقد أن الأمر راجع فى ذلك إلى تفوق حروف المعجم الصامتة عددياً على حروفه الضائنة. انظر: العروض والقافية: دراسة ونقد، عبد الرحمن السيد، مطبعة قاصد خير، ط١، د. ت، ص ١٠١-١٠٢.

اللين الطويلة. وهذه المسألة كانت خليقة بأن تجد من يحاول تفسيرها وتعليلها. وقد تصدى لهذا الأمر باحثون، انصبت دراستهم على الشعر بخاصة، وخرجوا بآراء متنوعة في هذا الصدد.

فقد قام الدكتور "إبراهيم أنيس" في كتابه الرائد "موسيقا الشعر" بمحاولات إحصائية لتحديد حروف المعجم التي تقع رويًا ونسبة شيوعتها في الشعر العربي، وهو يؤكد أن كثرة مجيء الحرف رويًا سواء أكان صامتًا أو صائتًا - لا تعزى إلى ثقل في الصوت أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة وروده في أواخر كلمات اللغة.^(١) ويختلف معه الدكتور شكرى عياد الذى ذهب إلى أن الروى الصامت ألزم للقافية من جميع أصوات اللين، وأن هذا اللزوم لا يأتيه من طبيعة معجمية كما قال "إبراهيم أنيس" وإنما يرجع إلى اعتبار الصوامت ركيزة في ضبط الإيقاع؛ إذ تمثل في موضعها منبهاً قوياً يشبه وظيفة القرع.^(٢) ولكن هذا التفسير أيضا لا يكفي فهو لا يفسر -مثلا- لماذا يُمثل الحرف الصامت بخلاف الحرف الصائت - منبهاً قوياً في موضعه؟ ما الخاصية التي يستأثر بها دون غيره إذا ما تمثل رويًا؟ غير أن باحثاً آخر قام بتتبع الأسباب التي من أجلها انفرد "الصامت" بكونه ركيزة إيقاعية، حيث يقول: "وما نراه من حكم لزوم الروى أنه في معظم الورود يعتمد على كونه مقطعاً قائماً بذاته. والصامت من الأصوات يتحقق فيه ذلك تماماً؛ لأننا إذا اعتبرنا الحركة سابقة عليه أو تابعة له؛ فإنه يكون من خلال ذلك وحدة مقطعية أيا كان متقيّداً أو مفتوحاً أطلق مجراه؛ ومن أجل ذلك لم يقبل الصائت رويًا؛^(٣) لأنه لا يمثل وحدة مقطعية مستقلة. فهو كمال مقطع ولن يصبح جزءاً من تشكيل مقطعى إلا من خلال اعتماده على صامت لا حركة أخرى قصيرة؛ لأن الكم مهما طال يعود نهاية إلى الاعتماد على الصامت. ومعنى أن يشكل الصامت مقطعاً مستقلاً. أن يكون وحده

(١) انظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢، ص ٢٤٨. وقد تابعه كثير من الباحثين في القول بأن شيوخ صوت دون غيره يعد ذا طبيعة معجمية، ونذكر منهم هنا "جمال الدين بن الشيخ" "الشعرية العربية"، ص ٢٠٩، والهادى الطرابلسى "خصائص الأسلوب في الشوقيات"، ص ٤٦.

(٢) انظر: موسيقى الشعر العربي، شكرى عياد، ص ١١٥.

(٣) يعنى بالصوائت ألف المد، وواوه، وياءه.

ظاهرة الإيقاع إذا ما حدث التزلّم فهو قيمة نطقية أو كتلة نطقية يبرز دورها في تمام الإيقاع".^(١)

وبرغم أن هذه الفكرة شائعة فإن هناك أموراً تطعن في القطع بصحتها. فالصوت الصائت يتسم هو أيضاً بخصائص تجعل منه قيمة نطقية وإن لم يكن كتلة نطقية - وأحب أن أفرق بين التعبيرين - فهناك خصائص لم يأخذها الدكتور أحمد كشك في الاعتبار، ولكن المهتمين بعلم الأصوات توقفوا عندها كثيراً. فقد لاحظوا أن أصوات اللين بطبعها أكثر وضوحاً في السمع من الأصوات الصامتة؛ ولهذا السبب يمكننا تمييزها على مسافات بعيدة. أفلا يمكن اعتبار تلك السمة من السمات المؤهلة للحروف التي يمكن ترشيحها من أجل التقفية والسجع؟!

كما أنه، إذا كانت أبسط صورة لكتلة نطقية هي أن تصدر صوتاً صامتاً تليه حركة - أي مقطع من النوع الأول (٧) - فلنا من هذه الزاوية أن نعدّ الحركات الطوال مقطعاً مستقلاً كذلك؛ فقد لاحظ العالم "هلمهولتز" أحد رواد علم الأصوات الفيزيقي "أن إصدار صوت اللين - أي حركة [قصيرة أو طويلة] - يكون مصحوباً دائماً وعلى طول مداه بنوع من الضوضاء. وهي جلبة متولدة عن احتكاك الهواء بأقصى الفم وجانبيه من الداخل. وهذه الجلبة هي بطبيعة الحال صوت ساكن خفيف".^(٢) إذن، فالحركة المتجرّدة عن الساكن عبارة عن تصور محض "فليس إلا من قبيل التجريد أن يستطيع الإنسان تصور حركة منفردة (أي صوت لين لا يخالطه صوت ساكن)".^(٣) لكن ما يدعونا إلى عدم اعتبار الأصوات الصائتة وحدات مقطعية مستقلة بالرغم من بنائها المزدوج المشار إليه؛ هو قلة الوضوح السمعي للصوت الصامت المختلط بالحركة. فالحد الصوتي للضوضاء المسموعة يكون ضعيفاً في الصوائت الطوال، وأكثر ضعفاً في القصار منها.

(١) القافية تاج الإيقاع الشعري، أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥٣.

(٢) نظرية جديدة في العروض العربي، م. ستانسيلاس جويار، ت. منجى الكعبي، مراجعة عبد الحميد الدواخلي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٦، ص ٢٠.

(٣) نظرية جديدة في العروض العربي، م. ستانسيلاس جويار، ص ٢١.

أعود ثانية إلى غلبة الحروف الصامتة في السجع القرآني، وهذه الكثافة إنما ترجع -كما سبق إيضاحه- إلى أمور منها: رحابة العطاء المعجمي المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثل قوة ارتكاز إيقاعي ومن ثم كان توظيفها أحد إجراءات التأثير على السامع، هذا والمفاضلة بين الصامت والصائت إنما تتول قبلاً إلى اختيار النص لدال الفاصلة القادر على أداء المعنى الدلالي وخدمة مقام الحديث.

(٢) ويُسلم ذلك إلى الملاحظة الثانية، فبالاطلاع على الجداول السابقة نجد أن حروف المعجم لا تتساوى في الإتيان رويًا للسجع القرآني، فهناك ثمانية حروف مهيمنة، هي على الترتيب.

١- النون: وتبلغ نسبتها ٦١,٢٦% من مجموع ٤٨٢٧ آية هي جملة الآيات المسجوعة في القرآن.

٤٦٦٧ آية	[٢- الراء: ١١,٨٧% (٥٧٣) آية	٦- الباء: ٢,٥١% (١٢١) آية
		٣- الميم: ٧,٤٠% (٣٥٧) آية	٧- الياء: ٢,٤٧% (١١٩) آية
		٤- الألف: ٤,٩٥% (٢٣٩) آية	٨- اللام: ٢,٠١% (٩٧) آية
		٥- الدال: ٤,٢٣% (٢٠٤) آية	

والملاحظ أن هذه الحروف لا تتعادل في درجة شيوعها وطرق توزيعها داخل النص. ففي التصنيف السابق نجد أن فونيم "النون" يؤكد هيمنة لا جدال فيها، فهو أكثر الصوامت العربية وقوعًا في السجع القرآني، وتتعاقد تقريباً نسبة توزيعه في كل من السور المكية والمدنية -ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع إلى الجداول أرقام (٣، ٤).

والحقيقة أن "النون" واحدة من أسرة صوتية يُمثل كافة أفرادها داخل تصنيف الأصوات المهيمنة في السجع القرآني وإن اختلف حظ كل منها من حيث الشيوع. وتسمى هذه الأسرة باسم "الأصوات المتوسطة أو المائعة" وهي تتكون من: النون، والراء، والميم، واللام. ويميل بعض الدارسين إلى تسميتها "أشباه أصوات اللين"؛ والاختلاف في تسميتها على هذا النحو يرجع إلى كونها "حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين. ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل، وفيها أيضاً من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أي نوع من الحفيف، وأنها أكثر وضوحاً في

السمع".^(١) ويمكننا أن نتأكد من مركزها السمعي بالرجوع إلى البيان الذى قدّمه "يسبرسن"^(٢) حول قوة إسماع الأصوات. وفيه نجد أن صوت الراء يحتل المركز الرابع من حيث قوة إسماعه، يسبقه فى ذلك العلل الطويلة التى جاءت فى المراكز الثلاثة العليا، ويلحقه فى المركز الخامس كل من "النون" و"الميم"، تليهما "اللام" فى المركز السادس.

هنا تتجلى الحكمة الباعثة على كثرة إلحاق هذه الأسرة الصوتية بالفاصلة القرآنية؛ فهى أشد الصوامت العربية وضوحا فى السمع، وأكثرها إسهامًا فى التمكن من التطريب. والسؤال: لماذا استحقّت النون -كميا- أن تكون أكثر أفراد هذه الأسرة حضورا فى فواصل القرآن الكريم؟ بماذا تتميز عن غيرها من الصوامت؟ هل ترجع كثافة استخدامها بوصفها رويًا للسجع القرآنى إلى أسباب منطقية؟ تعدّ النون فيما يرى البحث أنسب الصوامت العربية وقوعًا فى ختام الفاصلة القرآنية، ومرجع ذلك إلى عدة أمور:

أ- يتميز فونيم النون عن أصوات العربية -عامة- والأصوات المتوسطة -خاصة- بأنه يجمع بين خاصيتي الوضوح السمعي، والحد الأعلى للتوسط فى الطول. فبرغم أن "النون" تصنف تقليدياً ضمن الساكن إلا أن لها تركيباً سمعياً -أى مادياً- يشبه ذلك الموجود فى العلل، وهذا التركيب هو الذى منحها -كما ذكرنا- وضوحها السمعي. ولئن كان هذا الوضوح لا يرتقى إلى درجة الوضوح السمعي للراء، التى نراها من هذه الجهة جديرة بأن تتقدم تصنيف الأصوات المهيمنة فى السجع. إلا أن "النون" تتميز بشيء آخر على أقرانها من "أشباه الصوائت"، فهى أطول الحبيسات الأربعة من حيث المدة الزمنية التى تستغرقها فى النطق؛ إذ يتراوح المدى الزمنى السمعي لها بين ٨٠-١٠٠ م/ث^(٣). وبذا يجتمع فى صوت النون خاصيتان مميزتان هما: الوضوح السمعي، والحد الأعلى للتوسط فى الطول.

(١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦١، ص ٢٨.

(٢) انظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص ٣١٣.

(٣) راجع: التشكيل الصوتي فى اللغة العربية -سلمان العائى- ترجمة ياسر الملاح، النادى الثقافى بجدة، جدة، ط١، ١٩٨٣، ص ٥٢. وهذا هو الحد الأعلى للتوسط فى الطول. وفى

ب- وتتمتع النون بميزة موسيقية ظاهرة في الغنة، فهي -كما لاحظ الليث- صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم.^(١) وقد لجأ القراء إلى الغنة لإعطاء النون بعض حقها الصوتي مع غيرها من الأصوات التي كانت تغنُّ فيها؛ وما ذلك إلا احتراز من أن يقرأ القرآن كما يتكلم الناس في أحاديثهم الدارجة التي مالت النون فيها إلى الفناء في غيرها من الأصوات دون أن تخلف أية إشارة تنبئ عنها.

والغنة هي: إطالة للصوت مع ترديد موسيقى محبب. ومن ثم كان الزمن الذي يستغرقه النطق بنون الغنة ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة، فالفرق بين الاثنين فرق في الكمية من ناحية، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى.^(٢)

والغنة ليست صفة ملازمة للنون فقط بل للميم أيضا بيد أن ما يميز صوت النون عن الميم بحق، ويجعل تفوقه الكمي في السجع القرآني مبررا هو كون الغنة في النون أشد وأوضح من الميم.

ج- ويتفق الحضور المكثف لكل من "النون" و"الميم" في السجع القرآني مع القاعدة التي تقضى بأن مبنى السجع على الوقف؛ ذلك أن الغنة الموجودة بهما -حتى وإن كانتا ساكنتين- تعطى إحساس المد، وتعادل قيمته الموسيقية.

بناء على ما تقدم، نرى أن النون كانت أنسب الأصوات العربية وقوعا في السجع القرآني، ويليهما في ذلك "الراء" التي تتميز بكونها أكثر الحروف دورانا في أواخر الكلمات العربية، وبأنها صاحبة أعلى وضوح سمعي بين الصوامت.^(٣)

العربية -كما نعلم- كثير من الأصوات التي يفوق مداها الصوتي السمعي مدى الأصوات المتوسطة جميعا، فنجد المدى الصوتي للشين مثلا -وهي من الأصوات الاحتكاكية- يتراوح بين ١٢٠-١٧٠ م/ث. ١٠٠٠

(١) انظر: المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب -الأزهرى- ت. رشيد عبد الرحمن العبيدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٠٢.

(٢) انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٥٩.

(٣) ذلك وفقا لما سجله بيان "يسبرسن" حول قوة إسماع الأصوات، الذي تحدثنا عنه فيما سبق.

ولنا هنا وقفة؛ فإن بعض الدراسات المعنية بالنظر في النص القرآني، ترى أن ورود "الراء" رويًا في نهايات الفواصل القرآنية كان أقل كثافة من ورود كل من حرفي "النون" و"الميم".^(١) والحق أن هذا القول يحتاج إلى تأمل وإنعام نظر؛ ذلك أن أصحابه لم يعمدوا إلى المعالجة الإحصائية ليؤكدوا صدق قولهم، وإنما بنوه على ملاحظات لا تستغرق في الغالب - كامل النص. ويبدو أن القول السابق لا يصدق إلا مقارنة بحرف "النون" فقط، أما القول بأن "الراء" أقل كثافة في الفاصلة القرآنية من "الميم" فهو أمر لا يؤيده الإحصاء الذي أجرته الدراسة على كامل النص؛ إذ بلغت نسبة شيوع فونيم الراء في السجع القرآني ١٢,٨٢%، بينما لم يتجاوز نسبة شيوع الميم فيه ٧,٩٩%.^(٢) ولكن بالاستقراء الدقيق لكافة الجداول، يتضح أن القول بأن الراء أقل كثافة في الفاصلة القرآنية من النون والميم لم ينبع من فراغ؛ فمن الملاحظ أنه يتفق مع النتائج التي تقدمها الإحصاءات الخاصة "بالقرآن المدني". ومن ثم تعتقد الباحثة أن الدراسات القائلة بأن فونيم "الميم" أكثر كثافة في السجع القرآني من فونيم "الراء" - قد بنت تصورهما هذا من خلال ملاحظة انصبت على بعض أجزاء من النص القرآني، إذ يبدو أنها توقفت عند السور المدنية، ولكن تلك الدراسات وقعت في التعميم؛ فليس دائمًا ما يصدق على الجزء يصدق على الكل.

ولئن كان فونيم "النون" هو أكثر الصوامت وقوعًا في السجع القرآني، فإن أكثر الصوائت فيه هو فونيم "الألف".^(٣) ولعل تفوق الألف -كميًا- على الصوائت الأخرى، عائد إلى كونها أسهل الصوائت الطويلة نطقًا. فمن الأمور اللافتة للنظر، أن ترتيب الصوائت المهيمنة في السجع القرآني يتطابق تطابقًا تامًا مع ترتيبها من حيث الجهد العضلي الذي تتطلبه في النطق. فقد جاءت الألف تتقدم مجموعتها الصوتية، ثم تلتها الياء، وهي أوسط الحركات من حيث سهولة النطق بها.

والمأمل في النص القرآني لا يلحظ تعيينًا لا "للألف" ولا "الياء" سوى في

(١) راجع، الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، عيد محمد شبايك، مركز معالجة الوثائق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ٦٥، ٦٦. وقد صب اهتمامه على الفاصلة في القرآن بعامة لا في المسجوع منه فحسب.

(٢) انظر: الجدول رقم (١).

(٣) كما يبدو من الجدول رقم (٢).

السور المكية فحسب. فالألف تحتل المركز الثالث بين الأصوات المهيمنة في القرآن المكي، وتقع في حوالى ٦,٣٢%^(١) من مجموع آياته المسجوعة.

والعامل المؤهل لشيوع الأصوات الصائتة في السور المكية هو ما يثيره المد فيها في موضعها السياقى من ترنم وموسيقية وتطريب يتناسب مع طبيعة الخطاب المكي الموجّه إلى الوجدان بالدرجة الأولى. فالصوائت تتميز أيا كان نوعها بأنها أطول مدى من جميع الصوائت فهي تستغرق $\frac{350-220}{1}$ م/ث^(٢)، بينما تتراوح مدّة النطق بالصوائت $\frac{170-60}{1}$ م/ث^(٣). وقديماً حاول سيبويه أن يعلل لكثرة إلحاق المد واللين والنون بأواخر الفواصل قائلا: "إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا"^(٤).

ويتصل بالحديث عن "الألف" أمر مهم، هو تحقيق الهمزة في بعض الفواصل القرآنية وبخاصة في مواضع كان الانسجام الموسيقى بينها يتطلب التسهيل. مثال ذلك كلمة (شيئا) في أربع آيات من سورة مريم هي قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾^(٥). وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(٦). وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(٧). وقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٨) إن الآيات الأربع السابقة لو قرئت بتسهيل الهمزة لكانت منسجمة مع الفواصل الأخرى، تلك التى انتهت بالياء

(١) ناهيك عن "ألف الإطلاق" التى تنتشر فى ختام فواصل الآيات، والتى بلغت نسبتها فى السجع القرآنى نحو ١٠,٩٠%.

(٢) راجع: التشكيل الصوتى فى اللغة العربية، سلمان العانى، ص ١١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠-٥٩.

(٤) الكتاب، سيبويه، ج-٢، ص ٢٨٩.

(٥) مريم: ٩.

(٦) مريم: ٤٢.

(٧) مريم: ٦٠.

(٨) مريم: ٦٧.

الممدودة بالألف فى سورة مريم، فلماذا أثر النص تحقيق الهمزة فى هذه الآيات؟

وقف البعض^(١) متأملاً ومتحيراً فى العثور على تعليل يبرر تحقيق الهمزة فى الأمثلة السابقة خاصة وأن تسهيلها مروي عن أهل مكة والمدينة مهبط الوحي؛ قال أبو زيد: أهل الحجاز وهذيل، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون. وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا^(٢).

والنبر هو الهمز فى اصطلاح القدماء؛ قال ابن منظور: "النبر همز الحرف، ولم تكن قریش تهمز فى كلامها"^(٣) وهنا يثار تساؤل حول سر اختيار الناطقين الأوائل باللغة كلمة "النبر" دون غيرها لتكون مرادفاً للهمز، هل النظام الاصطلاحي عمل أنجزه وعى منظم؟ لا شك أن الناطقين باللغة كانوا يعاملون المصطلحين معاملة المترادف لأمر ما مشترك فيهما، أمر تمتد جذوره فى المعنى المعجمي؛ فمن المعلوم أن انتقال أى كلمة من المعجم اللغوي إلى المعجم الاصطلاحي لم يكن يتم إلا بقرينة تبيح هذا النقل. وعندما نرجع إلى لسان العرب نجد ابن منظور يقول فى مادة "نبر": "هو الهمز، وكل شيء رفع شيئاً فقد نبر، وقال اللحياني: رجل نبار صياح، وإقال] ابن الأنباري: النبر عند العرب ارتفاع الصوت يُقال نبر الرجل نبرة إذا تكلم بكلمة فيها علو... والنبر صيحة الفزع، ونبرة المعنى: رفع صوته عن خفض"^(٤).

من هذه الإشارات يمكن استخلاص الصفة المشتركة بين المترادفين: الهمز والنبر. فيبدو أن القدماء قد استشعروا ما يحدثه الهمز من رفع للصوت عن خفض، وما يحث عليه من ضغط على المقطع الصوتي الذي يحتويه. وهما خاصتان لم

(١) انظر: على هدى الفواصل القرآنية، إبراهيم أنيس، مجلة مجمع اللغة العربية، البحوث والمحاضرات، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١١٦. وراجع كذلك، من صور الإعجاز الصوتي فى القرآن الكريم، محمد العبد، ص ٨٩.

(٢) مقدمة لسان العرب، ابن منظور الأفرقي، ج١، ص ١٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور الأفرقي، مادة (ن. ب. ر)، ج٥، ص ١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، مادة (ن. ب. ر)، ج٥، ص ١٨٩.

ينالا عناية كافية في المناقشات الخاصة بعلم الأصوات.^(١) فإذا كانت للهمزة هذه القيمة النغمية النبرية، فلماذا كان تسهيلها هو الأمر المختار لدى بعض اللهجات؟ هل يوجد ثمة ارتباط بين تحقيق الهمزة أو تسهيلها وبين الدلالة؟

بالعودة إلى الشواهد السابقة الذكر، وتأملها بعناية ندرك أن الهدف من تحقيق الهمزة فيها لم يكن مجرد كسر توقع القارئ المنتظر لمراعاة الفاصلة، وإنما يرجع تحقيقها إلى أمر خاص بالمعنى، فالهمز^(٢) يمثل عاملاً تطريزيًا^(٣)، بل إنه يعد أقوى القوانين التطريزية وجودًا في نطق الفصحاء،^(٤) حيث ينتج عنه نشوء نوع من النبر يطلق عليه نبر التوتر (أو الشدة).^(٥) وإذا نطق بالتناوب الكلمات "شيئًا"

(١) هناك دراسة جادة توقفت قليلاً عند تلك الخواص، وهي "القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث"، عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ص ١٥ - ٣٦.

(٢) الهمز هنا مستعمل بالمعنى اللغوي العام، المتصل بمعنى الضغط والنبر. أما حين يُراد الصوت المعروف فتستعمل كلمة "همزة".

(٣) يستعمل مصطلح "التطريز" في بعض المدارس اللسانية ليشير إلى خصائص مثل النبر "stress"، ونغمة الكلام "intonation". انظر: مدخل إلى اللغة واللسانيات، تأليف جون ليونز، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م ١٤ (١)، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧، ص ١٨٨.

(٤) انظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب ودراسة: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، ١٩٨٥، ص ١٩٨.

(٥) أشار "جان كانتينو" إلى وجود ثلاثة أشكال للنبر: ١- نبر موسيقي: وهو يستتبع تنوعات في علو النغمة الحنجرية، أي (في ترددذبذبات الأوتار الصوتية). ٢- نبر التوتر: ويعنى تنوعات التوتر المسموع، فالمقطع في أية جملة لا تنتج بنفس التوتر، فإن سعة التذبذب تختلف من مقطع لآخر، ومن ثم فإن بعض المقاطع يكون أكثر ضعفًا، أي: (غير منبور)، وبعضها الآخر أكثر قوة أي: (منبور). ٣- نبر الطول: وهو راجع إلى زيادة في مدة النطق بالصوت. ٤- يمكن أن يضاف إلى النبر شكل آخر هو تركيب من هذه العناصر معًا، أو من بعضها.

راجع: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث - عبد الصبور شاهين، ص ٢٦.

Jean cantineau: Etudes linguistique arabe. Paris, 1960. p. 119.

و"شَيًا"،^(١) تتجلى فاعلية تحقيق الهمزة فى مواضعها. فالملاحظ أنها تسهم فى إبراز المقطع الأخير من الكلمتين، فتجعل منه نقطة ارتكاز لها قوة إسماع ظاهرة. فالهمز انتقال النبر من المقطع قبل الأخير -شَي- إلى المقطع الأخير الذى يحدث فيه نوع قوى من الضغط على المقطع يُدعى "نبر التوتر الهمزى"، وهو نبر أقوى وأظهر مما لو افترضنا نطق الكلمة بتسهيل الهمزة وتضعيف الحرف السابق عليها.

وللهمز وظيفة يبدو أن القدماء كانوا مدركين إياها. فقد حرص أهل بادية تميم على تحقيق الهمزة؛ نظراً لسرعة أدائهم، والتماسهم أن يضغطوا بعض المقاطع بصورة واضحة، حيث يشعرون بضرورة هذا الضغط للتقليل من عيب السرعة فى الأداء، وهو السبب الذى أحوجهم إلى الحرص على وجود نبر التوتر الهمزى فى كلامهم، على حين اكتفى أهل الحجاز بقدر يسير من الضغط على موضع الهمزة المسقط، فقد استغنوا عن الهمزة بوصفها وسيلة للنبر، وساعدهم على ذلك تعودهم الأناة فى نطقهم، والتؤدة فى إيراد المقاطع منبورة أو غير منبورة.^(٢)

ويعد العدول عن تسهيل الهمزة فى الشواهد القرآنية السابقة وإثبات تحقيقها برهاناً جديداً من براهين الإعجاز الصوتى فى لغة القرآن الكريم، فاللغة القرآنية جاهدة دائماً أن يتوافر فى بنائها كل ما من شأنه أن يضع خطأ تحت الكلمات التى يراد أن تكون مفتاحاً للمعنى؛ وذلك بالتأكيد على أحد مقاطعها أو بعضها. ويبدو أن حرص النص القرآنى على النبر الهمزى فى الكلمات السابقة جاء من هذا القبيل، فالنبر فيها يرتبط ارتباطاً واضحاً بالمعنى، حيث حرص النص على الهمز لأهداف أسلوبية تتمثل فى إسناد قيمة إضافية للتعبير، وهى التأكيد.

كانت هذه هى الأصوات الأكثر تواتراً فى السجع القرآنى، وعند مقارنة ذلك

(١) إن الهمزة فى هذه الكلمة لم تقلب "ياء" كما قد يُخيل إلينا إنما الذى حدث، هو محاولة الاستعاضة عن النبر الهمزى وذلك بالضغط على المقطع مما قوى من حالة المزدوج الهابط فى (شَيًا) sha[ya] بتضعيفه وتحويل الكلمة إلى شَيًا sha[yya]، فالياء الثانية هنا توصف بأنها "نبرية".

(٢) انظر: فى اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٢، ص ١٢٠-١٣٠.

التواتر بما هو شائع في الشعر العربي القديم من توظيف أصوات بعينها بوصفها رويًا للقافية -يتبين أن حروف الروي التي كثر ظهورها في الإبداع الشعري، وتواتر استخدامها في غالبية قصائده، هي نفس مجموعة الحروف الختامية التي نالت حظًا وافرًا من الوجود في السجع القرآني، بيد أن الفروق واضحة بين نسب حضور كل حرف منها في القرآن الكريم وفي الإبداع الشعري، ويمكن تبين هذه الفروق بالنظر في الإحصاء الذي قَدَّمته واحدة من الدراسات الجادة التي عكفت على دراسة الشعر القديم. ولنتأمل النسب التي سجلها "جمال الدين بن الشيخ" في كتابه "الشعرية العربية"، وهي على النحو الآتي^(١):

القافية (الروي)	الشعر والشعراء		الحماسة		أبو تمام		البحتري		الأغاني
	عدد القصائد	عدد القصائد	عدد القصائد	النسبة	القصائد	النسبة	القصائد	النسبة	عدد القصائد
ب	١٥٢	٨٢	٧٢	١٧%	١١٤	١٢%	١١٣٢		
م	١٦٥	١٠٨	٦٣	١٥%	٦٢	٥٦%	١٠٦٥		
ر	٢٦٠	١٤٥	٥٨	١٤%	١١٣	١٢%	١٦٠٢		
د	١٦٥	١١٦	٥٨	١٤%	١٣٣	١٤%	١٠٥٢		
ل	٢٣٧	١٣٧	٤٨	١١%	١٢٠	١٣%	١٣٤٢		
ن	١٢١	٥٥	٢٩	٧%	١٠٠	١١%	٨٨٩		

هكذا يسجل جدول تواتر أصوات القوافي في الشعر العربي حضور الصوامت الستة المتحدث عنها في السجع القرآني بوصفها الأصوات الأكثر شيوعاً فيه. ويهمننا من الإحصاء السابق ما جاء متعلقاً بالمنتخبات؛ ذلك أنها تضيء ذاكرة الروي في النمط الأول من القصيدة العربية القديمة.^(٢) والمقارنة بين تلك النتائج

(١) توصلت مجموعة من الدراسات إلى نسب متقاربة فيما يتصل بأمر الشيوخ والندرة في حروف الروي في الشعر القديم، ونذكر منها؛ الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ت: مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ، دار تبقال، ط١، ١٩٩٦، ص ٢١٠ - ٢١١. موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص ٢٤٨، العروض والقافية، عبد الرحمن السيد، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) وإن لم يكن ممكناً حساب نسبة دالة انطلاقاً من منتخبات ما.

وإحصاء السجع القرآنى تشير إلى وجه آخر من وجوه الإعجاز فى النص المنزل الذى جاء ملائماً للذوق العربى، ومع ذلك فهو معجز له. ومن اللافت أن تلك الحروف الختامية ليست صوت إعجازه مقارنة بالعربية فحسب، بل هى واحدة من طرق الاستهواء الصوتى فى اللغة، "وأثرها طبيعى فى كل نفس. فهى تشبه أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه".^(١) إن أثرها يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى؛ ذلك أن هذه الفواصل -كما رأى الرافعى- ما هى "إلا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الذى يساق عليه مما ليس وراءه فى العجب مذهب".^(٢)

ولما كان أول مفاتيح النفس هى الأذان المدركة؛ فقد حرص النص القرآنى على أن يتوسل بهذه الأصوات الموسيقية؛ بغرض جذب الانتباه، وإيقاظ الوجدان، وإعمال العقل والفكر. وقد أشار "جب" Gibb فى كتابه "الاتجاهات الحديثة فى الإسلام" إلى أن الموسيقى الظاهرة فى النظم الصوتى للغة القرآن الكريم، قد أدت دوراً لا حد له فى تكييف عقل السامع وتهيئته لتلقى الدعوة الإسلامية.^(٣)

إذ تتحرك الدراسة فى منطقة الثقل السجعى فإنها تلتفت إلى إحدى المؤثرات الصوتية التى تحتفظ بقيمة عملية مؤكدة فى النصوص المسجوعة بصفة عامة والنص القرآنى بصفة خاصة. فلقد وضع أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبى شرطاً فى النثر المسجوع يضمن لرويه وحدة الجرس، فاشتراطوا أن يكون مبناه على الوقف، قال الخطيب القزوينى: "إعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف".^(٤)

وما من شك فى أن الوقف يعد دعامة أساسية تسهم فى إبراز الجمالية

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى، ص ٢١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(3) Modern trends in islam, H.A.R. Gibb. The uni. Of chicogo, 1975, p.4.

(٤) الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، شرح محمد عبد المنعم خفاجى، جـ ٢، ص

الإيقاعية للسجع؛ ذلك أنه يكفل لخاصية التوازن والتعادل الظهور من خلال ما يحدثه من جرس موحد ناتج عن مجيء التماثل الصوتي بين أحرف الروى مصحوبا بتمائل في الحركات النطقية. والسؤال المطروح هنا: هل هذا الشرط -الوقف- مفروض على بنية النص القرآني، فرضه القراء أو البلاغيون الأوائل ثم رحنا نتابعهم في ذلك؟

ثمة ملاحظات في القرآن لا تدع مجالاً للشك في أنه نزل متوخيا الوقف على أواخر الفواصل، حريصا على توفره في سجعه. فالوقف خاصية فرضها قانون النص ولم تفرّض عليه من الخارج، لم يفرضها القراء الأوائل ولا غيرهم، ويمكن البرهنة على ذلك بالدليل المادي من النص القرآني الذي هو مثال للغة العربية في أبهى صورها، والمنفذ الأمثل لكل ما تقتضيه الحكمة اللغوية فيها.

ولقد لاحظ القدماء أن الوقف يضعف الحرف الأخير الموقوف عليه إذا كان صوتاً من أصوات اللين ولذا فإن هذا الصوت يكون بحاجة إلى تقوية تتم عن طريق إلحاقه بصوت آخر اجتمعوا على أن يكون "هاء السكت"، "ولعل السر في ذلك هو أن الجهاز النطقي عند إخراج الحركات يكون مفتوحاً، ويسمح للهواء بالمرور فيه دون عوائق وهذا معناه أن صوت اللين إذا كان في آخر الكلمة تبدد بسرعة مع الهواء الخارج بكمية كبيرة فيبدو ضعيفاً خفياً، ولذا أنشأ الوقف هاء السكت لتقوية الحركة أو صوت اللين السابق عليها؛ لكونها صوتاً احتكاكياً يضيق مجرى الهواء ولا يسمح بخروجه دفعة واحدة".^(١)

وفي القرآن الكريم من النمط السابق ما يؤكد توخيه للوقف على أواخر فواصله (مسجوعة وغير مسجوعة) يقول الخالق عز وجل: ﴿لَقَدْ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً﴾.^(٢) ويقول: ﴿لَوْ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً، وَلَمْ أَذَرَ مَا حِسَابِيَّةً، يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةً، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهَ، هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾.^(٣) هاء السكت في هذه

(١) الجانب الصوتي للوقف في العربية ولهجاتها، أحمد طه حسنين سلطان، مطبعة الأمانة، ط أولى، ١٩٩١، ص ٢٣.

(٢) الحاقة: ١٩ - ٢٠.

(٣) الحاقة: ٢٥ - ٢٩.

الآيات تسهم في "تمكين الصوت وتوفيقه ليمتد ويقوى في السمع"^(١)، وهي من ناحية أخرى تعد دليلاً على أن ظاهرة الوقف في القرآن ليست ناشئة عن تدخل المثقلى فى إنتاج جمالية النص - كما قد يتبادر إلى الذهن - فالوقف خاصية أصيلة فى بناء النص القرآنى، وحرصه عليها يتفق أولاً مع ما تتطلبه التلاوة من قطع الصوت عن الكلام زمناً يتنفس فيه القارئ ثم يعود إلى استئناف القراءة. كما يتفق ثانية مع مجيء الجملة فى غالبية الآيات منتهية نحوياً، فالحركة هنا لا مكان لها؛ ذلك أن "الحركة مظهر من مظاهر الاستمرار فى الأداء، والصمت أى الوقف يعتبر عكس الحركة تماماً؛ فبينه وبين الحركة تناقض"^(٢). وقد ذهب القدماء إلى أن الوقف جائز فى رؤوس الآى مطلقاً حتى فى حالات الوصل وذلك لقصد البيان^(٣)، إذ ينقسم السياق إلى دفعات كلامية، يقوم فيها الوقف بدور وظيفى فى توضيح المعنى، وفى سورة المسد - على سبيل المثال - يؤدى التسكين دوراً مهماً إذ يحتفظ للسجعات بقوتها. ويتفق الوقف أخيراً مع قصد تطريب الأذن بصدى الحرف، فإن ذلك الصدى لا يبين جيداً ولا يمكن تذوقه إلا إذا جاء الحرف مستقلاً عما يمكن أن يغير من صفاته الأساسية. وقد أشار ابن جنى إلى ذلك فى كتابه "سر صناعة الإعراب"، قال: "وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به ساكناً لا متحركاً؛ لأن الحركة تقلق الحرف من موضعه ومستقره"^(٤).

والشواهد القرآنية السابقة المختومة بهاء السكت تسترعى الانتباه مرة أخرى؛ فإن الهاء فيها لا يمكن عدّها رويًا للسجع، وهى ليست نظيراً لبقية الصوامت التى يمكن أن تمثل رويًا، وذلك لأن تسكينها يؤثر فى حدها الصوتى فلا يجعله ظاهراً، وهو الأمر الذى يدعو إلى مراجعة التعريف الذى حصر منطقة الثقل السجعى فى الحرف الأخير من الفاصلة، فهذا الحصر لا يضع اعتباراً لمظاهر الوقف المختلفة، كالوقف بالمدّ أو بالسكت ممثلاً فى هائه. والواقع أن هناك لونين من السجع الذى

(١) الخصائص، ابن جنى، ج-٢، ص ٣٢٨.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص ٢٧١.

(٣) انظر: النشر فى القراءات العشر، ابن الجزيرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ص ٢٤٠.

(٤) سر صناعة الإعراب، ابن جنى، ت: مصطفى السقا ومحمد الزفراف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤، ج-١، ص ٢٧.

قدمه شراح التلخيص^(١)، ويكون فيه الروى آخر حرف من الفاصلة. والآخر: يكون الروى بينه وبين انقضاء العبارة المسجوعة حرف.

والمتابعة الرصدية فى النص القرآنى تؤكد تعدد طرقه فى إحداث توازناته الصوتية، وهو يبنى معماره على نحو فائق من التنظيم المهيئ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن الروى موحداً فى السور بكاملها فإن النص يعمد فى ثلويته الإيقاعى المعتمد على تنويع روى الوحدات السجعية إلى أصوات متقاربة فى مخارجها وصفاتها تختص كل وحدة سجعية بصوت منها، لكنها تمد البناء المعمارى للنص فى مجمله بطابع سمعى مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربى أو المشابهة الصوتية.

- المهيئات الصوتية التى تسبق منطقة الثقل السجعى:

كان الجهد فى الصفحات السابقة خالصاً لرصد التوازنات الصوتية التى تظهر فى منطقة الثقل السجعى، مؤسساً على ما أقرته غالبية الدراسات البلاغية من تحديد البعد المكانى لتلك المنطقة وحصره فى الحرف الأخير الموقوف عليه. ويتعين الالتفات إلى المهيئات الصوتية التى يمكن أن تسبق منطقة الثقل، كأن يلتزم النص قبل أو بعد حرف السجع حرفاً أخرى، تعد استمراراً لتكرارية صوتية موضعها نهاية الفاصلة.

ولا شك أن الالتزام يمثل ظاهرة تراثية مغرقة فى تراثيتها، شاعت فى الشعر والنثر على حدٍ سواء، فاستخدمها الكهان فى أسجاعهم، والحكماء فى خطبهم، والشعراء فى قوافيهم، وكانت عناية النص القرآنى بتوظيف هذه البنية البديعية أكثر وأبلغ، إذ تنتشر فيه بصورة كبيرة على نحو ما سوف يأتى تفصيله. ولقد ولع

(١) النقى ابن الأثير والخطيب القزوينى فى تعريف السجع على أنه "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد" ويفصل شراح هذا التعريف، ولكنهم يستنتجون منه استنتاجاً يجانب الصواب حينما يجعلون اتفاق الفاصلتين كائناً فى الحرف الأخير منهما، انظر: شروح التلخيص، جـ، ص ٤٤٥، ولا ينبغى حصر السجع فى الحرف الأخير دائماً؛ لأن هذا الأخير قد يكون هاء السكت أو ألف المد، وهما علامتان على الوقف، مثلهما مثل السكون، لا يحق اعتبارهما رويًا للسجع.

أصحاب المقامات بالالتزام، وقدموا صوراً له فى تشكيلات صياغية عنيت بالقيمة الإيقاعية للحرف أسموها بـ"اللزوميات"، وفيها يتآزر السجع مع الالتزام بحيث تتراكم التنظيمات الصوتية فى ختام العبارة المسجوعة بشكل يؤثر فى كثافة الإيقاع.

وإذا كانت طبيعة العلاقة بين السجع والالتزام قائمة على التجاور فى البعد المكانى فإنه لا يصح اعتبار تلك التنظيمات الصوتية المتجاورة شيئاً واحداً؛ فالالتزام قد يرد فى فواصل الآيات مع كونها غير متفقة الآخر على حرف واحد، وهذا قول يمكن معانيته فى عدد كبير من سور القرآن، منها سورة "ق" التى جاءت فواصلها على النحو الآتى: المجيد، عجيب، بعيد، حفيظ. والملاحظ فى الفواصل السابقة أن الياء تتكرر مع قطع التنسيق عما يتلوها من الحروف التى اختتمت بها الفواصل. وانطلاقاً من هذا لا ترى الباحثة وجهاً للصحة فيما ذهب إليه بدر الدين بن مالك، حينما اعتبر الالتزام لوناً من ألوان السجع.^(١) وإنما يأتى تتبعنا للالتزام فى هذه الدراسة من كونه بنية مؤازرة تؤازر إيقاعيتها إيقاعية السجع وإن كانت لا تبرز فى نسقه.

وينبغى ألا ننساق وراء بعض المقولات النقدية التى أخذت الالتزام بمعنى سلبى، إذ اعتبرته قيداً لحرية الكتابة، قيداً ينتقص من الطاقات الفكرية لنص تولد داخله نزاع بين تنظيم صوتى صارم جداً وبين المعنى. والحقيقة أن هذا النزاع لم يرد على ذهن أكثر القدماء، ولا سيما المبدعين منهم، فأصحاب المقامات كانوا شغوفين بالالتزام، ولو أنهم رأوا فيه قيداً على عملية الإبداع لطرحوه. وهذا أبو العلاء المعرى يقدم إشارات مهمة تعد رداً على مظنة تعويق الالتزام الصوتى لطاقات النص الفكرية، إذ يصف حال الذين لا يلتزمون ما لا يلتزم بأنهم "يتبعون الخاطر كأنه هادى الركبان أينما سلك فهم له تابعون"،^(٢) وهو يرى أن النجاح ليس أقرب لهؤلاء بالضرورة من سواهم الذين يلتزمون ما لا يلتزم، وهذا معناه أن القيود الإضافية التى تفرض على النص من خلال تعاملات صياغية كالالتزام، لا تنتقص دائماً من طاقته على التعبير، بل على العكس إن الجرعة الإعلامية فيه قد

(١) انظر، المصباح فى علم المعانى والبيان والبدیع، بدر الدين ابن مالك، المطبعة الخيرية، ١٣٤١هـ، ص ٥٦.

(٢) مقدمة اللزوميات، المعرى، كامل الكيلانى، ط٢، مصر، ١٩٢٤، ص ٢٠.

لا ينهض بها نص آخر خال تمامًا من مثل هذه التعاملات الصياغية.

وقد وضع ابن الأثير تصورًا للالتزام الناجح فاشتراط فيه عدم التكلّف. والمتكلّف - في نظره - "هو الذى يأتى بالفكرة والروية، وذلك أن ينضى خاطر فى طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلّف يأتى مستريحاً من ذلك كله، وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشاء خطبته أو كتابته، فبينما هو كذلك إذ سنج له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب".^(١) فى هذه المقولة يتضح المقياس الأساسى الذى انبنت عليه نظرية ابن الأثير فى تحديد الالتزام المتكلّف فقد اعتبر تبييت النية لاستخدام وسيلة تعبيرية ما والسعى فى طلبها علامة ثابتة على وقوع التكلّف، جاعلاً الإجادة - كما يفهم من خلال السطور - متعلقة بعفوية الحديث الأدبى، حيث يتفق للكاتب أن يعثر على التعبير الملائم باستخدام هذه الوسيلة أو تلك دون أن يبيت النية لاستخدامها. والناظر فى "المثل السائر" يستطيع أن يستشف منطلقات ابن الأثير فى صوغ مبادئه البلاغية، وأظهرها تأكيداً فكرة أن الخلق الفنى الجيد الذى يخلو من تكلّف هو "طبع" لا "صناعة"،^(٢) طبع مؤسس على إلهام طبيعى وخارق إلى حد أن من يمتلكه تأتبه المعانى سهلاً ورهواً، وتتثال عليه الألفاظ انثيالاً.^(٣) وحين يقع حديث عن انثيال الألفاظ ومجىء الالتزام الجيد بالاتفاق لا بالسعى والطلب، فلا مناص من طرح سؤال حول مدى اتفاق هذا القول مع مبدأ الاستخدام الأسلوبى الواعى الذى تؤكد النظريات الأسلوبية الحديثة. ضمن هذا المنظور، ستكون دراستنا للالتزام فى النص القرآنى لفحص كونه استخداماً خاصاً، وبيان مساهمته فى مبنى الكلام ومعناه.

ويتوجّه البحث فى مرحلة أولى إلى مستوى المبنى لتحديد أنماط الالتزام الموظفة فى النص القرآنى، ورصدها رصدًا كمياً يقيس كثافة كل نمط منها، ويكشف عما إذا كان النص يكرر أجراً محدداً ذات طبائع خاصة، ليعقب ذلك محاولة تفسير فعاليتها فيه، ومعرفة كيف يخلق دفقها المتأزر مع السجع حركته

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج ٢، ص ١٣.

المؤثرة لا فى الإيقاع فحسب وإنما فى المعنى أيضا. والدراسة إذ تنصب على السجع القرآنى فإن المعالجة الإحصائية تكون ملزمة بأن تدور فى نطاق الآيات المسجوعة لا غير،^(١) ولكى تبرز النتائج بشكل أفضل فقد حسبنا الأرقام والنسب التى تظهر لكل نمط فى عمود وحدها، وأعتقد أن الحاصل المجموع من أنماط الالتزام الأكثر استعمالا سيسمح باستخلاص استنتاجات أولى.

(١) فالالتزام منتشر فى النص القرآنى بكافة صورته: المسجوع منه، وغير المسجوع.

الانترام وأنماطه في السجع القرآني^(١)

[illegible]

يقدم هذا الاستقراء الإحصائي مستخلصاً لافتاً، يمكن توضيحه في عدة نقاط:

النقطة الأولى: أن مؤازرة الالتزام للسجع القرآني تبرز بوصفها بنية؛ ذلك أن الآيات المسجوعة التي تخلت عن الالتزام واعتدت بالجرس فحسب لا تتجاوز نسبتها ٨,٧٤%، بينما بلغت نسبة الالتزام في السجع القرآني ٩١,٢٦%.

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الالتزام يعد من الوسائل الإيقاعية المحفوظة، إذ كان تمثله في نصوص أدبية سابقاً على نزول القرآن الكريم بكثير، ولا ينبغي أن يوقع هذا في وهم أن النص القرآني ليس له في الفواصل جديد؛ ذلك أن الجودة التي يحققها تتمثل بالدرجة الأولى - في إبداع التوظيف لهذه الوسائل اللغوية الجمالية التقليدية. وهذا ما تحاول الدراسة إثباته من خلال النظر في سورة "الرحمن" بوصفها نموذجاً لبقية السور.

يبدو من النظر المتأمل في هذه السورة أن التزام جرس صوتي موحد في ختام آياتها لم يكن مطلوباً لذاته، لقد ورد الروي في أغلب آيات السورة رادفاً لألف المبد، ومن البدهي أن هذا الالتزام الحرفي يتصف بكونه آلياً؛ ذلك أن طبيعة الكلمات الفواصل وتركيبها الصوتي هي التي فرضت تشكلاً للالتزام على هذه الهيئة، ولكن التمعن العميق في السورة يكشف عن سمة خفية تثير الحكم بأن لهذا الالتزام دخلاً كبيراً في الإعجاز الصوتي للقرآن، فهو يحوى جوهر السورة، بمعنى أنه ليس مطلوباً لذاته وإنما تطالبته الدلالة واستدعاه البناء.^(١) يقول

(١) وكما أن الالتزام من متطلبات الدلالة فإن العدول عنه كذلك من متطلباتها، فقد أثر النص في سورة الرحمن تحقيق الهمزة في كلمة (شأن) في قوله تعالى (يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن) -آية ٢٩- والهمزة في كلمة (شأن) وظيفية، إذ تقوم بزيادة شدة الضوضاء في الصوت، يصاحبها ضغط على المقطع، أما عن التعديل الذي تدخله على الكلمة فهو تحويلها من مقطع من النوع الرابع (ص ح ح ص) إلى آخر من النوع الخامس (ص ح ص ص) النبر فيه نبر

الشيخ سيد قطب في استهلال تفسيره لسورة الرحمن: "هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ، إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الرحمن الباهرة... ورنّة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله، وفي إيقاع فواصلها... تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت، إلى بعيد... الرحمن... وهذا المطلق المقصود بلفظه ومعناه وإيقاعه وموسيقاه يخاطب كل الوجود، ويبلغ كل سمع وكل قلب".^(١) إن جمال الإيقاع الموسيقي المؤثر المنبعث من المدود يقف مسانداً لدلالة السورة، ويأتى مجانساً للفكرة، والإحساس الممتزج بها وبهذا تظهر عظمة المباني القرآنية في تصويرها وتعبيرها عن المراد. ألا يحق لنا إذن أن نعتبر الالتزام من أهم الخصائص الأسلوبية للنص القرآني برغم كونه بنية بلاغية مألوفة، إن قيمته الحقيقية في النص راجعة إلى الإبداع في توظيفه.

النقطة الثانية: يبدو أن هناك حرصاً واضحاً على ضمان قيم صوتية تتكرر بعينها. فمن الملاحظ أن نسقاً يتكون من حرف مد أو لين سابق مباشرة لروى السجع هو الذى يشيع تكراره في النص، ذلك أنه يتردد ٤٠٣٠ مرة، بحيث يمكن القول إنه هو النسق الأساسى فى تكوين نظام الالتزام فى النص القرآنى، فعدد مرات وروده أكثر من عدد مرات ورود أى نسق آخر. وهنا لابد من البحث عن الأسباب التى أدت إلى اختيار هذا النسق بالذات وتوزيعه بهذه الكثافة. لقد أحسّ سيبيويه بقيمة المد واللين فى الترتم، وبما أن الفاصلة هى قمة الإيقاع وخاتمته فإن للترتم فى هذا الموضع قيمة كبيرة "ويساعدنا علم اللغة الحديث على أن ندرك أن فى هذا الترتم أيضاً نوعاً من التثخيم، الذى تتجمع نغماته طوال

"توتر" لا نبر "طول" حيث إن النطق بالصائت فى كلمة (شان) -بالتسهيل- لا يعنى فى الحقيقة سوى استمرار الانطلاق فى مجرى الصوت، حتى يتم أداء الحركتين، فالقياس فى حالة تسهيل الهمزة يكون على أساس الكم الزمنى، لا على أساس الكيف الأدائى.

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٢١، ١٩٩٣، ج ٢٧، ص ٣٤٤٥.

الكلام للتجسد واضحة في نهايته“^(١) حيث تنتهي الجملة النحوية. ومجىء الروى رادفاً للين يقيم عملية توافق بين عنصرين مهمين في نهايات الأسطر. هذان العنصران هما انتهاء واكتمال الجملة من ناحية، والمقطع زائد الطول المنبور ٤ (ص ح ص) من ناحية أخرى، ذلك المقطع الذى يتولد عن وجود حركة طويلة بين ساكنين تسهم فى خلق محطات نغمية تجعلنا نتوقف عند نهايات العبارات السجعية وقفة طبيعية تعطى كمال الإيقاع وراحة النفس والتزام السنة فى القراءة.

التوازنات الصوتية فى النسيج الداخلى للآية وعلاقتها بالسجع:

وفى إطار المتابعة الصوتية يلاحظ أن النص القرآنى يضمن لنسيجه الداخلى كثافة إيقاعية موازية لتلك الإيقاعية التى يوفرها السجع لإطاره الخارجى. فهو يتوخى التوزيع الصوتى الموقع بحيث تصير السجعة تتويجا لتنظيم صوتى يحدث فى ثنايا الآيات متولدة عنه مجموعة من التوازنات تدخل فى علاقة صوتية مع سجعة نهاية الآية. وتتنوع طبيعة هذه العلاقة فقد تكون قائمة على التماثل الصوتى بين روى السجع وبعض الحروف المتكررة داخل الآية وقد تكون مؤسسة على التباعد أو التقارب الصوتى بين الروى فى نهاية الآية وصوت آخر مغاير له يتكرر فى الداخل، ودراسة علاقة الإطار بالداخل هى جزء من متابعة فعل النص فى إحداث إيقاع صوتى صاعد.

[١] السجع الداخلى والسجع الختامى:

وأولى صور التوازنات التى تكشفت من خلال مراقبة البنية السطحية فى النص القرآنى، هى تمثّل عنصر التناسق والتماثل السجعى فى متن الآيات حيث ينشأ "سجع داخلى" يكون منوطاً بنهايات الجمل النحوية داخل الآية كما أن السجع الختامى منوط بنهايات الفواصل التى

(١) العروض وإيقاع الشعر العربى: محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحر اوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٨٨.

تُمثِّل -غالبا- (١) السكّة الطبيعية فى الأداء اللغوى.

ويدلّل "ديفين ستیوارت" على وجود سجع داخلى فى القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (٢) ففى الآية الأولى تتحرك الصياغة تعبيريا فى جملتين تتماثلان من زاوية أن كل جملة منهما تبدأ انطلاقها الدالالى من نفي الفعل الوارد فيها عن ذات الخالق عز وجل، كما يتم التماثل على مستوى آخر يتجلى فى انتهاء الجملتين بالنهاية الصوتية نفسها التى تربط الجملة الأولى صوتيا بالجملة التالية لها عن طريق السجع.

وينتقد "ستيوارت" إحصاء السجع القرآنى الذى لا يضع فى الحسبان تلك السجعات الداخلية، حيث يقول: "وإذا كان مثل هذا [يقصد ظهور السجع الداخلى] لا يحدث غالبا فى القرآن فإنه يكشف لنا عن أن حساب عدد السجعات فى القرآن على أساس عدد الآيات لن يكون دقيقا". (٣) ومع وجاهة هذا الرأى فإن الدراسة لا تتفق معه، فالبلّاغيون كانوا أكثر حذقا حينما فرقوا بين مظهرى السجع الإطارى منها والداخلى، فرصدوا عدة أشكال للسجع الداخلى سواء فى حالة تماثله مع السجعة الختامية أو مغاييرته لرويتها، فاصلين إياه عن السجع الموجود فى ختام الآيات، مختصين كل شكل من أشكاله بمصطلح يعد رمزا لفن بديعى مستقل بذاته.

وقد بلغ استخدام القرآن الكريم لهذا النوع من أنواع التوازنات الداخلية أربعا وخمسين مرة، بنسبة ١,١٢% من مجموع الآيات المسجوعة، وهى نسبة محدودة وترجع محدوديتها إلى أن السجع مشروط باستدعاء المعنى له فى المقام الأول. وفيما يلى نرصد تنوعات العلاقة بين السجعة الختامية والسجعات الداخلية، إذ تتبدى فى أكثر من نمط:

(١) أقول غالبا؛ لأنه لا وجود لقاعدة تفرض التزام الوقفة الدالالية فى نهاية الآية، ويؤكد ذلك الآيات المسجوعة القائمة على التضمين.

(٢) الإخلاص: ٣-٤.

(٣) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستیوارت، ص ٢٥.

أولاً: مجيء بعض أجزاء الآية أو كلها على سجع يماثل سجعة نهاية الآية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١) السياق في هذه الآية يشابه بين مكوناته، فيعتمد إلى التسجيع الداخلي بصوت ينهى جملة النحوية بإيقاعها عند لحظة معينة فإرضاً مساحة صمت قصيرة تحدد بداية الجملة النحوية التالية. ويبدو أن تماثل السجعة الختامية مع السجعة الداخلية عملية تصدر عن قصد، فقد أتت التركيبة اللغوية على نحو هيا لحرف (النون) أن يستقر في نهاية الآية، وذلك عن طريق عملية تحريك أفقى للصياغة بالتقديم والتأخير.

وربما امتد السجع الداخلي ليشمل أجزاء الآية جميعها، ونرصد ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ قَالَ فِيهَا اتَّخِذُوا وَفِيهَا تَمُوتُونَ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢) وحركة الفكرة هنا مضمّنة في معمار صوتي مركب تركيباً مطرداً.

ثانياً: وقد تكون بعض أجزاء الآية أو كلها منتهية بسجع يخالف السجعة الختامية، يقول الخالق عز وجل: ﴿لَوْ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ (٣)

وأحياناً يجتمع في آية واحدة نوعان من السجع الداخلي، أحدهما: يتمثل مع سجع فاصلة الآية، والآخر يتخالف معه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ ارْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (٤)

أمّا عن حركة الإيقاع السجعي وعلاقتها بحركة المعنى فقد رصد البحث لها الصور الآتية:

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٨٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٩٥.

الصورة الأولى: وفيها يكون كل تعبير سجعى داخلى مستقلاً بمعناه، وكذلك التعبير السجعى الختامى، وتكون اللفظة التى أحدثت التسجيع كما لو كانت قفلاً للمعنى. ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾^(١). تنقسم الآية القرآنية إلى ثلاثة أجزاء، الأول والثانى منها مسجوعان بسجع مخالف لسجع الفاصلة. فهل للتسجيع الداخلى أدوار وظيفية تتضاف إلى دوره الإيقاعى؟ يقدم استقراء النماذج المرصودة دليلاً على أن التسجيع ينبئ داخل الآية الواحدة بطريقة خاصة، فهو أعظم تنسيقاً ومنطقيةً مما قد يكون عليه خارج النص القرآنى المعجز. ففى المثال السابق يلاحظ أن تشابه البنيات الصوتية فى الجزئين الأولين يتجاوب معه تشابه تركيبى من خلال استعمال تراكيب نحوية واحدة، حيث تنظم كل كلمة مسجوعة مع كلمة أخرى تكون لازمة لها للتعبير عن فكرة تنتهى دلالياً بانتهاء السجعة، ثم تبدأ فكرة أخرى مستقلة أيضاً، والارتباط قائم بين التماثل الصوتى والتماثل التركيبى النحوى، بحيث إذا تغيّر التركيب النحوى تغير الحرف الأخير من الكلام، ولعل هذا يفسّر لنا مخالفة السجع الداخلى للسجعة الختامية من الآية، فبينما تقع كل من الصلاة والزكاة موقع المفعولية النحوى من أفعال الأمر (أقيموا - آتوا)، نجد الجملة الأخيرة تنتهى بالجار والمجرور؛ وهكذا يوفر النص لنفسه قانونه الخاص. وفى القرآن آيات أخر تعد دليلاً على رؤية البحث، منها قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٢). هنا أيضاً يربط السجع الداخلى بين تراكيب

(١) سورة البقرة: آية ٤٣.

(٢) سورة لقمان: آية ١٩.

سجعية تنتمي إلى قطاعات نحوية متماثلة، والملاحظ أن التقابل الصوتي بين حرف الكاف ممثلاً السجعات الداخلية وحرف الراء ممثلاً سجع فاصلة الآية قد أتى مصاحباً للتقابل التركيبي النحوي بين الجمل السجعية.

الصورة الثانية: وفيها يكون ثمة علاقة بين التراكيب السجعية الداخلية، ثم يأتي التعبير السجعي الختامي مستقلاً وحده بتركيب نحوي مختلف، ونرصد ذلك في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (١) قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ مكتمل من ناحية التركيب بيد أنه يدخل في ارتباط جديد مع الجملة التوضيحية المكتملة تركيبياً أيضاً التالية له، والسجع فيها يقوم بغلق مؤقت للدلالة قبله إلى أن يشترك التعبير السجعي الثاني مع تعبير سجعي ثالث في مركب بالعطف، فيه يتعلق التعبيران بفعل رئيسي هو "خلق" الموجود في فاصلة السجعة الثانية. ولعل ارتباط التراكيب السجعية الداخلية الثلاث بعضها ببعض الآخر هو الذي استدعى التماثل السجعي ممثلاً في تكرار صوت "الميم" في نهاية التركيب.

وعلى هامش الحديث عن السجعات الداخلية يلاحظ أن النص يقوم في مرسَل القرآن بعملية تعويض للإيقاع الغائب، فيؤسس قيمه الإيقاعية من خلال مجموعة من التلوينات الصوتية الداخلية، نرصد منها ما يحدث في متن الآيات من سجع داخلي، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (٢)

ونقدم مثالا آخر للسجع الداخلي الحادث في آيات غير مسجوعة في الأصل. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

(١) سورة البقرة: آية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٦.

الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(١) فالملاحظ أن الآية الأولى تسجع داخليا مع الآية التالية لها.

(٢) اتفاق الكلمتين الختاميتين في الحرف الأخير:

وفي إطار رصد التوازنات الصوتية الناتجة عن علاقة المفردات داخل الآية بالسجعة الختامية -تكشف للبحث خاصية إيقاعية جديدة قائمة على مبدأ التكرار الفونيمي أيضا. فمن الملاحظ أن العلاقة التجاورية بين الدالين الواقعين في ختام الآية القرآنية أتت مدعومة حرفيا، وذلك من خلال وقوع الاستخدام الإفرادي على دوال يجمع بينها التماثل الصوتي؛ على معنى أن فونيميا أو أكثر من آخر الفاصلة يتكرر بعينه في آخر الكلمة السابقة عليها، وهذا ما يمنح علاقة التجاور بين الدالين بعدا صوتيا لافتا، وقد بلغ حضور هذا النمط في الآيات المسجوعة ستا وثمانين مرة ترتفع إلى مائة وأربع وثلاثين مرة إذا أضفنا ما وظف منه في المرسل من القرآن.

ومن أمثلة هذا النمط في القرآن الكريم قوله تعالى في معرض حديثه عن حالة المرء وقت الاحتضار: ﴿لَوَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾^(٢) لكن التكرار المحض ليس العلاقة المعجمية الوحيدة التي تربط الكلمتين الختاميتين المتماثلتين في الحرف الأخير، فمن اللافت أن هناك مجموعة من العلاقات تتردد بعينها على مدار الشواهد المرصودة. ففي قوله تعالى: ﴿لَوْ مَن يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾^(٣). بين (ظلمًا، وهضمًا) درجة ثانية من التكرار قائمة على شبه الترادف، أو تكرار المعنى دون اللفظ. وقد وقف ابن الأثير عند أمثال هذه الشواهد محاولا إثبات ما بين طرفي التكرار من فارق في المعنى رغم وحدته بينهما، مؤكدا على أن لهذا التكرار وظيفة إضافية

(١) آل عمران: ٥ - ٦.

(٢) القيامة: ٢٩.

(٣) طه: ١١٢.

إخبارية جديدة. (١)

وقد يجمع الاشتقاق بين اللفظتين المتماثلتين في نهاية الآية، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ (٢). فإن الأصوات الأخيرة للفاصلة (السين والياء والالف) الناتجة عن التثوين) تتكرر مرتين في نهاية الآية، ويرجع ذلك إلى تجاوز المشتقات "نسياً - منسياً".

وفي قوله تعالى: ﴿لَيَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَالِحِيَّتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (٣) تتدرج الكلمات: أمه، أبيه، صاحبته، بنيه تحت اسم يشملها. فهي نمط ثالث من التكرار، حيث تمثل -كما يحب "جون لاينز" أن يسميها- (٤) متوالصلات لتعبير "أقرب الأقربين. والملاحظ أن النص قصد أن يجمع الكلمات التي تربط بينها "المصاحبة المعجمية" (٥) في آية واحدة.

وللمصاحبة المعجمية ظهور واضح في غالبية الشواهد المرصودة، ففي قوله تعالى: ﴿لَمْ عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ (٦)، يوجد بين قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ علاقة تضاد معجمي. وفي قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٧)، فقد أخبر النص عن الله سبحانه وتعالى "بالعلم" وأعقب ذلك بخبر جديد نظير ومتناسب للأول،

(١) يدل على الأثير برأيه في هذا الموضوع، فيقول إن من التكرار ما يدل على معنيين مختلفين، وهو موضع من التكرار مشكل لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد" المثل السائر، ابن الأثير، ج-٢، ص ١٦٠.

(٢) مريم: ٢٣.

(٣) عبس: ٣٤ - ٣٦.

(٤) انظر: علم الدلالة، جون لوينز، ت مجيد الماشطة وآخرين، كلية الآداب، البصرة، ١٩٨٠، ص ٨٥ - ٨٦.

(٥) يعرف أولمان المصاحبة المعجمية بأنها "الارتباط الاعتيادي لكلمة في لغة بكلمات أخرى معينة" نقلا عن علم الدلالة: أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ص ٧٤.

(٦) الانفطار: ٥.

(٧) يوسف: ٨٣.

وهو "الحكمة".

ثانياً: الرُّخص^(١) الصوتية في السجع القرآني:

يشتمل النص القرآني على ترخصات لغوية تتجلى على المستويات: الحرفي، والإفرادي، والتركيبى، وتظهر بشكل مكثف في منطقة الفاصلة تحديداً، يطرح ذلك سؤالاً يمكن صياغته على النحو الآتى: هل الترخص اللغوى كان فقط سبيلاً إلى توازن إيقاعى سعت إلى تحقيقه لغة تعتمد على المشافهة والتلاوة وتؤثر الجرس؟

انطلاقاً من هذا نشأ جدل بين فريقين؛ الفريق الأول: يشمل عدداً كبيراً من البلاغيين والمفسرين الذين رأوا أن مخالفة بعض فواصل الآيات لنظام اللغة العربية وخروجها صوتياً أو صرفياً أو نحوياً أو دلالياً -عن التقاليد النمطية لهذا النظام، يرجع بالدرجة الأولى إلى مراعاة تناسب الفواصل. وقد كانت المحافظة على المشاكلة الإيقاعية بين "رعوس الآيات" "الوجه الذى اكتفى "الفراء" (ت ٢٠٧هـ) بترديده فى أكثر من موطن من كتابه المعروف "معانى القرآن" تفسيراً للفاصلة تارة، وتبريراً لخروجها عن الأصل تارة ثانية، وترجيحاً لقراءتها على وجه من وجوه القراءات دون آخر تارة ثالثة.^(٢)

ويعتبر ابن الصائغ الحنفى من أهم القائلين بمراعاة الفاصلة وقصد النص إليها، إذ جمع فى كتابه "إحكام الرأى فى أحكام الآى" نحواً من

(١) عبرت البلاغة القديمة "بالعدول" عما يسميه "بالرخص"، وعبر عنها الأسلوبيون المحدثون بالانحراف، غير أن اختيار البلاغيين القدماء لتعبير "العدول" أدق من لفظة الانحراف التى تشمل إحياءات إضافية لا تتناسب مع طبيعة اللغة الشعرية، ولعل أهم هذه الإحياءات هو إحياء "الخطأ"، هو أمر غير وارد فى تعبير العدول، أمّا بالنسبة لاختيار البحث للفظ "رخصة" فإنه راجع إلى ما تحمله هذه اللفظة من معنى ضمنى يحتم وجود سبب أو آخر وراء الخروج عن القاعدة الأصلية فى النظام اللغوى.

(٢) انظر: نظرات فى تراثنا البلاغى، حسن طبل، دار الزهراء، ١٩٩٣، ص ٨٤. انظر: معانى القرآن، الفراء، ج ٢، ص ١٧٦، ١٨٧. ج ٣، ص ١١٨، ص ٢٣١، ٢٣٢، ص ٢٥٦، ص ٣٦٨.

أربعين ظاهرة من الظواهر التعبيرية، وردت في أواخر آي القرآن، وتعد لوناً من ألوان المخالفة والعدول عن نظام اللغة العربية، وقد ركز على إبراز الدور الإيقاعي لتلك الرخص، والتناسب الصوتي الناتج عنها دون أن يقف إزاء آية من الآيات التي استشهد بها، وعددها سبع وستون كي يبين في فاصلتها وجهاً آخر سوى مراعاة المناسبة،^(١) واكتفى بالإشارة إلى إمكان اضطلاع تلك الرخص بأدوار أخرى فضلاً عن المناسبة؛ إذ يقول: "لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تقتضي عجائبه".^(٢)

وذلك الاتجاه الذي جعل الترخص في الفواصل للحفاظ على الإيقاع، قد لقي ذيوعاً في التراث، واهتم به نقاد معاصرون، رددوا في دراستهم للفاصلة القرآنية مقولات الفراء وابن الصايغ وغيرهم. أما الفريق الثاني فإنه يعترض على مذهب من قالوا بمراعاة الفاصلة، ومن هؤلاء "ابن قتيبة" الذي راح يزدري مذهب الفراء في القول بالترخص لتناسب الفواصل، حيث يقول: "وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسف، ونجيز على الله -جل ثناؤه- الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية"^(٣). فثمة نكته موجبة للتخصيص حاول "ابن قتيبة" أن يتابعها جاعلاً منطقة التساؤل الآتي: كيف يمكن أن تمت هذه الرخص إلى المعنى نفسه بصلة؟ "فالتناسب الشكلي بين الفواصل ليس إحدى الغايات التي تقصد لذاتها في البيان القرآني"^(٤) يقف دليلاً على ذلك وجود مواضع خالف النص فيها المناسبة الإيقاعية بين الفواصل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿... وَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ

(١) أحكام ابن الصائغ قد تختصر إلى نصف ما أحصاه، ذلك أن تعامله مع وجه إعرابي واحد، ألقى بكثير من الشواهد في حيز الترخص.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٣) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، ت: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥، ص ٤٤٠.

(٤) نظرات في تراثنا البلاغي، حسن طبل، ص ١١٦.

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهَ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ جاءت لفظة "السبيل" في الآية مجردة من حرف المد في آخرها، مع أن هذا الحرف لو زيد فيها لتناسب هذه الفاصلة -إيقاعيًا- مع بقية فواصل السورة التي اختتمت إما بألف الإطلاق وإما بألف المد، ويلاحظ في النص القرآني -كذلك- الغياب المفاجئ للسجع كخاصية خالقة للتوازن الإيقاعي، والعدول عنه إلى الترسل باستخدام فاصلة تنفرد بإيقاع صوتي مغاير لمجموع الفواصل المسجوعة السابقة عليها أو التالية لها، وأظهر مواضع حضورها في فواتح السور وخواتيمها، وقد تبدى ذلك في سبع وثلاثين سورة -حسب الإحصاء.

الفواصل المنفردة في فواتح السور	الفواصل المنفردة في خواتيم السور
الآية الأولى من سورة: (البقرة)، (الأعراف)، (يونس)، (مريم)، (طه)، (الحج)، (الشعراء)، (القصص)، (العنكبوت)، (السجدة)، (الصافات)، (الشورى)، (الزخرف)، (الدخان)، (الذاريات)، (الحشر)، (الصف)، (نوح)، (الجن)، (المزمل)، (البروج).	الآية الأخيرة من سورة: (المائدة)، (الأنعام)، (مريم)، (سبا)، (فصلت)، (الشورى)، (الجاثية)، (النجم)، (الرحمن)، (الحاقة)، (المزمل)، (الانفطار)، (الضحى)، (العلق)، (البينة)، (المسد).
٢١ سورة	١٦ سورة

ينجح النص عبر تلك الفواصل المنفردة في كسر توقع القارئ بما يثير انتباهه ويخلق في نفسه تساؤلا حول الأسباب التي من أجلها كان العدول من السجع إلى الترسل. إن العدول يخدم المعنى، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٢)، استخدم النص فعل "حدّث" من بين مجموعة من الألفاظ لها طوعية الاستبدال فيما بينها، وكان يمكنه اختيار أحد المترادفات المحققة كتناسب الفواصل، لو كان هذا هدفا ومطلبا أساسيا فيه. ويبدو أن عدول النص عن السجع إلى الترسل يخدم المعنى، إذ تتضمن لفظة "حدّث" إحياءات إضافية لا نجدها

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) الضحى الآية ١١.

فى بدائلها، فهى تشمل معنى إشاعة النعمة وشكرها، كما أنها تستحضر الذات بوصفها طرفاً يمكن أن يوجه إليه الحديث فى دىالوج داخلى دائم التسجيل لنعم الله وتذكرها، وهو ما لا تؤديه كلمة "خبر" مثلاً التى تعنى أن الخطاب موجهاً إلى آخر مختلف.

والواقع أن عددًا من صور الترخص المرصودة فى القرآن استند فى تسجيلها ضمن الرخص على وجه إعرابى واحد دون إشارة أو موازنة أو ترجيح بين ذلك الوجه الإعرابى الذى يأتى تأكيداً لمبدأ الخرق اللغوى للمعايير والأصول، وبين الوجوه الإعرابية الأخرى التى ذكرها النحاة أو المفسرون فى تخريج هذه الشواهد، مع أن تلك الوجوه الإعرابية المهملة قد تكون أكثر ملائمة لمعنى الشاهد وسياقه. ولنتأمل تلك الآيات التى جعلها "ابن الصائغ" مثلاً على الترخص بإبقاء حرف المد الجازم؛ مراعاة للفاصلة. وهو يمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاذْهَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۖ﴾^(١) وقوله تبارك اسمه: ﴿لَا سَنَقْرُوكَ فَلَا تَتَسَوَّىٰ ۖ﴾^(٢) ويستند "ابن الصائغ" على وجه إعرابى ضعيف، ذاهباً إلى أن "لا" فى فواصل الآيتين "ناهية"، بيد أن ذلك التخريج لا يوائم الغرض الذى سيقى من أجله الآية الكريمة. ولقد حاول "الزمخشري" أن ينجو من الوقوع فى شباك الوجه الإعرابى الواحد، وبخاصة مع هذه الظواهر التى تثير الإشكاليات، ولكنه قدّم جملة من الاقتراحات ضارباً الصّح عن الموازنة بينها أو ترجيح أحدها، وقد أقام تخريجه لقوله تعالى ﴿وَلَا تَخْشَىٰ ۖ﴾ على قراءة أخرى للمعطوف عليه؛ هى "لا تخف"؛ على أنه جواب للأمر السابق "قاضرب لهم طريقاً". ولكن الإشكالية لها حضورها بغير هذه القراءة، خاصة أن المثبت فى المصحف هى القراءة بالمد ﴿وَلَا تَخَافُ ۖ﴾، ويقدم الزمخشري ثلاثة اقتراحات دائرة حول كون الألف فى "تخشى" أصلية أو غير أصلية:

- الاقتراح الأول: أن يكون الكلام قد جاء على الاستئناف، كأنه قيل،

(١) طه: ٧٧.

(٢) الأعلى: ٦.

وأنت لا تخشى، أى ومن شأنك أنك آمن لا تخشى.

- الاقتراح الثانى: أن ألف الفعل قد حذفت، وتكون الألف الواردة فى "تخشى" ليست أصلية بل زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾^(١).

- الاقتراح الثالث: أن تكون الألف هنا مثل قول الشاعر:
كَأَن لَّمْ تَرَى قَبْلِي أُسِيرًا يَمَانِيَا.^(٢)

هكذا يتأرجح الزمخشري بين اعتبار (لا) نافية وبين اعتبارها ناهية، دون أن يصدر رأياً قاطعاً فى ذلك. ولكن "مكى بن أبى طالب" صاحب (مشكل إعراب القرآن) يدلى برأى مؤسس على إدراك واع للغرض الذى سيقى من أجله الآيات المذكورة من سورتي "طه" و"الأعلى"، مشيراً إلى أن القراءة الصحيحة هى رفع "تخشى" عطفاً على "تخاف"، وهو يعترض على أن تكون "لا تخشى" فى موضع جزم، وأن يكون ثبوت الألف فيها قياساً على ثبوت الياء والواو على تقدير حذف الحركة منها لأن الألف لا تتحرك أبداً إلا بتغيرها إلى غيرها، والواو والياء يتحركان ولا يتغيران.^(٣) ووضع السياق فى الاعتبار يؤكد أن الألف هنا أصلية والصيغة صيغة نفى، تشير إلى أن الخالق هو المتكفل بحفظ آياته فى قلب نبيه الكريم. ينفى مكي بن أبى طالب -كذلك- أن تكون (لا) فى قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ناهية، يقول: "(لا) بمعنى ليس وهو خبر وليس بنهى إذ لا يجوز أن ينهى الإنسان عن النسيان لأنه ليس باختياره".^(٤)

ويكشف الرصد الإحصائى للرخص الصوتية التى حققت لفواصل القرآن المسجوعة انسجاماً موسيقياً وتلاوفاً مغنوياً -عن نحو تسع وستين ظاهرة تعبيرية، تمثل كل ظاهرة منها لونا من ألوان المخالفة لنظام اللغة العربية والخروج صوتياً- عن القواعد المحفوظة لهذا النظام، وذلك من خلال عمليات لسانية كحذف صوت أو زيادة صوت

(١) الأحزاب: ٦٧.

(٢) انظر: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري، ج-٢، ص ٤٤٢.

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبى طالب، ج-٢، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٤) المصدر نفسه، ج-٢، ص ٨١٣.

فى آخر دال الفاصلة، وبدا خلال الإحصاء أن عملية الحذف لها حضور مكثف فى الرخص الصوتية إذ تبلغ نسبتها ٨٧% من مجموع الرخص الصوتية المرصودة.

ومن أمثلة الحذف الصوتى، حذف ياء الاسم المنقوص فى قوله تعالى: ﴿لَعَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(١) فقد حذفت الياء من (المتعال)، ومنه كذلك حذف الياء فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾^(٢). ومن الزيادة، إثبات هاء السكت فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ: هَؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَةَ﴾^(٣)، ومن الزيادة أيضا، إلحاق حرف المد بعد روى السجع فى قوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾^(٤)

تحرك الدراسة حتى الآن يركّز على منطقة النثر السجعى راصداً التوازنات والرخص الصوتية فى تلك المنطقة وعلاقة السجع بالنسيج الداخلى للآية وما يصدر عن ذلك من توازنات صوتية إضافية تسهم فى إحداث إيقاع صوتى صاعد. غير أن السجع واحد منبنى البلاغية التى قد تحضر على امتداد النص، ولهذا تولدت نظرة لدى كثير من النقاد - قديما وحديثا - تعامل السجع على أنه نوع أدبى مستقل بذاته. ولا حرج فى تصوّر - على هذه النظرة ما دام السجع بوصفه أداة تعبيرية تستقر فى ختام الكلام، يتمتع بخصوصية تميّزه، إذ يقوم بتحويل الكلام من النثرية الخالصة ليصير نثرا مسجوعا يمكن أن يحل لاكتشاف إذا كانت له سمات شكلية أم لا، وهذا ما تحاول الدراسة فيما يلى استجلاءه من خلال تحليل يتحرك على مستوى البناء الشكلى للآيات التى وردت مسجوعة، متعقبا التراكم السجعية طولا وقصرا.

(١) الرعد: ٩.

(٢) الفجر: ٤.

(٣) الحاقة: ١٩-٢٠.

(٤) الأحزاب: ٦٧.

[٣] البناء الشكلي

الآن تجتهد الدراسة في تعقب القواعد الشكلية التي تحكم السجع القرآني. ويبادرنا هنا رأي لديفين. ستيورات الذي كتب يقول: "برغم أن السجع لا يخضع للعروض الكمي فإنه يخضع لعروض من نوع ما".^(١) سعى ستيورات إلى استخلاص قواعده من المؤلفات النقدية القديمة. وقام بتطبيق القواعد المستقاة منها على القرآن في محاولة لتحليل بناء السجع القرآني.

ولم يكن "ستيورات" الوحيد في إيمانه بإمكان اكتشاف قواعد عروضية في السجع العربي، فهناك بعض الباحثين الذين آمنوا بالفكرة نفسها، وقاموا في مؤلفاتهم بتدوين بعض الملاحظات المتعلقة بتحليل العروضي للسجع، من أمثال "بلاشير" في كتابه "تاريخ الأدب العربي"، و"بيير كرابون دي كابرونا" في كتابه "القرآن: ينابيع الوحي الإلهي: البنية الإيقاعية في السور المكية"، و"حاييم شينين" في كتابه "دراسة عروضية للسجع في المقامات القديمة"، ومحمود المسعدى في كتابه "الإيقاع في السجع العربي محاولة تحليل وتحديد"، ومحمد الهادي الطرابلسي في مقال له بعنوان: "مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقيسطي". ولكن ما الذي حدا بهؤلاء الدارسين إلى بحث عروض السجع العربي فاعتمدوا تارة على النص وأخرى على ما خلفته البلاغة القديمة من إشارات تتصل بالقواعد العروضية للسجع؟

[١] الخصائص الأسلوبية لطول السجعة في النص القرآني:

إن البحث يبدأ، كما بدأ ابن الأثير، بقياس طول العبارة المسجوعة، حاملاً معه ما استخلصه جهد هؤلاء الدارسين المحدثين، وفي المقدمة محمود المسعدى الذي خاض محاولة استكناه إيقاع السجع العربي، وسعى لضبط أحكامه بالمقارنة مع أحكام النظم الشعري التي حللها الخليل. وكانت دراسة الإيقاع العددي على رأس الأمور التي اهتم بها الباحث، فاتخذ من المقطع - وهو أبسط وحدة نطقية -

(١) السجع في القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستيورات، ص ١٤.

أساسًا لحساب عدد العناصر المكونة للعبارة المسجوعة.^(١) والمسعدى بذلك يخالف النظرة القديمة التي تصف طول السجعة على أساس عدد الألفاظ، وتعتقد الباحثة أنه كان على حق في تلك المخالفة، ويمكن إرجاع ذلك للأسباب الآتية:

١- أن البنية الخطية للفظ لا تكون ثابتة الطول، وإنما يتراوح مداها في العربية بين حرف وثمانية أو تسعة أحرف، ومن ثم قد تتساوى فقرتان في عدد الألفاظ دون أن يصحب ذلك تساوى المدى الزمنى الذى تستغرقه كل منهما فى النطق.

٢- إن بعض مفردات اللغة تكتب على هيئة كلمات منفصلة وهى فى الحقيقة ليست كذلك، لأنها لا تستقل بنبر خاص^(٢) "فالكلمات المكونة من مقطع واحد متحرك مثل: و، ف، ل، إلى آخره. لا تتلقى ارتكازًا حال وجودها منفردة، وهى أيضا ليست قائمة بذاتها وإنما تكون مرتبطة دائما بغيرها من الكلمات. وحالما تكون مرتبطة بكلمة أخرى يجب أن تعتبر جزءاً أساسياً منها".^(٣) ومن الكلمات التى لا تستقل بنبرها حرف الجر "فى" إذا كان متبوعاً بهمزة وصل فإنه لا يعد لفظاً، إذ لا ينفصل عما يعقبه. وينطبق ذلك أيضاً على اللواحق؛ لأنها لا تقوم بنفسها وإنما ترتبط دائماً بالألفاظ. والخلاصة، أن اللفظ لا يعد معياراً معقولاً

(١) إن الأساس الذى اعتمدته المسعدى فى دراسة طول السجعة، هو نفسه الذى يعتمدونه الباحثون سابقو الذكر فيما عدا شينين الذى يتسق عمله بشكل ملحوظ مع نظام ابن الأثير. فقد قام شينين بتحليل عروضى مفصل لعدد من مقامات الحريري والهمداني انطلاقاً من اقتناع بأن السجع يقوم على نظام عروضى أساسه الألفاظ.

(٢) أعنى بالنبر هنا الارتكاز الذى تحدث عنه م. ستانلاس جويار، ويقوم الارتكاز على مجهود عضلى لأعضاء النطق، موجه لزيادة شدة الصوت. وهذا المجهود ينصب على المقطع الصوتى بكامله، وميزة المقطع الذى عليه الارتكاز هى أنه يكون النطق به كله بقوة، والمقطع القوى يميل إلى إطالة الحركة التى يشتمل عليها، ونقيض ذلك كل مقطع ضعيف، فالظاهر أن الارتكاز هو الذى يقرر فى الكلمات نسبة الكمية بين حركاتها؛ إذ إن المقاطع الضعيفة وأقصيرة، نتيجة لضعفها، لا تبدو لنا كذلك إلا بالنسبة للمقطع القوى. انظر: نظرية جديدة فى العروض العربى، ستانلاس جويار، ص ٢٩-٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

لقياس المسافة، لكن المقطع هو الجدير بهذه الصفة؛ ذلك أن كل تلفظ بسيط يكون مقطوعاً.

وقد تشعبت الآراء حول مفهوم المقطع ووظيفته، فاختلف المفهوم تبعاً لزاوية النظر التي يتم تناوله منها، سواء أكانت نظرة سمعية، أم وظيفية. ويرفض بعض العلماء تقسيم اللفظ إلى أصوات؛ لأن الأصوات في رأيهم ليس لها وجود مستقل في الكلام، وهؤلاء يؤكدون أن المقطع هو أصغر وحدة صوتية.

واللافت أنه لا يوجد تعريف فونولوجي عام للمقطع؛ وذلك لأن كل لغة لها نظامها المقطعي المعين.^(١) والمقطع في العربية يتميز بعدة سمات منها أنه يبدأ دائماً بصوت صامت يعقبه حركة قصيرة أو طويلة، وربما كانت الحركة ملحقة بصامت جديد أو بصامتين. ونستطيع أن نميز في العربية بين خمسة أنواع من المقاطع.

- ١- مقطع قصير: ويتكون من صوت صامت يعقبه صوت لين قصير، ويرمز للصوت الصامت بالرمز (ص)، والصوت اللين أو المتحرك بالرمز (ح). فيكون رمز المقطع هو (ص ح)، ويطلق عليه مقطع من النوع الأول، وأفضل عند التقطيع أن نرمز بالرمز (٧) كإشارة إلى وجود مقطع له هذه الصفات.
- ٢- مقطع طويل مفتوح: ويتكون من صوت صامت يعقبه صوت لين طويل. ويرمز لهذا المقطع بالرمز (ص ح ح)، ويمثله الحرف الذي يعقبه مد مثل "قى"، ويطلق عليه مقطع من النوع الثاني، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز ٢.
- ٣- مقطع طويل مغلق: ويتكون من صوت صامت تليه حركة قصيرة يعقبها صوت صامت، ويرمز له بالرمز (ص ح ص)، ويطلق عليه مقطع من النوع الثالث، ومثاله حرف الجر (من)، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز ٣.
- ٤- مقطع مديد مقفل بصامت: ويتكون من صوت صامت تليه حركة طويلة يعقبها صوت صامت، ويرمز له بالرمز (ص ح ح ص). ومثاله كلمة "باب" بتسكين الآخر - ويطلق عليه مقطع من النوع الرابع، وأعبّر عنه أثناء التقطيع بالرمز ٤.

(١) انظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص ٢٤٠ - ٢٤٣.

٥- مقطع مديد مقفل بصامتين: ويتكون من صوت صامت ثليه حركة قصيرة يلحقها صامتان، ويرمز له بالرمز (ص ح ص ص)، ويطلق عليه مقطع من النوع الخامس، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز ٥.

ويبدو أن مفهوم المقطع لم يكن مجهولا تماما بالنسبة للقدماء، فعندما نقارن "عمل الخليل بن أحمد، والأقدمين بصفة عامة سواء من علماء العروض أو النحو أو اللغة بعمل المحدثين من علماء الأصوات الوظيفية، يتضح أن مفهوم الأقدمين للحرف المتحرك - وهو يتركب من صامت وصائت قصير - يطابق مفهوم المحدثين لمقطع بعينه هو المقطع الأول، ويطابق أجزاء من المقاطع الأخرى... ويصح على هذا أن نعتبر نظرة الأقدمين - ومن بينهم الخليل في عروضه - إلى الحرف المتحرك خطوة نحو تحديد المقطع في اللغة العربية".^(١)

وهذا بيان سريع بأطوال المقاطع في العربية محسوبة بالجزء من الألف من الثانية. وكما أن المقطع الواحد يختلف طوله باختلاف طبيعة الحركة الملحقة به أهى قصيرة أم طويلة، يلاحظ كذلك أن طوله يختلف تبعا لطبيعة وصفات الصوت الصامت المركب مع الحركة، من حيث كونه مهموسا، أو مجهورا. انفجاريا أو احتكاكيا أو متوسطا أو مزدوجا. ومعلوم أن الصوت نفسه يتأثر مداه بمحيطه الصوتي، وبموقعه في الكلمة، وبنغمة الكلام، وبسرعة المتكلم.

نوع المقطع	صفات الصوت المركب مع الحركة											
	متوسط "مائع"						احتكاكي "رخو"		انفجارى شديد			
	شبه صامت		أنفى		ترددى		جانئى		مهموس		مجهور	
	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى
مقطع من النوع الأول	٠.٢١٠	٠.١٥٠	٠.٢٤٠	٠.١٧٠	٠.٢٠٠	٠.١٤٠	٠.٢٢٥	٠.١٦٠	٠.٢١٠	٠.٢٧٠	٠.٢٠٠	٠.٢١٠
مقطع من النوع الثانى	٠.٤١٠	٠.٢٧٥	٠.٤٤٠	٠.٢٩٥	٠.٤٠٠	٠.٢٦٥	٠.٤٢٥	٠.٢٨٥	٠.٣٣٥	٠.٤٧٠	٠.٣٢٥	٠.٤١٠
مقطع من النوع الثالث	٠.٣٢٠	٠.١٩٠	٠.٣٥٠	٠.٢١٠	٠.٣١٠	٠.١٨٠	٠.٣٣٥	٠.٢٠٠	٠.٤٦٠	٠.٣٨٠	٠.٢٤٠	٠.٣٢٠
مقطع من النوع الرابع	٠.٥٢٠	٠.٣١٥	٠.٥٥٠	٠.٣٣٥	٠.٥١٠	٠.٣١٥	٠.٥٣٥	٠.٣٢٥	٠.٦٦٠	٠.٥٨٠	٠.٣٦٥	٠.٥٢٠

(١) العروض والقافية: دراسة فى التأسيس والاستدراك، محمد العلمى، دار الثقافة،

يمثل الجدولان المظللان الحد الأدنى والحد الأقصى لطول كل مقطع من المقاطع المذكورة.^(١) ويمكن الاستعانة بهذا الجدول في حساب المدى الزمني الذي تستغرقه قراءة عبارة مسجوعة أو آية من السجع القرآني، ذلك إذا لم يكن من المتاح للباحث استخدام أي جهاز من أجهزة التحليل الطيفي أو مرسوم الذبذبات. ولكن علينا أن ننتبه إلى أن الجدول -رغبة في الاختصار- لا يقدم إلا الحدين: الأدنى والأقصى لاستمرارية المقطع، فالرقم ٠,١٥٠ -على سبيل المثال- يعد أدنى حد سجله صوت انفجاري في النطق، كما أن الرقم ٠,٢١٠ يمثل أعلى حد سجله صوت آخر من الأصوات الانفجارية مضافاً إليه قيمة الحركة القصيرة. وبالتالي فعند حساب المدى الزمني الذي يستغرقه النطق بقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثَّرُ﴾، ينبغي على الباحث أن يحدد أمرين:

- ١- استمرارية كل صوت من الأصوات الداخلة في تكوين الآية، ويتوفر ذلك بالعودة إلى مراجع المؤلفين الذين اهتموا بقياس استمرارية الأصوات العربية، من أمثال "إبراهيم أنيس"، و"العاني".
- ٢- طبيعة القراءة، قراءة بطيئة أم متوسطة أم سريعة.

وبعد هذا الخروج عن سياق البحث، وهو خروج، لا مندوحة منه، يطلعننا على مفهوم المقطع وأنواعه بوصفه وحدة قياس يعتمد عليها في قياس طول العبارة المسجوعة؛ نعود مرة أخرى إلى السجع القرآني.

قام البحث بكتابة عينة مختارة من النص القرآني كتابة صوتية وفق نطقه؛ بهدف حساب جملة ما تتركب منه الآية القرآنية المسجوعة من مقاطع؛ حتى يتمكن البحث من تعقب نظام البناء الشكلي للتراكيب السجعية طولاً وقصراً. وكأي منهج اعتباري فإن النظام لا يتجلى بكامل وضوحه عند القراءة العادية ولا حتى من خلال التلاوة، بل من خلال قراءة خاصة تجلو قوانين توزيع المقاطع، نعني من خلال ما يسمى بالتقطيع، وقد روعي فيه القاعدة البلاغية القديمة التي تقول بأن مبنى السجع على الوقف.

وكان لابد لهذه الدراسة من اختيار عينات جيدة التمثيل، فوقع الاختيار على

(١) انظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص ٣١٣، وانظر: التشكيل الصوتي في اللغة العربية، سلمان العاني، ص ٧٥، ٧٧.

عشرة أجزاء من النص القرآني هي: الجزء الأول، والجزء الثاني، والجزء الرابع، والجزء السادس، والجزء الثامن، والجزء العاشر، والجزء الثاني عشر، والجزء الرابع عشر، والجزء الثامن والعشرون، والجزء الثلاثون. ويتوافر في العينة المختارة شرطان:

- أ- أنها تتضمن جملة من السور المدنية والسور المكية بنسب قريبة من نسبة وجودهما في القرآن وهي ٦: ١، فعدد السور المكية فيها هو ثلاث وأربعون سورة، وعدد المدنية ثلاث عشرة سورة.
- ب- أنها تحتوى على قصار السور، وطوالها، وكذلك على السور المتوسطة الطول.

ويلخص الجدول الآتي ما انتهى اليه البحث إليه من نتائج.

هذا هو الإحصاء الذى أسفر عنه تقطيع السجع القرآنى فى الأجزاء العشرة المذكورة سابقا. وقد اقتضى تفاوت أطوال الآيات أن نقوم بتقسيم الأطوال إلى فئات، فهناك فئة الآيات المتكوّنة من مقطعين^(١) حتى عشرة مقاطع، وفئة الآيات المتكوّنة من أحد عشر حتى عشرين مقطعاً، وأخرى من واحد وعشرين إلى ثلاثين مقطعاً... وهكذا. وكان الحاصل فى النهاية وجود إحدى وعشرين فئة هى التى تتدرج داخلها أطوال الآيات فى القرآن الكريم. ولنبحث الآن فيما عسى أن يشير إليه هذا الإحصاء، وما قد يدل عليه من دلالات.

وعند النظر إلى المجموع الكلى للإحصاء مقارنة بإحصاء الأجزاء، فسنجد أن المجموع الكلى غير صادق التمثيل لنتيجة كل جزء على حدة، مما يفرض طلباً للدقة - أن تتابع عملية الاستقراء فى دوائر متتالية، فلدينا فى هذا الإحصاء متسع نسير فيه ونحن نحمل فى أنفسنا شيئاً من الثقة بأن نتائج مهمة قد تلاحظ وتسجل.

أولاً: استقراء النتيجة الكلية للإحصاء

يبلغ كم الآيات المسجوعة التى تم تقطيعها ورصد عدد مقاطعها المكونة ١٤٢٢ آية، ولو تصورنا فرضاً أن هذا العدد يتوزع بالتساوى بين مختلف فئات الأطوال، أى لو قسمنا ١٤٢٢ آية على ٢١ فئة لكان المعدل فى كل فئة هو ٦٨ آية تقريباً، ولكن ذلك الفرض لم يتحقق، فالملاحظ أن هناك تفاوتاً كبيراً فى توزيع الآيات على فئات الأطوال. ويمكن الاستفادة من المعدل السابق فى كشف المفاصل الأساسية التى حدثت فى الخط البيانى للأرقام، فبناءً عليه يتبين وجود نقطة فاصلة بين الفئات السبع الأولى وبقية الفئات، وهذه النقطة تقسم الخط البيانى للأرقام إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: مجموعة الآيات المتكوّنة من مقطعين إلى سبعين

(١) نلاحظ غياب الآيات المسجوعة من مقطع واحد، وكنت أفترض أنه سيقابلنا

فى الآيات المتكوّنة من حروف مقطعة، ولكن الإحصاء أثبت عكس ذلك.

مقطعًا وجملتها ١٢٨٩ آية بنسبة تبلغ ٩٠,٦٥% من مجموع الآيات المقطعة مقطعياً، أى أنها تتفوق على جملة المجموعة الثانية تفوقاً ملحوظاً. وبإمعان النظر فى تفاصيل أعداد هذه المجموعة يتجلى لنا أنها تحتوى على آيات توالى أعدادها على الترتيب الآتى: ٢٨٥-٢٥٦-١٩٥-٢١٤-١٦١-٩٧-٨١ آية، ونلاحظ هنا أن الخط البيانى لهذه الأرقام يتدرج بشكل تنازلى تقريباً، توجد عند قمته الفئة الأولى وهى تمثل الآيات المركبة من مقطعين إلى عشرة مقاطع، تليها الفئة الثانية المتكوّنة من أحد عشر إلى عشرين مقطعاً.

المجموعة الثانية تشمل: مجموعة الآيات المتكوّنة من عدد من المقاطع يفوق السبعين، وجملتها ١٣٣ آية بنسبة تبلغ ٩,٣٥% من مجموع الآيات المحصاة. والملاحظ أن الخط البيانى للأرقام ينخفض فى هذه المجموعة بشكل ملحوظ يبدأ تدريجياً ثم يصير حاداً، على النحو الآتى، ٤٧-٣٣-١٨-٩-٤-٦-١-٣-٢-١-٦-٠-٢ مقطعاً.

ولكن، ما الذى نستنتجه عن طول السجعة فى النص القرآنى؟ إن ما يزيد على ٩٠% من فقرات السجع القرآنى هو فقرات قصيرة ومتوسطة الطول، واللافت أن أكثر من ثلاث أرباع تلك الفقرات جاءت متكوّنة من مقطعين إلى خمسين مقطعاً. هذه النسب كما أنها تبرز ميل النص على المستوى الشكلى إلى العبارات القصيرة والمتوسطة، فإنها تفتح باب نقاش جديد مع محمود المسعدى فى كتابه "الإيقاع فى السجع العربى". فقد اشترط المسعدى إدخال العامل الفيزيولوجى فى دراسة المدى الأمثل لفقرات السجع، فإن مقياس اعتدال طول العبارة المسجوعة -عنده- هو مطابقة مداها المدى الذى تستغرقه عملية التنفس العادية. ولا تتجاوز هذه العملية -فى اعتقاده- حدود اثنى عشر مقطعاً،^(١) وتحديد المسعدى لهذا المقدار بالذات أتى نتيجة تأمل فى كل من الشعر الفرنسى الذى لا يتجاوز بيت الشعر منه فى أقصى حدوده اثنى عشر مقطعاً، والشعر العربى الذى يوجد من بين بحوره عشرة بحور يحتوى المصراع فيها

(١) انظر: الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٢٣، ٢٤.

على اثني عشر مقطعاً أيضاً. ومن ثم خرج محمود المسعدى بنتيجة عامة، وهى أن كل إيقاع صوتى يخضع تمام الخضوع لمقتضيات معينة وقانون فيزيولوجى صارم هو قانون النفس، وأن السجع يخضع لقانون النفس خضوع بيت الشعر له؛ ومرجع ذلك كونه ليس نثراً عادياً وإنما نثر موقع.

ويذهب المسعدى فيما ذهب إلى أن البلاغيين والنقاد القدامى لم يفتنوا إلى علاقة الكلام بعملية التنفس، ولهذا بقيت تقديراتهم لطول السجعة غير ذات دعامة صوتية. كما يؤكد أنه لم يسبق أن أشار أى كتاب من كتب البلاغة والأدب إلى وجود مثل هذا القانون. والبحث لا يتفق معه فيما ذهب إليه من أنه لا توجد أية إشارات فى كتب البلاغة والأدب تبصّر بمعرفة البلاغيين العرب لقانون النفس وعلاقة الكلام به. فأبو إسحق الصابى (ت ٣٨٤هـ - ٩٩٤م) قد انتبه إلى هذا القانون قبل المسعدى بحوالى عشرة قرون تقريباً، وإن لم يطبقه على النثر.^(١)

فيبدو أن التفكير فى قانون النفس وعلاقة الكلام الموقع به، بدأ مع تأليف العرب لبحور الشعر، ومع استعمالهم لهذه البحور. وقد أورد ابن الأثير كلاماً لأبى إسحق الصابى ربط فيه بين النفس ومدى البيت فى الشعر، قال: "[قال الصابى]... ولسائل أن يسأل فيقول: من أية وجهة صار الأحسن فى معنى الشعر الغموض، وفى معنى الترسل الوضوح؛ فالجواب: أن الشعر بنى على حدود مقررة، وأوزان مقدرة، وفصلت أبياته؛ فكان كل بيت منها قائماً بذاته، وغير محتاج إلى غيره، إلا ما جاء على وجه التضمنين، وهو عيب، فلما كان النفس لا يمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، وكلاهما قليل؛ احتيج إلى أن يكون الفصل فى المعنى، فاعتمد أن يلطف ويدق، والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريقة؛ إذ كان كلاماً واحداً لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولاً طوالاً، وهو موضوع وضع ما يهذهذ أو يمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية، وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية؛ فإذا كان متسلسلاً ساغ فيها وقرب، فجميع ما يستحب فى الأول ويكره فى الثانى، حتى إن

(١) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٩٣ وما بعدها.

التضمنين عيب في الشعر، وهو فضيلة في الترسل". (١)

كان الصابي يدرك أن النفس يفرض قانونه على الكلام الموقَّع، ومن ثم أشار إلى خضوع بيت الشعر العربي لذلك القانون، سابقاً محمود المسعدي إلى القول بمبدأ النفس باعتباره مقياساً للطول المعتدل للكلام، لكن تظل هناك حقيقة واضحة، هي أن مفهوم النفس ومداه ليس واحداً عند كليهما؛ فالمسعدي يتحدث عن تحكم الظاهرة الطبيعية للنفس في الطول الأمثل للعبارة السجعية، يتحدث عن سلسلة من المقاطع تنطق مع زفرة نفس عادية واحدة، ويطلق علم الأصوات الحديث على هذه السلسلة لقب "مجموعة نفسية". أما الصابي فإنه لا يتوقف عند مدى النفس العادية وإنما يتحدث عن أعلى حد ممكن لامتداد النفس، بحيث يشكل الكلام في النهاية جملة نفسية واحدة. وهذا الحد لا يتجاوز في اعتقاده - مقدار النطق ببيت كامل من الشعر. (٢)

وبغض النظر عما إذا كان المرء مستعداً لأن يتفق كلياً مع الصابي

(١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٢) يحدد مرسام الذبذبات بالنسبة لبيت من البسيط عند أبي تمام، مكون من ثمانية وعشرين مقطعاً، مدة ٩٠٠ جزء من المائة، أي تسع ثوان، في أداء متوسط السرعة. انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤. وانظر: ديوان أبي تمام: رقم ٣: ١، ص ٤٠. وإذا قورن الحد الأقصى للنفس بحده الأدنى، أي إذا قورن المدى الزمني لبيت من الشعر العربي بالمدى الذي يستغرقه نطق مجموعة نفسية واحدة، مكوّنة كما يحدد علم الأصوات من اثني عشر مقطعاً على أقصى تقدير، وهو نفس عدد المقاطع الذي يتكون منه بيت الشعر الفرنسي، يتكشف أن بيت الشعر العربي يكون مساوياً تقريباً لمجموعتين أو ثلاث مجموعات نفسية، ولنسجل هنا بعض الأرقام التي وفرها جمال الدين بن الشيخ حول مدى نطق بيت الشعر الفرنسي - ١٢ مقطعاً - فإن معدل البيت في جزء Puy Blas يبلغ اثنتين واثنتين وخمسين لحظة، وهو في مونولوج هيرميون من مسرحية أندرو ماك الشعرية لا يتجاوز اثنتين وثلاثاً وسبعين لحظة. راجع: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

أو مع المسعدى، فإن علاقة نظرتيهما بمتطلبات النصوص الموقعة أو التى تريد أن تتال قدرًا من الإيقاع تظل واضحة.

وإذا كان للبحث أن يرجح إحدى النظرتين على الأخرى، فإنه يرجح ما ذهب إليه الصابى؛ ذلك إنه نظر إلى البيت الشعرى باعتباره أقصى حد يمكن الوقوف عليه وقوفا مستريحًا من جهة النفس، والعرب لا تقف على شطر البيت إلا إذا كان مصرعًا، ربما لأنهم أدركوا أن الوقوف عليه يفرض فى بعض الأحيان مواضع سكت لا تتفق مع المعنى أو التركيب النحوى. وإذا سلمنا بارتباط مدى البيت الشعرى بعملية التنفس، فإنه يمكن وضع حد أقصى لعدد المقاطع التى سيحدث بعدها إجهاد للنفس. مع ضرورة التنبيه لعدة أمور:

[١] أن المقاطع عندما تأخذ مواضعها فى نموذج تؤلفه مجتمعة فإن عدد المقاطع الذى يتم بعده إرهاق النفس سيزيد وينقص تبعًا لنوعية المقاطع المكوّنة للجملة، ولطريقة تتابعها.

[٢] أن طول الجملة التنفسية يتنوع بحسب الأفراد؛ ولذلك كان من بين أهداف علم التلاوة والتجويد، تعلم القراء التنفس السليم الذى يتيح لهم أن يزامنوا الوقفة التنفسية مع الوقفة الطبيعية التى يفرضها مضمون الآية.

[٣] أن طول الجملة التنفسية يختلف بحسب صفات النص المنطوق، فتأليف المقاطع فى الشعر يبنى على أساس من نظام منضبط تتخذ فيه الصوامت والحركات مواضعها الأكيدة، على عكس المقاطع فى النثر؛ فإن تأليفها لا يخضع فى الغالب لنظام. ومن هنا تفرض صفات النص المنطوق شروطها على عدد المقاطع التى يمكن نطقها أثناء عملية التنفس. فالنظام الذى يبنى عليه بيت الشعر يسهم فى وصول النفس محطته الأخيرة بعد عدد من المقاطع قد يكون أقل من عدد المقاطع التى تنطق فى نفس المدى الزمنى ولكن فى نص آخر لا يقوم على نظام مطّرد كالنص المنثور أو المسجوع. فتبعًا لبحور الشعر نجد أن أقصى تقدير لبيت من الشعر العربى هو ثلاثون مقطعًا بما يساوى تقريبًا تسع ثوان وفقًا للإحصاءات التى سجلها جمال الدين بن الشيخ.^(١) وقد لوحظ

(١) انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ وما بعدها.

أن قوله تعالى: ﴿لَوْ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) (٤٠ مقطعاً) يسجل بالاستعانة بالجدول الزمني للمقاطع - زمناً بلغ مقداره تسع ثوان وستاً وثلاثين لحظة. وبناءً عليه يمكن وضع تقدير تقريبي للحد الأقصى لعدد المقاطع التي يمكن أن تنطق مع امتداد جملة نفسية واحدة، وهو وفقاً للملاحظات كم لن يتجاوز الأربعين مقطعاً، أي ثلاث مجموعات نفسية.

على أن هذا الذي يستخلصه كل من الصابى والمسعدى فيما يتصل بنصوص بشرية موقعة كالشعر والمقامات العربية المسجوعة لا ينطبق على نص القرآن الكريم، فلا عبرة بمبدأ النفس في تحديد طول الآية القرآنية التي قد تقصر بحيث تكون كلمة واحدة، أو تطول طويلاً ملحوظاً. والنص القرآني إنما يقوم على إعمال قانون آخر هو قانون الوقف ينال به اعتدال المسافة المنطوقة حيث يتم بناءً عليه تقسيم الآيات الطوال داخلياً. وقانون القرآن في الوقف لا يرتبط بمسألة النفس "وإن كان لا شيء من انقطاع النفس إلا ومعه الوقف"^(٢)، فالمعتمد في علم القراءات أن الوقف يختلف بحسب أمرين: بحسب الكلام نفسه؛ إذ قد يختلف الوقف باختلاف الإعراب، أو المعنى، وقد يقف لبيان المراد وإن لم يتم الكلام. وينقسم الوقف تأسيساً على ذلك إلى خمسة أصناف هي الأتم والتام والذي يشبه التام، والناقص المطلق والأنقص، ويختلف الوقف كذلك بحسب المتكلم أو القارئ، أي بحسب انقطاع النفس.^(٣) ومن خلال قانون الوقف القرآني يحقق النص لنفسه قاعدة الاعتدال في الطول.

وبرغم ما نؤكدده من اختلاف قانون القرآن في تشكيله المسافي، فإن النظر الإحصائي أن ٦٦,٨٠% من آيات السجع القرآني هي فقرات متوسطة الطول لا يتجاوز طولها ثلاث مجموعات نفسية. ويؤكد النظر في كل جزء على حدة غلبة الفقرات السجعية المتوسطة الطول، فتبلغ

(١) سورة البقرة: ١٢٧.

(٢) انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ وما بعدها.

(٣) للمزيد راجع: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج ١، ص ٣٦٧.

نسبة الآيات المتوسطة الطول فى الجزء الأول ٦٥,٦٢% من مجموع الآيات المسجوعة فى الجزء، وتبلغ فى الجزء الثانى ٦٠%، وفى الرابع ٦٤,١٠% وفى السادس ٥٤,٦٣% وفى الثامن ٦٢,١٢%، وفى العاشر ٥٤,٦٣% وترتفع النسبة فى الجزء الثانى عشر إلى ٧٥% وفى الجزء الرابع عشر إلى ٨٤,٤٩%، ثم تعود إلى نسبتها القارة فى الجزء الثامن والعشرين ٦١,١١%، وتنخفض إلى ٣٨,١٧% فى الجزء الثلاثين.

وعندما نقارن بين أطوال السور وأطوال الآيات التى يحتوى عليها كل من الجزء الثانى عشر والجزء الرابع عشر اللذان سجلا ارتفاعا ملحوظا فى نسبة الآيات متوسطة الطول، يلاحظ التناقص بين طول الآية وطول السورة، فجميعها سور متوسطة الطول وأغلبها سور مكية تتميز بينائها على الفقرات القصيرة والمتوسطة. وفى الجزء الثلاثين كانت الآيات أميل إلى القصر فطولها يتراوح بين مقطعين وعشرة مقاطع. ويلاحظ أن الإحصاء يرجع إلى معدله القار مع آيات الجزء الثامن والعشرين المشتمل على سور مدنية.

والظاهر أن النص القرآنى كان حريصا على أن يأتى مناسباً لطبيعة المخاطبين، فالسور المكية تناسب تماماً طبيعة المكيين فقد كانوا جبابرة تسود بينهم المنكرات والعادات السيئة، وذلك كله يقتضى خطابهم بلغة سريعة آخذة، غير مسترسلة، وقول حاد، حاسم. يعد ويوعد، تقصر معه الجمل ويبرز التجانس الصوتى وتعلو الموسيقى. إن هذه السمات الصوتية لا تنفك أبداً عن حرارة التعبير التى يبرزها على المستوى الأسلوبى كل من أسلوب القسم والاستفهام الإنكارى والتحذير والوعيد وضرب الأمثال للأفهام، وهى أساليب ظاهرة فى السور المكية.

أما الخطاب اللغوى فى السورة المدنية، فقد كان مسترسلاً مناسباً لطبيعة المسلمين، ينزع إلى التفصيل والتوضيح، ويتناسب ذلك مع التعاليم الدينية ووضع التشريعات وشرح حدود العقيدة الإسلامية.^(١)

(١) انظر: من صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد السيد سليمان العبد، ص ٨٨.

وإن حرص النص القرآني على أن يأتي الخطاب المسجوع مناسباً لطول السورة من جهة، ولطبيعة المخاطبين من جهة أخرى لهو أحد مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

وقد كشف تتبع طول السجعة في القرآن عن أمور مهمة:

أ- أن القراء حافظوا -اعتماداً على قانون الوقف القرآني- على تقسيم الآيات الطوال تارة وفقاً لما يقتضيه المعنى، وأخرى تلبية لما يطلبه النفس من راحة. ويدلنا على ذلك علامات الوقف التي نشاهدها في المصحف.

ب- أن السجع القرآني كان مغايراً من حيث طول فقراته لنظام السجع العربي، ولم نشاهد تطابق النظامين سوى في الجزء الثلاثين فقط، ويكفي أن نقارن بين أطوال الآيات في ذلك الجزء، وبين الإحصاء التحليلي الذي قام به المسعدى على فقرات من سجع الحريري.

نتبين في الجدول الثانى الخاص بالجزء الثلاثين من القرآن الكريم تقسيماً ثلاثياً شبيهاً بتقسيم الجدول الأول الذى يرصد أطوال الفقرات فى مقامات الحريرى، فالحد الفاصل بين المجموعة الأولى والمجموعة الثانية فى هذا جدول القرآن يوافق الحد الفاصل بينهما فى جدول الحريرى، إذ يتبدى لنا بعد الفقرات المتكوّنة من خمسة مقاطع. كما أن الحد الفاصل بين المجموعتين الثانية والثالثة متماثل كذلك، فهو يظهر بعد الفقرات المتكوّنة من أربعة عشر مقطعاً.

وإذا دققنا النظر فى الجدول الخاص بالأطوال فى النص القرآنى لاحظنا حضور آيات متكوّنة من مقطعين ولهذا الحضور ما يبرره، حيث يتناسب مع الإيقاع السريع، ومع تعليق الإيقاع فى الآيات التى تبدأ بالقسم.

وتقترب نسبة المجموعة الثانية فى كلا الجدولين بشكل ملحوظ فهى عند الحريرى تبلغ ٨١,٧١% وفى النص القرآنى تبلغ ٨٥,٤٩%، ولكن الاختلاف يبدو عند قمة الخط البيانى للإيقاع العدى فى كلا النصين إذ إن الإيقاع العدى يبلغ قمته عند الحريرى فى مستوى الفقرات المتكوّنة من عشرة مقاطع، بينما يبلغ قمته فى النص القرآنى عند الآيات المتكوّنة من ثمانية مقاطع. والظاهر أن آيات الجزء الثلاثين تخضع لقانون النفس، فأغلبها لا يتجاوز مدى مجموعة نفسية واحدة، وحرص النص القرآنى فى هذا الجزء على اعتدال طول النفس بدا واضحاً من خلال تفوق جملة المجموعة الثانية التى اشتملت على آيات متكوّنة من ستة مقاطع وأربعة عشر مقطعاً، وهو قدر يتفق ومطمح النص فى هذا الجزء إلى نيل قدر أكبر من الإيقاع السريع المتلاحق. ولعل كتاب المقامات قد حاولوا أن يصيغوا على منواله، فتلمسوا طريقاً لذلك وجدوه ماثلاً فى المدخل الشكلى.

[٢] البناء الشكلى للوحدة السجعية القرآنية:

والآن ينتقل البحث من ملاحظة السجعة المفردة إلى النظر فى البناء الشكلى للوحدة السجعية القرآنية. فعند تأمل أى من السور القرآنية -بالعين أو الأذن لا فرق؛ لكون البصرى لا ينفصل عن الشفوى كما يقول "هنرى ميشونيك"^(١) -

(١) نقلاً عن الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، ص ٢٠٣.

Critique rythme, Henri Meschonic.

يُلاحظ أن النص القرآني يتصرف في تنسيق التراكيب السجعية طولا وقصرا بكيفيات مختلفة، فتارة تكون المسافات التعبيرية متوازنة نتيجة تماثل القرائن في الكم المقطعى. وتارة تتفاوت المسافات بأن تأتي سجة قصيرة تتبعها سجة طويلة، والعكس بالعكس صحيح.

ومن الأسئلة التي تطرح نفسها على البحث: هل هناك قيمة فنية للتشكيل المتنوع للمسافات؟ وهل ينهض هذا التشكيل بوظيفة في النص القرآني؟ إن أسئلة كهذه لا يُجاب عليها إلا بتفحص النص نفسه فليس ثم ما هو أصلح منه للحكم. ولكن قبل القيام بذلك يحسن أن نمعن التفكير في أمر أظنه خليقا بأن يلقى بعض الضوء على مدخل الإجابة. فالمرء حين ينظر إلى تشكيلات المسافة في الحديث الدارج تطرأ على ذهنه أسئلة من مثل: هل يكون المتكلم على وعى بالتشكيل المسافى لجمله وعباراته؟ وهل يقصد من ورائها إلى تحقيق غايات دلالية أو جمالية؟ الحقيقة أن مجيء التشكيل المسافى على هذه الهيئة أو تلك يؤول في الأصل إلى عملية ذهنية خالصة؛ إذ يكون تابعا لحركة المعنى، بيد أن المتكلم العادى لا يشغل نفسه مطلقا بذلك التشكيل، ولا يهتم بتوازن المسافات أو اهتزازها، ولا يقصد من مسافة التعبير أن تنهض بوظيفة في الدلالة. ومن هنا يتجسد المبدأ الذى ينبغى الاعتداد به حينما نقول إن هذا العنصر أو ذاك من عناصر النص يعد ذا قيمة، فيبدو أن القطع بذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا وجد فى النص ما يشير إلى وعى وتخطيط مسبق. فحيثما رصدنا فى التشكيل المسافى للسجع القرآنى ما يشير إلى قصد وتخطيط، ووجدنا فيه ما يشير إلى وعى بالقيمة الإيحائية للقالب الشكلى الموظف، عندئذ يصبح الحديث عن قيمة فنية لهندسة المسافات فى القرآن الكريم أمرا مشروعا.

- هندسة التشكيل المسافى فى سورة الضحى:

واعتمادا على المبدأ السابق -مبدأ هندسة التشكيل المسافى بين الجمل- نقف لتأمل قوله تعالى من سورة الضحى: **لَا الضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا**

تَقَهَّرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ٥١. (١)

فالسورة -كما تبدو- تحظى بشحنة إيقاعية تعلو على ما يمكن أن يمنحه التسجيع بمفرده. فأين نجد فيها مصدر تلك الشحنة الإضافية ومنبعها؟ وإن لم تكن نتيجة لفعل التسجيع وحده فنتيجة لأي فعل إذن؟

الحقيقة أن هذه السورة تتطوى على ظواهر لها طبيعة تراكمية أسهمت في شحن النص صوتياً. فعند إنعام النظر فيها، والقيام بترديدها، مرة وفقاً لتجزئتها إلى آيات، وأخرى وفقاً لالتحام الآيات وتعايشها في جسد نص واحد -تتكشف بنياتها الإيقاعية الواحدة تلو الأخرى. وأولى البنى التي تتكشف لنا بنية التكرار، إذ ترددت ثلاث مرات على مدار النص. فاجتمع التماثل الحرفي والدلالي على صعيد واحد في تكرار كلمة "ما"، والملاحظ، أن النص كان حريصاً على تكيف حركة التكرار وفقاً لهدف تسجيل القيم الإيقاعية، فجمع إلى التماثل الحرفي الدلالي التناسق الشكلي الذي يكتف من إيقاعية البنية؛ فالتعبير "وجدك" والدال "أما" يتكرران ثلاث مرات في وحدات سجعية ثلاثية الأطراف أيضاً، ويحققان علاوة على المماثلة انسجاماً في البعد المكاني؛ إذ يُمثّل كل منهما مفتتحاً لفقرات متوازنة صياغياً. ويُمثّل التكرار الحرفي ظاهرة أخرى من ظواهر الإيقاع، حيث تكررت الكاف تسع مرات على مدار السورة الكريمة.

ويرصد البحث بالإضافة إلى بنية التكرار بنية أخرى ظهرت في منطقة التسجيع على وجه الخصوص، تقدّم نوعاً من الإيقاع الصرفي من خلال الجمع بين دالين أو أكثر على صعيد الوزن. وظهور الدوال المتوافقة في الوزن الصرفي في الموضع نفسه -وهو منطقة الفاصلة- قد مكن لإنتاج الأثر الإيقاعي.

وتتصاعد الحدة الإيقاعية مرة ثالثة وذلك من خلال التناظر التركيبي الذي يُبرزه التشكيل التجريدي للتراكيب؛ إذ تحتوى التراكيب على ما يأتي:-

(١) الضحى: ١-١١.

أ- التناظر التركيبي الأول:

استفهامٌ منفيٌّ (بالهمزة + لم) "ولم هنا ليست نافية إذ يقوم الاستفهام بتحويل الجملة تحويلاً آخر يصرفها إلى معنى الإقرار بالأمر" + فعل + ضمير "مفعول به" + مفعول به ثانٍ + فعل.

ينتفى حضور "ألم" في بنية الآيات على المستوى الخطي فقط، ولكن يظل لها أيضاً حضورها الذهني فاعلاً مؤثراً. وهذه الجمل المتناظرة تركيبياً ليست استفهاماً بالمعنى المعروف؛ ذلك أن كل استفهام يحتاج إلى إجابة، ولكن المعنى هنا جاء مكتملاً، حيث يؤدي الاستفهام وظيفة الإخبار والتقرير لأمر متحقق بالفعل.

ب- التناظر التركيبي الثاني:

(ف) + أمّا + مفعول به + لا الناهية + فعل مضارع.

على أن الإيقاعية لا تنتهي عندما تم رصده من ظواهر، فالإصغاء لهذه الآيات يتولد عنه شعور مبهم بحضور نمط آخر من الإيقاع يكون مدعاة للتوقف عنده. ترى من أين ينبعث ذلك الإيقاع وقد رأينا أن الأنظمة الإيقاعية التي تم رصدها من قبل لا تخرج عن المستوى الحرفي والمستوى البديعي، والمستوى النحوي، فهل تراه يصدر عن أحد هذه المنابع؟

إن ذلك الإيقاع ذو علاقة بشيء يعتبره بعض النقاد أمراً عرضياً أو قليل الأهمية ألا وهو أطوال الآيات. فمن الواضح أن نموذج الأطوال يزكي الإيقاع في السجع القرآني بصفة عامة - كما يسهم في تكثيفه. فالقرب والبعد ما بين أصوات السجع المتشاكلة يمثلان قيمتين إيقاعيتين ودلالتين في الوقت نفسه، وهذا ما نسعى إلى كشفه تطبيقياً في سورة الضحى؛ ففي قوله تعالى: ﴿لَا أَلْمُ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(١) تنهض البنية الإيقاعية في هذه الوحدة على التقارب العددي؛ إذ تتوالى الأبنية المقطعية تواليًا

(١) أقدم فيما يأتي التقطيع الصوتي لتلك الآيات:

(١١) مقطعا ، (١٠) مقاطع ، (١١) مقطعا

منتظماً من حيث الكم، فعدد المقاطع فى آيات هذه الوحدة يكاد يكون متساوياً، إذ نجد الآيتين الأولى والثالثة تبلغان أحد عشر مقطعاً، بفارق مقطع واحد عن الآية الثانية التى بلغ عدد آياتها عشرة مقاطع أحدها مقطع من النوع الرابع زائد الطول (٤). وتستقر بنية السجع فى أواخر الفواصل الثلاث لتمثل نقطة ارتكاز تفصل بين مسافات متوازنة كمياً وصوتياً ودلالية؛ إذ تكون نهاية كل آية صوتياً بحرف "الألف اللينة" متوافقة مع النهاية الدلالية.

ومرة أخرى تأتى المسافات التعبيرية متوازنة فى قوله تعالى: ﴿لَا فَاَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(١). حيث يبلغ عدد المقاطع المكونة للآية الواحدة منهما عشرة مقاطع.

ويمثل توازن المسافات التعبيرية -إذن- الاختيار الإيقاعى الغالب فى السورة من حيث مرات تردده، بيد أنه ليس الاختيار الوحيد؛ فالنص يعتمد فى الآيات الخمس الأولى إلى المراوحة بين القرائن فى الكم المقطعى على النحو الآتى (٣-٧-١٢-١٤-١٣) مقطعاً. وهنا يؤسس غياب التماثل العددي هو أيضاً لخصوصية السجع الذى يصير مضطجاً بخلق الإيقاعية، فالمعاون الشكلى المتمثل فى تساوى الكم المقطعى مفقود، ومع ذلك فإن أصداء الإيقاع ليست غائبة وإنما يولدها السجع، وإن كانت فى هذه المرة أقل رنيناً.

ويرى البحث أن توازن المسافة الإيقاعية أو اهتزازها يعد -بالدرجة الأولى- صدى لحركة المعنى. "فالمسافة -وإن أخذت شكلاً محسوساً- فإنها أصلاً عملية ذهنية خالصة، وبما أن الذهن نفسه يحتاج إلى محطات وقوف، فإن البناء التعبيرى يتابعه فى "اختيار" هذه المحطات، بل والتركيز عليها بترديد صوت بعينه فى نقطة بعينها"^(٢) وتستوقفنا هنا كلمة "اختيار"، فالمسألة ليست تنظيمياً للأدلة على أسطر أفقية متوازية فقط، بل هى -قبل كل شيء- عملية توزيع للمسافات التعبيرية، وبمجرد أن ينفرد النص بحرية اختيار محطات الوقوف يصبح ذلك التوزيع دالاً.

(١) (٧ ٣ ٣ ٧ ٢ ٧ ٧ ٢ ٣ ٣ ٧، ٧ ٣ ٣ ٢ ٧ ٧ ٢ ٣ ٣ ٧).

(١٠) مقاطع ، (١٠) مقاطع

(٢) بناء الأسلوب فى شعر الحدائة، محمد عبد المطلب، ١٩٨٨، ص ٣٧٤.

وتستهل السورة بالقسم "بالواو"، والقسم أسلوب بلاغى، يلفت هنا لفتاً قوياً إلى صور مادية مدركة ووقائع حسية مشهودة توطئة لإبراز صورة أخرى معنوية مماثلة، والأمر الملاحظ أن الدلالة هي التي قادت التشكيل الإيقاعى إلى المراوحة بين التراكيب السجعية فى الكم المقطعى. فالضحى لا يعنى النهار كله، "وإنما هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها".^(١) وهذا التوقيت لا يقابل مطلق الليل، ولكنه يقابل ساعة بعينها منه هي فترة هدوئه وسكونه، ومن ثم جاء الليل مقيداً بكلمة "سجى"، فاهتزت المسافة الإيقاعية بين أطراف المقسم به، بما يعنى أن اهتزاز المسافة ليس مجرد تقنية شكلية، وإنما صورة مبتكرة من قبل النص، بتوجيه من الدلالة.

وفى هذا السياق، يمكن إدراك كيف يؤسس النص للمماثلة بين الصورتين: الحسية والمعنوية. إنه يعتمد على أبعاد إيقاعية أيضاً، فيؤسس للمماثلة بين الصورتين بواسطة الإيقاع المسافى المتكرر، حيث يتحقق الموقف المعنوى - المقسم عليه - فى قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) على مسافة إيقاعية مماثلة تقريباً لمسافة المشهد الحسى - المقسم به - مما يعكس الارتباط بين طرفى القسم ويشير إليه. ونحن إذ نصل إلى تلك النتيجة نتداعى إلى الذاكرة مباشرة فكرة الشكليين الروس عن الإيقاع بمختلف أنماطه. فهم يرون أنه يشبه الصور فى كونه يقصد به الكشف عن النمط التحتى للحقيقة العليا،^(٢) أى غور المعنى الكامن.

فالإيقاع العددي أو المسافى -هنا- بدا صدى لمعنى الكلام. ومن ثم وقف فى مقدمة ما يثير المعنى، ويوحى به وي طرح علينا معانى وتفسيرات له. ويتأكد

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى، دار الصفوة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥، مج٤، ص ٣٣٨٦.

(٢) Russian Formalism History, V. Erlch, Mouton & Co., paris the Houge. 1955. P. 194.

نقلا عن، العروض وإيقاع الشعر العربى، محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحرأوى، ص ١٣٥.

نفى التوديع والقلبي من خلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾. "فالأخرة تأتي -غالبا- مقابل الدنيا، والمعنى الأول في المادة هو التأخير، كما أن المعنى في الدنيا هو الدنو. فإذا اقترنت الآخرة بالدار، أو باليوم. غلب أنها اليوم الآخر، أما إذا أطلقت، فهي ذات دلالة أعم، يدخل فيها: النهاية، والمصير، والعقبى، سواء في هذه الحياة، أو فيما بعدها".^(١) والآخرة في الآية تعني الغد المرجو الذي يخص الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- ويشير إلى الخطاب في "لك". وعلى مسافة إيقاعية متقاربة جدًا تجيب الآيات عن سؤال مضر حول كيفية الخيرية التي يعد الله بها رسوله، فيتكامل التجلي الإلهي على المصطفى بقوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ تُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ما تركك الله فيما مضى، وللآخرة خير لك من الأولى.

والأدلة التي تطمئن الرسول على أن الله غير تاركه ولا مودعه كثيرة، تتدخل بنية التعدد في إبرازها. فقد كان يتيما فأواه الله ووقاه مسكنة اليتيم، وكان ضالا (حائرا) فهداه تعالى إلى دين الإسلام والحق، وكان عائلا فأغناه بكرمه وفضله، ما تركه وما قللاه قط. هكذا أتت بنية التعدد متراكبة الأحوال والأفعال، تتوزع دلاليا على عدة حقول، ومكانيا على عدة آيات، وذلك في نسق تماثلي تركيبى. فإن تركيبا مركزيا يتردد في مفتتح كل آية، ويمثل طرفاه "الفاعل" - الخالق عز وجل - و"المفعول" - محمد عليه الصلاة والسلام - ويؤدي ذلك التركيب المركزى دوره في الدلالة أداء مبهرا؛ فالاستفهام في "ألم" ليس استفهاما بالمعنى المعروف -كما ذكرنا سابقا- ذلك أنه يؤدي هنا وظيفة الإخبار والتقرير، وبذا يصبح السؤال والجواب أداء تعبيريا واحدا. ويستعمل القرآن في الآيات الثلاث الفعل "وجد" وهو من أفعال القلوب، ومن ثم يسيطر الجو المعنوى النفسى على الموقف، وتنتهى للرسول الطمأنينة الوجدانية.

ويتدخل ذلك التركيب المركزى وطرفاه في توجيه التشكيل المسافى ليأتى في النهاية متوازنا، ويؤازره في ذلك كل من: التناظر التركيبى، والتوازي المعنوى. ويكون من الحصيلة الكلية -بعد- كثافة الإيقاع المسافى فى الوحدة.

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، ع ٢٥، دار المعارف، ط ٧، ١٩٩٠، ج ١، ص ٣٦.

والسؤال المطروح هل يوفر التناظر المسافى شيئاً آخر بالإضافة إلى الإيقاعية؟ في هذه الوحدة -أيضاً- يمكن استنتاج أن المسافة توفر تنسيقاً صوتياً يدعم الدلالة؛ فإن السياق في الوحدة السجعية السابقة الذكر يتسع لثلاثة مواقف، تتشكل تعبيرياً بالانفصام عن طريق الرابط -واو العطف- وتتحرك هذه المواقف من السابق -تاريخياً- لللاحق، تحدد ما أسبغهُ الله -عز وجل- على نبيه فيما أولاه من نعم، وذلك في كل مرحلة من مراحل عمره -قبل الدعوة- طفلاً، وشاباً، وناضجاً.

والكم المقطعي المتقارب في الآيات الثلاث ﴿لَا أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(١) يبدو أنه ليس خالياً من المعنى، فورود الأفعال "آوى" و"هدى" و"أغنى" على مسافات إيقاعية متوازنة يُشعر بتعادل تلك العطايا في أهميتها. فقد كانت أكثر المطالب ضرورة فيما مضى من عمر نبينا في كل مرحلة منه، لم يبخل الخالق -عز وجل- عليه بتحقيق كل مطلب في أنه، لم يتركه وما أبغضه قط، وإن يبخل في المستقبل بما وعده من عطاء يرضيه.

هكذا يبدو أن تشكلات المسافة في السجع القرآني لا تأتي عرضاً واتفاقاً، بل على العكس من ذلك، فالنص القرآني يوظف إيقاع المسافة عن قصد لإبراز بعض هوامش الدلالة، هذا إضافة إلى ما يتحمله من دور إيقاعي. وقد لا يروق هذا الرأي لبعض النقاد؛^(٢) ذلك أن مجال معالجة الجانب الشكلي لم يطرقه بعد

(١) سورة الضحى: ٦ - ٨.

(٢) لقد فتح لنا الدكتور محمد عبد المطلب طريقاً في هذا الشأن؛ بالتطبيق الذي قام به على نماذج من إبداعات شعر الحداثة. وأكتفى بالإحالة على كتابه، بناء الأسلوب في شعر الحداثة "التكوين البديعي"، محمد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٧٣ - ٢٧٩. كما أحيل على الدراسة التي قام بها المستشرق (بيير كرابون دي كابرونا) pierre crapon de coprona - التي صدرت في باريس عام ١٩٨١، ضمن المطبوعات الاستشرافية الفرنسية تحت عنوان:

Le coran: Aux sources de la parole oraculaire: structures Rythmiques des sourates Mecquoises .

سوى قليل ممن تجاوزوا الحديث عن فاعلية التشكيل المسافى فى شحن النص صوتيًا إلى رصد فاعليته دلاليًا. وهذا ما لم تفعله البلاغة العربية القديمة التى توقفت عند رصد أنماط ائتلاف التركيب السجعية طولاً وقصراً فحسب، مخلفة وراءها أحكام قيمة لا يمكن تقبلها دون نقاش. ويأتى ابن الأثير فى مقدمة الذين أصدروا أحكاماً فى هذا الصدد يجدر بنا الوقوف أمامها ومناقشتها.

فقد ذكر ابن الأثير أنماطاً من ائتلاف التراكيب السجعية طولاً وقصراً، مقدّمًا - كما سبق أن ذكرنا - أربعة قوالب لوحداث سجعية لا يتجاوز مداها الفقرتين أو الثلاث، وما يهمنى فى عمل ابن الأثير هو تصنيفه وترتيبه لهذه القوالب على سلّم القيمة. فهو يرى أن السجع المتساوى الأطوال هو أشرف أنواع السجع منزلة، مسجلاً هذا الرأى ضمن جماليّة عامة للسجع، يعتبر بحق من أهم منظريها. يلى هذا القالب من حيث القيمة التركيب السجعى الثنائى الذى تكون فيه السجعة الثانية أطول قليلاً من الأولى طولاً لا يخلّ بالاعتدال فإذا جاءت السجعة القصيرة تالية للطويلة فذلك عند ابن الأثير عيب فاحش.

وقد أثارت أحكام القيمة التى أصدرها ابن الأثير - فى هذا الصدد - احتجاج واحد من النقاد العرب المحدثين؛ إذ اتخذ محمود المسعدى موقفاً مخالفاً ابن الأثير فى أحكامه، ولا سيما فيما يتعلق بمبدأ الاعتدال. فلم يكن المسعدى من المعجبين بالإفراط فى التساوى العددي، فعنده أن "الإفراط فى الانتظام والتعادل والتوازي يجعل السجع جامداً رتيباً، ويدخل عليه نوعاً من التنغيم الآلى الراكد".^(١) كما أنه يخالف ابن الأثير فى أحكامه المتعلقة باهتزاز المسافة الإيقاعية، حيث يرى أن طول الفقرة الأولى وقصر الثانية يورث الكلام سهولة وانسياباً، وأن قصر الأولى وطول الثانية يورث الكلام إجهاداً وتقطعاً. "وإنما اختلف الرجلان لاختلاف منطلق البحث فى السجع عند كل منهما. فأساس السجع فى نظر "ابن الأثير" الوحدة الخطيّة المحققة وما عداها تابع لها، وأساسه

(القرآن: ينابيع الوحي الإلهي، البنية الإيقاعية فى السور المكية) وقام بعرضها والتعليق عليها د. لبيب السعيد. ويهمنى بالخصوص من بين لوحاته القياسية التى قدمها تحت عنوان "ما هو ذو دلالة خطيّة". يهمنى النظر إلى لوحة "التناغم" التى من مهامها قياس المسافات، ومعرفة قيمها النغميّة مع إشارات بسيطة إلى ما تقدّمه للدلالة.

(١) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٣٨.

فى نظر المسعدى وحدة التنفس العادية وأما وحدات الكلام فتابعة لها^(١). ويحتاج ذلك الجدل منا إلى تدقيق نظر ربما مكن من حسمه لصالح أحدهما، ولعله يأتى برأى جديد فى ضوء دراسة السجع القرآنى.

وأول الأمور التى يلزم مراجعتها حكم القيمة الذى أصدره ابن الأثير لصالح السجع المتساوى الأطوال فقد كان المنتظر بناء على رأى ابن الأثير أن يكون تساوى أطوال الآيات ظاهرة واضحة كل الوضوح فى السجع القرآنى، وعميقة كل العمق فى بنائه الفنى. أى يكون التساوى هو القالب المفضل لأسلوب السجع القرآنى، ولكن يظهر من نتائج العينة التى قام البحث بكتابتها كتابة صوتية - فيما سبق - والتى بلغ مقدارها ١٤٢٢ آية مقسمة إلى ٤٠٢ وحدة سجعية يتراوح محتواها ما بين فقرتين وأربع عشرة فقرة - يظهر من العينة ما يأتى:

أولاً: أن الوحدات التى اشتملت على سجعيات متساوية الطول كانت أقل ظهوراً فى القرآن الكريم؛ فعددها لم يتجاوز اثنتين وعشرين وحدة، أى بواقع ٥,٤٧% من نسبة الوحدات المدروسة، وفى حالة إدخال السجعيات التى بينها فارق مقطع واحد فى حكم السجعيات المتساوية فإن العدد يرتفع إلى ثلاث وأربعين وحدة أى بنسبة ١٠,٦٩% ويبلغ عدد الوحدات السجعية التى حدث داخلها تساوى جزئى فقط بين بعض من آياتها ثمان وعشرين وحدة، وهى نسبة تصل إلى ٦,٩٦% من جملة الوحدات.

ثانياً: تختلف السور المدنية عن السور المكية من هذه الناحية؛ فالتوازن الإيقاعى الناتج عن التتابع المنتظم لنفس الكم المقطعى يبرز فى السور المكية - وبخاصة فى الجزء الثلاثين - ويشتدّ عنه فى السور المدنية. فإن نسبة الوحدات التى يجمع بين أجزائها توازى كمى تصل فى القرآن المكى إلى ٩٤,٢٩% من مجموع الوحدات التى حدث داخلها التوازى الكمى المقطعى بكافة أنواعه.

ولو رحنا نتبع المجال الدلالى لسياق الكلام، أو المقامات التى حظيت بإيقاع عددي نابع من توازى المسافات لتكشف لنا أن أكثر ورود ذلك القالب جاء فى

(١) مقال: مدخل إلى تحليل "المقامات اللزومية" للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى، حويات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص ١٤٠.

مقام ذكر نعم الله سبحانه وتعالى وفضائله على عباده، والتي تذكر بآيات الله في الآفاق، وتلفت الأنظار إلى مشاهد الكون ونواميسه، وتعرف ما ينتظر العباد في الآخرة. كما ورد توازي المسافات في سياق الضراعة والنجوى، وقد ورد كذلك في سياقات التهديد والوعيد التي يعمد فيها النص إلى الاتكاء على التأثير السمعي للردع والزجر. وإذ يتابع المرء هذه السياقات يستطيع أن يستنتج لماذا كان أكثر وقوع التساوي العددي داخل السور المكية.

وبما أن الإحصائيات دالة بخصوص تواتر الاستعمال، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن نوعيّة المجالات الدلالية لسياق الكلام هي التي تبعث على كل اختلافات الشكل في الكم المقطعي. فهل يوجد ما يسمح بالبرهنة على أن توازي المسافات يناسب سياق الضراعة والنجوى، وسياق التهديد والوعيد، وبقيّة السياقات المذكورة عاليه، وأن اهتزازها يناسب السياقات الأخرى في الخطاب القرآني؟ ليس ثمة ما يُعتمد عليه لتوكيد هذا التناسب، إذ لو كانت بعض السياقات لا يناسبها سوى ضرب بعينه من التشكيل المسافي، لوجدنا السورة القائمة على التهديد والوعيد -مثلاً- لا تبرح التوازي المسافي، لكن ذلك لم يقع. فأنماط التشكيل المسافي قد تنوّعت داخل السياق نفسه، فجاءت المسافة الإيقاعية متوازنة حيناً، واهتزت حيناً آخر. ومن ثم نخلص إلى أن الأشكال المجردة تتسع لكل السياقات ولا تختص ببعض دون آخر.

يبقى تساؤل يطرح نفسه علينا: ما العامل الذي يحدد نموذج الأطوال في السجع القرآني؟ يبدو أن ذلك العامل لا علاقة له بمسألة الاستحسان لقالب شكلي دون غيره، وإلا لحرص النص القرآني على تنسيق المسافات وفقاً لما يشتهي للكلام من تناظر وتوافق إيقاعي، وهذا ما لم يحدث.

لا يمكن - إذن - تقويم نموذج الأطوال في علاقته بأحوال الخطاب ومقاماته، كما لا يمكن تقويمه في علاقته بمطالب المتلقى ورغباته، فما زال التشكيل المسافي في السجع القرآني يحتفظ بأسراره التي يُمكن استكشافها تاركين النص نفسه ينبئ عنها.

تبين من القراءة الفاحصة للسجع القرآني أن نموذج الأطوال في كل وحدة سجعية قد جاء مقصوداً، فالملاحظ أنه جاء تابعاً للمعاني يتكيف بشكلها فإذا توازت المعاني وتزاوجت؛ تزاوجت وتناظرت المسافات مثلها، وإذا استرسلت

استرسلت مثلها. ولنتأمل -على سبيل المثال- قوله تعالى ﴿لَا أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(١). نلاحظ أن هذه الوحدة السجعية تشتمل على سلاسل متسقة من الجمل المتوازنة في المعانى، وقد جاء هذا التوازي مصحوباً بتوازٍ آخر في البنية النحوية. ويبدو أن هناك ترابطاً ثلاثياً؛ فحضور التوازي في المعانى والتناظر في التركيب استتبع حضور التوازي في الأطوال، إذ لم يزد عدد المقاطع الصوتية في أية منها عن ثمانية مقاطع.

والنماذج الدالة على تحقق الملحظ السابق وتجليه في القرآن الكريم كثيرة، منها أيضاً قوله تعالى من سورة الفلق: ﴿مُؤْمِنٍ شَرٍّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾^(٢)؛ فالارتباط متحقق بين التوازي المسافى والتوازي المعنوي^(٣).

وهناك أيضاً مجموعة من الوحدات السجعية التى بنيت شكلياً على أساس التساوى العددي، ولكنها قد تورط فيها الموازنة المعنوية بينما برز ملحظ جديد،

(١) سورة الشرح: ١ - ٤.

والتقطيع الصوتي لهذه الآيات هو:

(٣ ٣ ٧ ٧ ٢ ٣ ٧ ٧، ٣ ٣ ٧ ٧ ٣ ٢ ٧ ٣، ٣ ٣ ٧ ٣ ٢ ٣ ٧ ٧، ٣ ٣ ٧ ٧ ٣ ٣ ٣ ٧)
(٨) ، (٨) ، (٨) ، (٨)

وهذا التقطيع يراعى الوقف على أواخر الفواصل.

(٢) سورة الفلق: ٤ - ٥.

(٣ ٧ ٢ ٧ ٣ ٧ ٢ ٧ ٣ ٣ ٧، ٣ ٧ ٣ ٧ ٢ ٢ ٣ ٣ ٣ ٧)
(١١) ، (١١)

(٣) وجدنا حالات نادرة ينكسر فيها التوافق بين المزاوجة في المعنى والتساوى العددي، حيث يكون الفارق بين التراكيب السجعية فارق مقطع أو مقطعين ومع ذلك فهي متزاوجة معنويًا ونحويًا. وفي اعتقادي أن هذا لا ينفي ما قلناه عن ارتباط التساوى العددي بالمزاوجة المعنوية، فالتوازي -هنا- لا يتم إلا بدخول طرف إضافي. إنه لا يأتي من ناحية العدد فقط، وإنما يأتي من ناحية المدى الذى تستغرقه كل آية فى الزمن، وهذا أمر لا يحسمه عدد المقاطع الصوتية فحسب، بل يحدّد بنوعيتها.

١- وحدات سجعية جاءت فيها. العبارات المسجوعة المتوالية على الكم المقطعي نفسه، والبنية الصرفية، والتركيب النحوي، يجمع بينها توازٍ معنوي. مثل قوله تعالى: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا، فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾^(١)

(٨) مقاطع ، (٨) مقاطع
 وقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ،﴾
 (٩) مقاطع ، (٩) مقاطع

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ؟ (٧)
 ٣٧٣ ٣ ٣٧٣٧ ، ٣٧ ٣٧٧٧٣ ٧٧ ، ٣٧٧ ٧٢٧٣٧٧
 (٩) مقاطع ، (٩) مقاطع ، (٨) مقاطع

٢- فى كثير من الأحيان يكون الازدواج فى المعنى والتركيب دون البنية الصرفية، مثال قوله تعالى:

٥ ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا، وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٣)

٣- وفي حالات أخرى لا تتال الوحدات من الأشكال المولدة للإيقاع غير تساويها العددي وتوازيها المعنوي فحسب، مثال قوله تعالى:

٥ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
 (١٧) مقطعا ٤ ٧ ٣ ٢ ٢ ٢ ٣ ٧ ٢ ٧ ٢ ٧ ٧ ٢ ٣ ٢ ٣
 ٥ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْخَجُوبُونَ﴾^(٤)
 (١٧) مقطعا ٤ ٢ ٣ ٧ ٣ ٧ ٧ ٣ ٣ ٧ ٣ ٣ ٣ ٧ ٣ ٢ ٣

٤- وأحيانا لا يتكرر الكم المقطعى نفسه فى سلسلة العبارات المسجوعة من أولها، بل فيما بعد مبدئها، وذلك هو نوع الوحدات التى تبدأ بعبارة افتتاحية أو

(١) سورة العاديات: ٤ - ٥.

(٢) سورة المرسلات: ٨-١٢.

(٣) سورة النبأ: ١٩ - ٢٠.

(٤) سورة المطففين: ١٤ - ١٥.

٥- وقد يكون التوازي المعنوي قائماً على المقابلة، وهو ما نسميه توازي الأضداد ومثله قوله تعالى: ﴿لَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾،

٣٧ ٣ ٣ ٣ ٧ ٣ ٧ ٢ ٣ ٣ ٣ ٣ ٧

(١٤) مقطعا ،

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١)

٣ ٧ ٣ ٣ ٣ ٧ ٣ ٧ ٢ ٣ ٣ ٣ ٣ ٧

(١٤) مقطعا

٦- يبقى شكل أخير من أشكال ارتباط التساوي العددي بالتوازي المعنوي، وذلك النمط فيما يلحظ من أكثر أشكال التوازي المسافي تعقيداً أو تركيباً. يقول الخالق عز وجل:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، → توأم (١)

توازي أضداد	توازي أضداد	توازي أضداد
(١) ٣ ٧	(٢) ٣ ٧	(٣) ٣ ٧

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى^(٢) → توأم (٢)

٢ ٣ ٣ ٧ ٧ ٧ ٣ ٧ ٧ ٧، ٢ ٣ ٣ ٧ ٧ ٣ ٧، ٢ ٧ ٣ ٢ ٣ ٣ ٢ ٣ ٧

٢ ٣ ٣ ٧ ٧ ٧ ٣ ٧ ٧ ٧، ٢ ٣ ٣ ٧ ٧ ٣ ٧، ٢ ٣ ٣ ٧ ٧ ٧ ٣ ٢ ٣ ٧

ولا يزعم البحث السابق بمعرفة هذا الشكل أو باكتشاف وجوده في النص القرآني الذي لا يتجلى إلا للمتأمل. فقد أشار إليه -من قبل- ابن أبي الإصبع المصري المتوفى (٦٥٤هـ - ١٢٥٦م) ووضعه تحت مسمى "توأم"^(٣). ولا تجد الباحثة ما يمنع من استخدام المصطلح نفسه؛ فلا شك أن ابن أبي الإصبع قد

(١) سورة الزلزلة: ٧ - ٨.

(٢) سورة الليل: ٥ - ١٠.

(٣) انظر: تحرير التحرير، ابن أبي الإصبع، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣، ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

نجح في استعارة اللفظ المناسب.^(١) والناظر في المثال السابق يدرك التوأمة الحادثة بين الآيات الثلاث الأولى والآيات الثلاث الأخيرة، حيث نجد أن الآية الأولى تتحد في الطول لا مع ما يليها في التوأم نفسه، بل مع الآية الأولى من التوأم الثاني، تماماً كما يتحد طول الآية الثانية من التوأم الأول مع طول الآية الثانية من التوأم الثاني، وهكذا.

٧- ونرصد طائفة أخرى من الوحدات السجعية التي تساوت تراكيبها تساويًا عددياً، أو التي كادت تبلغ حد التساوي بفارق مقطع واحد، والتي تعد بمثابة جملة واحدة جاء الاستئناف فيها للإبانة، حيث تؤدي السجعة الثانية إحدى الوظائف التوضيحية التي ذكرناها قبل قليل. فتكون حالا، كما في قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(٢).

(٣٧٣٧٧٢٧٣ ٧ ٧٣، ٣٧٣٧٣ ٢٧٧٧٢٧٣)

(١٢) مقطعا ، (١١) مقطعا

فإن الآية الثانية هنا تعد حالاً من الضمير في الجمع.

- وقد تكون نعنا كما في قوله عز وجل: ﴿يَأْيُذِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^(٣).

(٣٧٧٣ ٢٧، ٣٧٧٢ ٣٧)

(٦) مقاطع، (٦) مقاطع

(١) إلا أن أبي الإصبع يصب اهتمامه على المزدوجات بوجه خاص، ويشير بدراسته لهذا الشكل إلى إمكان وجود صورة أخرى لانتلاف التراكيب السجعية، صورة لا تتأسس على شرط التوالى في التعبير، وإنما تتأسس على شرط التوازي في الطول، ويُمثّل لذلك بقوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟ يَرْسِلُ عَلَيْكُمَا رُسُلًا مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟﴾. وبناء على شرحه فإن كل مزدوج، وإن انفقت آياته في الفاصلة إلا أن التركيب السجعي لا يتم داخل المزدوج نفسه، فالآية الأولى -فيما يرى- لا تتفق في الفاصلة مع الآية الثانية من المزدوج نفسه، بل مع الآية الأولى من المزدوج التالي، بالضبط مثلما أن الآية الثانية من المزدوج تتفق في الفاصلة مع الآية الثانية من المزدوج التالي.

(٢) سورة الهمزة: ٢-٣.

(٣) سورة عبس: ١٥-١٦.

(۱۰) مقاطع

(۱۱) مقطّعا

وَإِذَا مَسَّهَ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ (۱)

۷ ۷ ۳ ۳ ۷ ۳ ۲ ۷ ۷

(۱۱) مقطّعا

والواقع أن الموازنة الإيقاعية التامة التي تحدّث عنها المسعدى، وقابل البحث أمثلة كثيرة منها، هذه الموازنة لا تظهر في القرآن إلا في إطار التوازي المعنوي؛ وإن كان ليس أمراً مطرداً أن ينتج عن كل تأخ في المعنى موازنة تامة. وبعبارة أخرى: إن تساوى الفقرات عددياً لا يصحبه حتماً موازنة إيقاعية تامة.

(٣) راجع -على سبيل الأمثلة- المثال رقم (١)، ومثال رقم (٥)، مثال (٦).

والعلاقة بين الموازنة الإيقاعية والإيقاع العددي^(١) في القرآن تأخذ شكلين:
الأول: وحدات سجعية تتفق آياتها اتفاقاً تاماً (من حيث عدد المقاطع، والوزن الإيقاعي، والمعنى والتركيب).
الثاني: وحدات سجعية مبدوءة بقاسم مشترك يليه فقرات متوازية عددياً ومعنوياً ومتوازنة إيقاعياً.

هذا عن مناقشة حكم القيمة الذي أصدره ابن الأثير لصالح السجع المتساوي الأطوال، مناقشة اعتمدت ما يتجلى في النص القرآني، وتتصل المشكلة الثانية بالوحدات السجعية المؤسسة على تباين الأطوال؛ أى بكل من القالبيين الثاني والثالث. ويمكن إعادة السؤال مجدداً: هل تجد أحكام القيمة التي أصدرها ابن الأثير في هذا الشأن تأييداً في ضوء دراستنا للسجع القرآني؟

تسمح النتائج التي يوفرها إحصاء الأطوال في النص القرآني بعدم الاتفاق مع ابن الأثير في أحكامه المتعلقة بالقالبيين الثاني والثالث كذلك؛ فقد ذهب إلى أن طول السجعة الثانية عن الأولى يُعدّ فضيلة، وأن قصرها يعدّ عيباً فاحشاً. ولكن هذه الأحكام الانطباعية لا تجد لها تأييداً في السجع القرآني؛ والبرهان على ذلك أن خمساً وأربعين وحدة سجعية فقط من مجموع مائة وسبعين، أى ما يربو على الربع بقليل، هي التي تحتوى على آيات تكون فيها السجعة الثانية أطول من الأولى. أما بخصوص الوحدات المزدوجة المنتهية بسجعة قصيرة فقد بلغت تسعين وحدة، وهي نسبة تصل إلى ٥٢,٩٤%. وتظل هذه النسب قارة تقريباً إذا أضفنا إلى الإحصاء قيمة الوحدات الثلاثية المنتهية بسجعة طويلة، والمنتهية بسجعة قصيرة.

وإن المرء ليعجب من رؤية مثل هذه الأحكام وهي تستقر في الخطاب النقدي بالرغم من أن النص المعجز لا يؤيدها. فالنظر في نص القرآن الكريم

(١) الإيقاع العددي: هو الإيقاع الناتج عن تساوي كمّي في عدد المقاطع التي تتكوّن منها كل آية. أما الموازنة الإيقاعية التامة: فهي اتفاق الآيات في عدد المقاطع الصوتية ونوعها وترتيبها.

يمثل عاملاً مساعداً على مراجعة وتصحيح بعض الأفكار القديمة بعناية.

ولئن كانت هذه الأحكام مبررة بالنسبة لابن الأثير تبريرات تقوم على دعائم نفسية وإيقاعية، فإن البحث يتمسك بالدخول إلى قانون النص اعتماداً على بنائه، حيث يتكشف: لماذا يوظف النص هذا القالب أو ذاك دون غيره؟ ما القانون الذى يوجه هندسة المسافات فى السجع القرآنى، ويتحكم فى توظيف القالب الشكلى المستخدم؟

هندسة المسافات يوجهها مبدأ يسود النصوص عامة، هذا المبدأ بدا واضحاً لمحمد الهادى الطرابلسى أثناء دراسته لمقامات السرقسطى؛ إذ يقول: "لكل حالة من التفاوت فى المدى بين الفقرتين إيقاعاً خاصاً. فتهدج الصوت فى حالة قصر الفقرة الأولى وطول الثانية، وانسيابه فى الحالة المعاكسة من قبيل العوامل التى تتوَع الإيقاع وتلون النبرة فيه بحسب ما تقتضيه معانى الكلام، وليس تَهْدَج الصوت مَخْلاً بالإيقاع ولا انسيابه محققاً له بالضرورة".^(١) القانون الذى يحكم توزيع الأطوال يتضح من خلال عبارة الطرابلسى السابقة "بحسب ما تقتضيه معانى الكلام". ولقد تبين فيما مضى من صفحات أن التوازي المسافى يأتى موظفاً فى خدمة الإيحاء بالمعنى وإبراز هوامش الدلالة.

تدرج البحث حتى الآن معتمداً على فرضية أساسية. مفادها أن كل ما خُطَّ فى القرآن لم يكن كذلك إلا لكى يحمل قيمة ما، ويؤدى غاية محددة قد تكون إيقاعية أو دلالية أو كليهما. من ثم تمتد الفرضية إلى البناء الشكلى الذى بدا أنه أحد الوسائل التى وظفها النص لا ليحمل دوراً إيقاعياً فحسب؛ بل بحسبانه يشف عن المعنى الكامن فيه.

كان التحرك التحليلى فى هذا الفصل خالصاً للسجع ورصد مدى توظيفه فى النص القرآنى وظواهره الأسلوبية على المستويين: الصوتى والشكلى. ولاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى كان لابد من التوجه إلى درب تحليلى جديد يرصد من خلاله السمات الأسلوبية للسجع القرآنى التى تفرزها علاقة ارتباط اللفظة المسجوعة بسياقها على كافة المستويات؛ فالعلاقات التكوينية الرابطة بين

(١) مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى، ص ١٤٠.

المفردة والتركيب تنقسم إلى: علاقات سياقية نحوية، علاقات سياقية دلالية، علاقات سياقية صرفية، وهذه هي المستويات الثلاثة التي سيتناولها البحث بالدراسة في الفصل الآتي.

الفصل الثالث

السجع القرآني

[١] العلاقات السياقية النحوية

[٢] العلاقات السياقية الدلالية

[٣] العلاقات السياقية الصرفية

السجع والسياق:

تناول السجع القرآنى فى علاقته بالسياق اللفظى أمر مهم لاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى، فالنص نظام من المعانى تمت (برمجتها) فى نظام الشفرة اللغوية،⁽¹⁾ وفى ضوء هذا التعريف يبدو جلياً أن المسألة ليست ميلاً إلى حضور السجع فى النص أو غيابه، كثافة ذلك الحضور أو ضآلته، المسألة تخص كيفيات أداء مضمون عبر صيغة تستوعب محور الدلالة كما تستوعب هوامشها؛ ومن ثم يفترض أن اللفظة المسجوعة بوصفها دالا- إنما اتخذت موقعها من الصياغة بما يلائم التعبير عن الدلالة المرادة محوراً وهامشاً، وبما يخدم غرضاً وظيفياً فى إطار سياق مقامى ما، فإذا يمارس الوعي فاعليته فى النص فإن الحضور السجعى يكون بالضرورة مبرراً دلالياً؛ ذلك أن الدلالة تفرض اختيارات لفظية بعينها، وتجرى تحويلات على تركيب هذه الاختيارات وتوزيعها فى السياق بحيث تأخذ كل كلمة مكاناً مناسباً فى البناء اللغوى وهذا ما يهب موقع اللفظة المسجوعة قيمة دلالية إضافة إلى القيمة الجمالية الإيقاعية.

وتطرح هذه الرؤية على المستوى البحثى إجراءات تطبيقية يناط بها متابعة الوعي فى حركة الأداء اللغوى القرآنى وكيف يكون الوجود السجعى ناتجاً من نتائج القصدية. والأساس الذى نعلق عليه استجلاء هذا الأمر هو الانطلاق من المعنى المحصور فى المفردات إلى السياق، للكشف عن شبكة العلاقات التى يفرضها السياق بالتواصل مع اللفظة المسجوعة لتنتج دلالة سياقية تنبثق انطلاقاً من موقع اللفظة المسجوعة فى محيطها اللغوى.

ولم يكن الجهد البلاغى والتفسيرى القديم غافلاً عن حقيقة العلاقات الجدلية بين السياق اللغوى ومكوناته، فصحيح أنه ناتج حركتها الأمامية

(1) See: Language, context and text, M. A. K Halliday and Ruqaiya Hasan: Aspects of language in social- semiotic perspective. Oxford university press, Oxford. 1985. p.10.

المؤكددة لملاحه، لكنه بالبرغم من هذا ليس مجرد امتداد خطى لتركيب المفردات، إنه يمتلك فى الوقت ذاته قدراً فاعلاً من الكفاءة لإبراز دلالاتها الجديدة وقد دخلت مع بعضها البعض فى علاقات تواشج، يضاف إلى ذلك ما للسياق من قيمة مساعدة فى تفسير وإيضاح أهمية شكل أدائى فى التعبير عن مضمون بطريقة يكون لها أثرها البالغ فى الإفصاح عنه.

ولقد كان البحث عن علة استخدام الشكل البلاغى هو سؤال المفسرين والبلاغيين الذى أفرز محاولات كاشفة عن الغرض أو الأغراض الأصلية للأشكال البلاغية الموظفة فى القرآن الكريم، وتناولوا تحت ذلك السؤال صوراً من العدول مرتبطة بالفاصلة القرآنية، والسؤال عن العلة صاحبه فى عدد من النماذج التطبيقية متابعة دقيقة لخلق ونمو السياق ثم إعادة الارتداد به إلى مكوناته لإغنائها وتفسيرها، والكشف من خلاله عن كيفية احتضان التراكيب للمفردات، والمبررات التى سمحت لحرية التنفيذ اللغوى أن تأتى -أحياناً- بتركيب مخالفة لنظام اللغة وقواعده المقررة.

وبرغم ما يلحظ من وعى بلاغى بقيمة السياق، ومن إدراك لدوره وما يمتلكه من فاعلية تفسيرية يعتد بها فى إعادة إنتاج معنى الفاصلة القرآنية، فإن إلقاء الضوء على اللفظة المسجوعة ضمن سياقها اللغوى، كان يفتقد إلى الدراسة المنظمة المتوالية، وإنما كانت تأتى إشاراتهم إلى هذه المسألة فى بعض الآيات القرآنية متناثرة لا تخرج عن كونها مجرد ملاحظات تساق هنا وهناك مرتبطة ببعض سياقات علم المعانى كالحذف، والتقديم إلى آخره، دون أن ترقى إلى مستوى النظرة الشاملة، باستثناء ما فعله ابن الصائغ الحنفى حين جمع أربعين موضعاً للفواصل القرآنية مما خالف الأصل اللغوى، ومن خلالها نستطيع التعرف على بعض السمات الأسلوبية فى هيكل أسلوب السجع القرآنى، لكنها بقيت إشارات وصفية اكتفى أغلبها بالرصد والتصنيف اللغوى وفقاً لما هو عادى فى نظام اللغة وما هو عدول عنه دون التعرض إلى تحليل العمليات التى يتم بموجبها تكوين العبارة السجعية وبنائها فى تركيب لغوى ظاهر، أى عمليات الترابط بمستوياته (النحوى والصرفى

والدالالي) التى تنتج عنها الائتلاف بين مكونات الجملة حتى ينشأ المعنى الدالالى العام المستفاد. وقيمة التوجه إلى تحليل العمليات التكوينية الرابطة بين المفردة المسجوعة والسياق تنأتى من أن صورة الترابط بينهما، وما تكون عليه من موافقة ومفارقة لنظام اللغة، إنما تعكس إجراءات النص التخطيطية لإحراز الدلالة بمحورها وهوامشها إلى جانب إحراز الإيقاع، حيث ينبثق عن توحى هذا الهدف اختيار النص بنية صياغته محددة من بين بنيات عديدة تتيحها العربية للتعبير عن البنية المضمره نفسها. وأحسب أن إعراض ابن الصائغ عن مثل هذه المتابعة التركيبية، هو السبب المباشر فى قبوله أن تكون المناسبة بين رعوس الآيات التوجيه الأول لمسألة الترخص فى بعض الفواصل القرآنية وعدولها عن الأصل اللغوى.

ودراسة اللفظة المسجوعة من حيث علاقتها بالسلسلة السياقية السابقة عليها تفرض إجراءات تحليلية، بغية تحقيق هدف الدراسة المنهجية الأول، وهو تقديم تحليل يصل إلى الشمول أو يكاد ويتضمن فى الوقت ذاته أهم أساسيات المنهجية ألا وهو عنصر التنظيم. فلولصول إلى هذا الهدف رأى البحث دراسة العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردة المسجوعة والتركيب، وهى علاقات (نحوية، وصرفية، ومعجمية)، وانطلاقاً من ذلك التصنيف وضع البحث ضمن خطته تناول هذه العلاقات الواحدة تلو الأخرى، ولم يلجأ البحث إلى هذا التقسيم إلا تحقيقاً للجدوى التحليلية؛ إرادة أن يتمكن من ملاحظة الخيارات النظامية الأساسية والثانوية فى النص من كل وجهة، ومتابعة مدى الارتباط بين الصيغة التعبيرية التى تمثل الجانب المادى من الحدث الكلامى والدلالة المرادة التى تمثل الجانب التجريدى المحض. والسرفى التحرك على هذه المستويات التكوينية الثلاث هو أن الوحدة المعجمية حين تنتظم مع مثيلاتها فى سبيل تكوين عبارة "إنما تنتظم وهى مشحونة بسمات دلالية، وسمات صرفية، وسمات نحوية، وقيود توارد (أو قيود انتقائية) وكل أولئك عناصر تكون المدخل المعجمى للوحدة المعجمية"،^(١) بناء

(١) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، الشركة

المصرية العالمية، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ص١١٢-١١٣.

على هذه السمات يتعين وجود ثلاثة أنواع تركيبية من العلاقات لا تخلو جملة من حدوثها بين وحداتها المكونة، وهى:

- أ-علاقات نحوية سياقية.
- ب-علاقات تلاؤم دلالى.
- ج-علاقات تلاؤم صرفى.

فإن كل جملة هى بنية عناصرها هذه العلاقات المعنوية مجتمعة وبناء على ذلك يمكن دراسة الخصائص الأسلوبية الناتجة عن علاقة اللفظة المسجوعة بمفردات السياق فى ثلاثة مستويات:

- أ-مستوى العلاقات السياقية النحوية.
- ب-مستوى العلاقات السياقية الدلالية.
- ج-مستوى العلاقات السياقية الصرفية.

ويتصل بذلك دراسة كيفية احتضان التراكيب للمفردات المسجوعة ثم إعادة إنتاج معناها مرة ثانية، وهل يسير هذا الاحتضان وفق القواعد المنظمة لترتيب الكلمات على مستوى التركيب العربى مراعى العلاقات التوافقية بين عناصر الجملة على كل مستويات الوصف اللغوى، أى على المستوى: النحوى، والصرفى، والدلالى أم أن هناك أنماطاً طارئة من العدول كالاتجاه إلى إحداث علاقات تخالفية مقصودة بين المبتدأ والخبر، أو بين الصفة والموصوف مثلاً. أو كحدوث مفارقات فى العلاقات المعجمية التركيبية، وهى ظاهرة تبدو على الخصوص فى المجازات لغوية وعقلية. هذا إضافة إلى ملاحظة العدول الذى قد يحدث فى السلسلة السياقية من جهة الخروج على القواعد المنظمة لترتيب الكلمات بتقديم وتأخير، وزيادة أو حذف أحد عناصر الجملة.

[1] مستوى العلاقات السياقية النحوية

هذا المبحث هو متابعة للعلاقات السياقية النحوية الناشئة بين الفاصلة القرآنية المسجوعة والتركيب الحاضرة فيه، وكيف تهيأ للسجع أن يستقر فى موضعه من الصياغة. وتتحرك الدراسة وفى وعيها

الفرق الجوهرى بين الوظيفة النحوية، والمعنى النحوى، فوظيفة الفاعلية مثلاً ثابتة فى الصيغة النحوية، ولكن دلالة الفاعلية بوصفها معنى نحوياً تتعدد وتتجدد بتنوع الإبداع وبحسب ما يتسم به الفاعل من سمات صرفية ودلالية وقيود توارى، أهو مصدر أو اسم؟ نكرة أو معرفة؟ نكرة مخصصة أو غير مخصصة؟ وإذا كان معرفة فبأى الطرق تم تعريفه؟ وما هو معناه المعجمى؟ وما صيغة الفعل المسند إليه وما معناه؟ وهل هو فعل مطلق أو مقيد؟ وما نوع مقيده هل هو البناء للمجهول أو التأكيد، أو التعليق بظرف أو جار مجرور، أو التعدية إلى المفعول؟ وهل الجملة من الفعل والفاعل مقيدة أيضاً وما نوع مقيدها؟ أهو الاستفهام أو النفى أو الرجاء أو التمنى أو القيد الزمنى؟ وهل تدرج الجملة ضمن عناصر جملة أخرى؟ ثم هل لابس التعبير شىء من اختلاف الرتبة بالتقديم والتأخير؟ أو اكتتفه شىء من الحذف أو الزيادة؟ هذه كلها أسئلة ينبغى أن تطرح حين التصدى لدراسة التركيب النحوى ومعانيه النحوية الوظيفية.

هناك إذن حقيقة لا يمكن تجاهلها تؤكد لها التساؤلات السابقة، وهى وثيقة العلاقة بين المستوى النحوى وسائر أنظمة اللغة، فبنية الجملة النحوية بمثابة مرآة تبرز كيفيات تعليق المعانى فى ذهن المتكلم "ولما كان النظام النحوى هو النظام التركيبى الوحيد فى اللغة، ولما كان هو المسئول عن بناء الجملة بحيث تؤدى معنى واحداً، كان ذلك النظام هو صاحب السلطان على سائر الأنظمة فى اللغة؛ بل إن اللغة لم تنشأ سائر الأنظمة إلا من أجله. فهى جندت النظامين الصوتى والصرفى ليصوغا له صيغاً متعددة الاحتمالات فى الاستعمال النحوى، ثم استودعت المعجم تلك الصيغ لتكون رهن إشارة النظام النحوى حين يطلبها"^(١).

وباختصار فإن تناول العلاقات السياقية النحوية للفواصل المسجوعة عمل مركز حركته النحو، لكنه مدفوع للاتكاء على معلومات غير نحوية تمثل أدوات مساعدة تتدخل بكل قدرتها فى استخلاص دلالة

(١) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، ص ١٣١.

المعنى النحوى للفظ الختامى المسجوع فى إطار علاقته النحوية الأفقية، ذلك تمهيداً لمتابعة أسلوبية تتحرك رأسياً خلال القرآن بأكمله، لكشف ظواهره النحوية المتكررة فى موضع الفاصلة تلك التى من جانبها توفر للقرآن على مدى إفضائه الفكرى وعبر أجزائه القرآنية المتعددة، حداً من التماسك الداخلى الذى نزع النص إليه، متوخياً التركيز على عدد من الخصائص الأسلوبية الثابتة فيه التى تصنع تناصه الداخلى بما يؤكد علاقة نصوصه أو بتعبير أوضح بما يؤكد علاقة سورته بعضها ببعض الآخر بوصفها بنية دالة شاملة تشكل كيان النص القرآنى.

وقد وقع اختيار البحث على سورة الزخرف لتكون نموذجاً يلاحظ فى حدوده العلاقات السياقية النحوية بين الفاصلة المسجوعة وسياقها، مستخرجاً من ذلك الحيز الضيق - فى نطاق هذه السورة - تراكيب يختبر كمياً قدرتها على أن تمثل ظواهر نحوية فاعلة فى النص القرآنى؛ بمعنى أنها تتجلى أسلوبياً فى منطقة الفاصلة المسجوعة على مدار النص بكامله.

تحليل نحوى لفواصل سورة الزخرف:

سورة الزخرف هى إحدى السور المكية التى تعالج ضمن ما تعالج القضية الكبرى والأساسية فى الدين الإسلامى "قضية العقيدة" فى قاعدتها الرئيسية الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة. ويقوم بناؤها على تسع وثمانين آية، منها عشر آيات غير داخلية فى عداد السجع، وهى: [١، ٤، ٩، ١٧، ٣١، ٤٣، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٨٤]. ويلاحظ من خلال المتابعة المبدئية للسورة أن التشكيل التركيبى للفاصلة المسجوعة فى الجملة القرآنية أخذ ثلاثة مظاهر، وذلك من حيث مساحة تعينه من الآية، وعلاقته بالمعنى أو المعانى الرئيسية فيها، وهذه المظاهر تحقق حضوراً فى النص بكامله على النحو الآتى:

أ- أن تكون اللفظة المسجوعة عضواً فى جملة أتت بمثابة تعليق بعد تمام معنى أو معان رئيسية فى الآية فتؤدى هذه الجملة وظيفية التعليل أو الإنكار، أو التوكيد أو الترغيب أو زيادة الإيضاح ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ

لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُخَصَّنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا^(١) تعتبر لفظة حكيمًا جزءاً من جملة مستقلة تركيبياً ۞ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وقد كانت هذه الجملة بمثابة تعليق على الآية جميعها.

ب- وقد تكون اللفظة المسجوعة كلمة مكملة لمعنى الآية التى هى فيها معمولة من حيث الحكم النحوى لعامل تقدّم فى بناء الآية قبل استيفاء معناها، وإذا وردت الفاصلة فى هذه الحالات جملة فهى جملة قصيرة قد اكتفى فيها بذكر أحد أركانها ويترك لسبل التداعى الذهنى ملاحظة المضمّر - وخير شاهد على ذلك السور ذات الآيات القصار، كالنجم، والواقعة، والقمر، والرحمن وغيرها.

ج- وقد تكون اللفظة المسجوعة كلمة مكملة لمعنى آية سابقة امتدت هيمنتها النحوية لتشمل الآية التالية حيث تكتمل الجملة، مثال قوله تعالى: ۞لَوْ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مَذْهَامَتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ^(٢) ۞ هكذا تتصل كلمة مدهامتان نحويًا بقوله تعالى ۞لَوْ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۞. إذ تمثل صفة تقدّم موصوفها (جنتان) فى هذه الآية.

* * * *

وتبدأ مقدمة (سورة الزخرف) بعد الحروف المقطعة (حم)^(٣)، بمعنى نحوى عام هو "القسم" الذى يتحرك أثره أفقياً ممثلاً عامل ربط يحقق التماسك على مستوى أعلى من مستوى الجملة الواحدة والآية الواحدة - مستوى نصى - ذلك بإنشاء توكيد للكلام يقوم على عنصرين يتوزعان فى ثلاث آيات، الآية الأولى: تتضمن تحصيناً للخبر اللاحق من تردد المخاطبين فى تصديق مضمونه أو

(١) سورة النساء: ٢٤.

(٢) الرحمن: ٦٢ - ٦٥.

(٣) الزخرف: ١.

الشك فيه أو رفضه، ذلك باعتماد سلطة المقسم به - ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(١) - والمفترض الما قبلى هنا هو أن المخاطب أيضاً يؤمن بعظمة المقسم به، وبأنه آية كبرى يشهد لها من آيات الدين الجديد وإن عاند فى قبوله أو الدخول فيه. بيد أن القسم لا يستقيم بنفسه وإنما يفتر إلى كلام بعده يكمله هو (المقسم عليه)، فيأتى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٢)، محتوياً مضمون الخبر الذى يتوقع رفض المخاطبين له، فكان القسم قصداً إلى إحداث تغيير فى موقفهم بالتأكيد على صدق الخبر المقسم عليه. وهو من الأيمان الحسنة البديعة - على حد تعبير الزمخشري - "لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد، ونظيره قول أبى تمام وثناياك إنها إغريض"^(٣).

وتربط علاقة الوصفية الفاصلة المسجوعة "المبين" بسياقها المجاور "الكتاب". والعلاقة بين الصفة وموصوفها تنتج نوعاً من التلاحم القوى بين العنصرين، انتبه إليه كثير من القدامى فرأى ابن السراج أن "النعته والبديل هما الأول [أى المنعوت والمبدل منه]"^(٤) وقال سيبويه عن النعته والمنعوت أنهما بمنزلة الاسم الواحد^(٥) وقال السهيلي: "الحال هى صاحب الحال فى المعنى، وكذلك النعته والتوكيد والبديل كل واحد من هذه هو الاسم الأول فى المعنى"^(٦) وقال عبد القاهر: "اعلم أن الصفة

(١) الزخرف: ٢.

(٢) الزخرف: ٣-٤.

(٣) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري، ج٣، ص ٤١١.

(٤) الأصول فى النحو، ابن السراج أبو بكر محمد بن السرى البغدادي (ت ٣١٦هـ)، ت عبد الحسين الفتلى، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣١٩.

(٥) انظر: الكتاب، سيبويه، ج١، ص ٢٦٠.

(٦) نتائج الفكر فى النحو، أبو عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي المتوفى ٥٨١هـ، ت: محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤، ص ٣٨٧.

هي الموصوف في المعني". (١).

والواقع أنه يكمن في البنية المضمرة ضمير مستتر هو الذي يربط النعت المفرد "المشتق" بمنعوته، فالمشتق يدل على حدث مسند إلى صاحبه أو نائب عنه، وهو ما تؤديه علاقة الإسناد في الجملة الفعلية فالبنية المضمرة لقوله تعالى: (الكتاب المبين)، هي: الكتاب "يبين الكتاب".

لكن لما أريد للصفة ثبوتها وحصولها من غير أن يكون هناك مزاوله وترجية فعل جئ بالاسم المشتق الذي يحمل ضمناً ضميراً مستتراً يربط النعت بمنعوته ربطاً قوياً لا يجوز معه الفصل بينهما إلا بجمل الاعتراض كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُ لَقَسَمَ - لَوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمٌ﴾ (٢).

وتتعدد التراكيب الوصفية التي طرفها النعتى لفظ (مبين) حالاً في موضوع الفاصلة بحيث بلغت واحداً وتسعين تركيباً على مدار النص القرآني، تدور حول موصوفات محددة تكرر نعتها بذلك اللفظ. وهي الكلمات: عدو، سحر، نذير، ثعبان، ضلال، ساحر، سلطان، شهاب، إمام، خصيم، البلاغ، لسان، إفك، الحق، شيء، الفضل، غوى، إثم، بلاء، ظالم، الخسران، رسول، دخان، كفور، الفوز، الأفق، القرآن (الكتاب). وقد بلغت مرات وصف "الكتاب" بكونه مبيناً إحدى عشرة مرة، ويقدم السياق النصي لهذا التركيب الوصفي أكثر من إمكان دلالي، فهو علم الله، وهو اللوح المحفوظ المفصل لكل أمر وكل شيء وهو القرآن الكريم، وهو السورة من القرآن. إنه الكتاب "البيّن للذين أنزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليهم وقيل: الواضح للمتدبرين وقيل المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة". (٣).

(١) المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، ت: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، ج-٢، ص ٩٠٠.

(٢) الواقعة: ٧٦.

(٣) الكشف، الزمخشري، ج-٣، ص ٤١١.

وتعلن متابعة البنية التركيبية فى النص القرآنى عن توظيف علاقة الوصفية بشكلها المعيارى فى ٥٨٠ آية جاءت فيها الفاصلة المسجوعة نعتاً مناسباً لمنعوتة، وإذا كانت أجزاء القرآن ثلاثين جزءاً، فإن معدل التردد يبلغ تسع عشرة مرة تقريباً للجزء الواحد، ترتفع نسبة التردد إلى ٢٤ مرة إذا اعتبرنا أن الفاصلة فى مثل قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١) صفة وليست خبراً ثانياً. "فالحكيم" خبر ثان أو صفة للعلم على قول من أجاز صفة الصفة، ومنهم أبو البقاء العكبرى (٥٣٨-٦١٦ هـ) الذى أقر ذلك، إذ يقول: "وهو [أى القول بصفة الصفة] صحيح؛ لأن هذه الصفة هى الموصوف فى المعنى، والعليم بمعنى العالم، وأما الحكيم فيجوز أن يكون بمعنى الحكم، وأن يكون بمعنى المحكم"^(٢).

وبدل معدل التردد هذا على ميل إلى توظيف علاقة الوصفية فى الموضع الختامى للآيات، وهو ما يعنى توخى التحديد والتخصيص بما لهما من دلالة تأسيسية إذ تضيف الصفة زائداً دلالياً، هو عبارة عن تغلغل أعمق فى تفاصيل تتعلق بالموصوف، فيتم خلال ذلك توضيحه أو مدحه أو ذمه أو تأكيده أو الترحم عليه إلى آخره. والملاحظ أن النص القرآنى يزخر بكم من الصفات المتكررة التى تقع فى موضع السجعة واصفة لكلمات يمكن تصنيفها بوصفها دوالاً داخل حقول موسعة على النحو الآتى:

- الحقل الأول: الذى يأخذ نوعاً من الهيمنة هو حقل (جماعة البشر) وله مفرداته: قوم- إناس- شذمة- جميع- خلق ترددت هذه المفردات ستاً وثمانين مرة وسعته آتية من اتصال الموصوف الواحد - (قوم)- بسمات سلبية وأخرى إيجابية من مثل: قوماً صالحين أو قوماً فاسقين إلى آخره. ويرد فى سورة الزخرف: ﴿لَإِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣)، و﴿...بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ﴾^(٤).

(١) البقرة: ٣٢.

(٢) التبيان فى إعراب القرآن، أبو البقاء العكبرى، مكتبة الدعوة، بالأزهر، د.ت، ج١، ص ٢٩.

(٣) الزخرف: ٥٤.

(٤) الزخرف: ٥٨.

- الحقل التالي: حقل العقاب ويضم سبع مفردات ترددت اثنتين وستين مرة ومفرداته: عذاب - بلاء - حميم - نار - حصيد - أخذ - رجز حيث يشير الحقل جملة إلى ما ينتظر الكافرين العاصين لحدود الله من عقاب في الآخرة.

- ويتدخل حقل الثواب ليمثل خطأ مقابلاً للحقل السابق وتتردد مفرداته التسع سبعة وأربعين مرة وهي (الفوز - أجر - رزق - نعيم - علواً - الدرجات العلى - جنة - مدخل كريم - عيشة راضية)؛ إنها الجزاء الذى ينتظر المؤمنين بالله المطيعين الخاشعين.

- أما حقل (التبليغ) فيضم سبع مفردات ترددت ثلاثاً وثلاثين مرة ويتجلى الحقل فى المفردات: نذير، ناصح، البلاغ، قول ميسور، رسول، صديق، مصطفى.

- ويأتى حقل الكتاب ليقدّم ستة دوال، ترددت واحداً وثلاثين مرة، وهى: كتاب، قرآن، لسان عربى، صحف، رق منشور، الحق المبين. وقد سبق تبين المعانى المختلفة للفظ "كتاب" فى القرآن الكريم.

- ويتدخل حقل الصفات والأفعال السلبية باثنتين وعشرين مفردة هى: يؤوس، خصيم، مختال، كاذب، فساد، ظلوم، خوّان، إفك، بهتان، عتو، إثم، كذاب، معتد، مكر، فاجر، ظالم، شقاق، أفاك، كفار، خطأ، حلاف.

- وفى المقابل يأتى حقل الأفعال الإيجابية بمفردتين هما: إمام، صبار، ويتكرران خمس مرات.

- ويأتى حقل يجمع جملة من الظواهر الكونية هى: السحاب، شهاب، السموات، قمر، الفلك، طين، دخان، ريح، لؤلؤ، الأفق، عين، حدائق. وتتردد اثنتين وعشرين مرة.

- ويضم حقل المكان أربع عشرة مفردة ترددت اثنتين وعشرين مرة، وقد اتخذ هذا الحقل دوالاً مختلفة، غطت بدالاتها جميع الاتجاهات المكانية، عمودياً بما يشمل من بعدى (الأعلى والأسفل)، وأفقياً بما يتضمن من مسارات متعددة، وبما يشير إليه من تنوع المساحة المكانية. وقد اختلفت المفردات التى تنتمى إلى

المستوى العمودى فبعد الأعلى كانت مفرداته: لفظ مكان موصوفاً بـ (علياً)، ولفظ علواً، والسموات، وجنة عالية، ومرفوعة، والأفق. أما مفردات بعد الأسفل، فكانت: قرار، عين أنية. أما عن المستوى الأفقى فإنه يركز على إبراز المساحة المكانية من خلال وصف لفظ مكان بالأوصاف (قريب، بعيد، قصى) كما أن ثمة نقاط ارتكاز محددة على ذلك المستوى تعينها المفردات (بيت، ركن، بيوت، مدخل).

- أما حقل (الزمان) فيضم خمس مفردات تتردد تسع عشرة مرة وهى: اليوم، أجل، سنين، قرون، ليل) ويأخذ هذا الحقل هنا خاصية متميزة، إذ تتحرك المفردات خلال إطار زمنى موسّع شمل حلقات ثلاث تعبر عن الدنيا والموت والآخره، فحلقة الزمن الأول (الدنيا) تتحقق فيما يرتبط بها من تعاقب الليل والنهار وتكاليف العبادة فيهما، وفى لفظ (قرون) معبراً عن السابقين الأوائل فى الدنيا. فى حين تتحقق الحلقة الثانية فى لفظ (سنين) الذى يتوجه بدلالته إلى فترة الغفوة الطويلة ما بعد الحياة أى زمن الموت. أما الحركة الثالثة فجاءت مرتبطة بها الألفاظ (يوم - أجل) الأكثر تردداً فى حقل الزمن بأجمعه، وقد اتخذ البعد الزمنى فى هذه الحلقة طابعاً مميزاً من حيث الأسلوب البنائى الذى يتصف بإثبات مهام الزمن الثالث، وهو زمن الحساب والعقاب الإلهى فى الحياة الآخرة، فنلاحظ ورود لفظى (يوم وأجل) فى إطار معنى الجزاء. وبالنظر إلى المفردات التى تشير إلى ذلك المعنى لوحظ اقتران لفظ يوم وألفاظ العذاب والويل فى البناء السياقى، كما فى قوله تعالى: ﴿لَا فَخْخَ لَكَ الْآخِرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾^(١) وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^(٢).

(١) الزخرف: ٦٥.

(٢) هود: ٣. وقد اقترن لفظ يوم ولفظ العذاب والويل فى الآيات التالية كذلك هود (١٠٣-١٠٤)، مريم (٣٧)، الحجر (٥٥)، الشعراء (٣٨، ١٥٥، ١٥٦)، القمر (٨)، المدثر (٩)، الإنسان (٣١، ١٠)، وسورة البروج (٢).

- ومن الحقول التى تمثل خطأ أساسياً حقل الضلال. ويتجلى فى ثلاث مفردات هى: (ضلال، مضل، غوى) إحدى وعشرين مرة.
- ويأتى حقل صفات الخالق عز وجل فيضم ست مفردات تتردد سبع عشرة مرة هى: (رب العرش- ذو الفضل- له الأسماء الحسنى- العلى- الحق- ملك).
- وتحت حقل الصراط تدرج مفردتى (الصراط - الطريق) وتترددان اثنتى عشرة مرة.
- ويقدم حقل الشيطان أربعة مفردات تتردد خمس عشرة مرة هى: (شيطان- عدو- خصيم- وسواس).
- ثم إن هناك حقل الماء، ويضم مفردتى (الماء وشراب) بتردد تسع مرات.
- ولحقل الكائنات غير البشرية حضور لا ينكر لموصوفات من حيوان وطير ونبات.
- ويتردد حقل الحيوان والطير سبع مرات ومفرداته (قردة- ثعبان- جراد- طير- عجل).
- أما حقل النبات فيتردد أربع مرات ومفرداته (نخل- نبات- رطب).
- وتتوجه الوحدات المنعوتة فى الموضع الختامى للآيات إلى دلالة جديدة؛ هى دلالة السحر والشعر وما يتصل بهما أحياناً من معنى الإفك ومفرداته (سحر- شعر- إفك) بتردد ست عشرة مرة.
- ويأتى حقل الإنسان بعدد من الألفاظ التى تدل على تقسيم عمرى متنوع يتردد خمس عشرة مرة وهى: (رجل- غلام- آباء- شيخ- عجوز) بالإضافة إلى ألفاظ من مثل (زوج- عبد- بشر).
- ومن الدلالات التى تفرزها الألفاظ الموصوفة دلالة القوة، ويعبر عنها الألفاظ (سلطان - جبار - قوى) بتردد خمس عشرة مرة.
- هذا وتتردد المفردات الدالة على أعضاء الجسد ست مرات فى خمس مفردات هى: (قلب- أذن- نفس- عظام- أيدى).

كانت هذه كل حقول الموصوفات القرآنية التى وصفتها فواصل مسجوعة، ومن الظواهر الأسلوبية التى تتبين أثناء هذا العرض أن هناك تراكيب وصفية بعينها تتكرر فى ذلك الموضع الختامى من الآيات الذى

أنيط به أداء وظيفة تأسيسية، ويتجلى ذلك من خلال كثافة حضور التركيب الوصفى فيه.

* * * *

وقد بدأت سورة الزخرف بنبرة قوية صاعدة جاءت مع التأكيد بالقسم، ثم ازدادت النبرة صعوداً وتركيباً مع المقسم به، ممتدة في عبارتين تأكيديتين الأولى منهما، ملحقة بتعليل مشرب بالرجاء. هذا وقد اختتم بناء الآية بفعل متعد حذف مفعوله في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) ويفسر الزمخشري لفظ "لعل" الممثل للسياق التجاوري للفأصلة بقوله: "لعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجى؛ أى خلقناه عربياً غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته"^(٢).

ويتوقف عند هذا اللفظ فى موضع آخر فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣) قائلاً "لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً"^(٤) ولكن "لعل" واقعة فى الآية موقع

(١) الزخرف: ٣.

(٢) الكشاف، الزمخشري، جـ ٣، ص ٤١١.

(٣) البقرة: ٢١.

(٤) يبدو أن الزمخشري يرد على رأى أهل السنة الذى نجد إيضاحه لدى ابن المنير حيث رأى أن الزمخشري "أخطأ فى تفسير لعل بالإرادة لأن مراد الله تعالى كائن لا محالة فلو أراد منهم أن يعقلوه لعقلوه، ويحل خطأ الزمخشري بأنه أجرى تفسيره على قاعدة فاسدة تتمثل فى اعتقاده أن مراد الرب كمراد العبد منه ما يقع ومنه ما يتعذر سبحانه - ويتبنى ابن المنير تفسير سيبويه للفظ لعل بأنه منصرف إلى المخاطب فى قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) "كأنه قال كونا على رجائكما فى تذكره وخشيته". الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ناصر الدين بن المنير، ضمن كتاب الكشاف للزمخشري، جـ ١، ص ٦٩. والمعنى عند أهل السنة (ليصح منكم رجاء التعقل). يقف الزركشى موقفاً توضيحياً إذ يقول

المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدواهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم.. وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى. فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل^(١).

وفي الصيغة (يعقلون) يسرى زمن سياقى داخلى، يتحدد من خلال مجالها التركيبى مع الحرف الناسخ (لعل) والذي يقوم بتوجيه المعنى الزمنى للصيغة بما يسع الحاضر والمستقبل، إذ إن تحديد المعنى الزمنى يعتمد فى المقام الأول، السياق اللغوى العام، وكذلك سياق الحال أما الصيغة فدورها ثانوى، ذلك أن الزمن نوعان: "زمن صرفى تحدده الصيغة فى مجال بنائها الإفرادى، وزمن يتحدد فى مجالها التركيبى"^(٢). وقبل ألف عام ويزيد كانت دراسة المفسرين للزمن تمتاز عن دراسة النحويين بكونها "دراسة وظيفية دلالية، لا تكتفى بالفعل وحده، أو بالأداة التى تسبقه أو تلحقه بل تعتمد فى المقام الأول على الملابسات والسياق الذى يتحرك لهما الفعل"^(٣).

"عسى ولعل من الله تعالى واجبتان" وإن كانتا رجاء وطمعاً فى كلام المخلوقين... والوجه فى استعمال هذه الألفاظ أن لها نسبتين نسبة إلى الله تعالى، تسمى نسبة قطع و يقين، ونسبة إلى المخلوقين، وتسمى نسبة شك وظن، فصارت هذه الألفاظ لذلك تارة بلفظ القطع بحسب ما هى عليه عند الله... وتارة بلفظ الشك بحسب ما هى عليه عند المخلوقين كقوله: "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"، وقد علم الله حين أرسلهما ما يفضى إليه حال فرعون، لكن ورد اللفظ بصورة ما يختلج فى نفس موسى وهارون من الرجاء والطمع، فكأنه قال: انهضاه إليه وقولا فى نفوسكما، لعله يتذكر أو يخشى". البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٤، ص ١٥٩.

(١) الكشف، الزمخشري، جـ١، ص ٤٥.

(٢) الزمن فى القرآن الكريم دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه بركى عبد الكريم، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، جـ٢، ص ٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦.

وحذف ضمير الغياب الواقع مفعولاً به من نهاية الفاصلة في (لعلكم تعقلون) ليس غريباً في القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب. ولا يكاد يخلو مؤلف في النحو العربي وعلم المعاني وإعجاز القرآن وتفسيره من الحديث عن الحذف في القرآن، والإجماع قائم على أن المحذوف يفضل أن يكون ثانياً في القول^(١) ويكثر في آخر الجملة، لأنه يغتفر في الأطراف ولا يغتفر في غيرها. والعبدى يعلل ذلك بأن "التجوز في أواخر الجملة أسهل"^(٢) غير أن هذه المقولة غير كافية في تبرير سبب الحذف الذي يشكل ملمحاً أسلوبياً في غير الفاصلة أيضاً، ومن ذلك حذف الياء في قوله عز وجل: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم...﴾^(٣) وحذفها في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾^(٤) ومنه ﴿...لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾^(٥) و﴿...سَتَذَعُ الزَّيْنَبِيَّةَ...﴾^(٦)، ﴿...وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ...﴾^(٧) و﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ...﴾^(٨) و﴿...وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ...﴾^(٩)

وفي عينة ممثلة للنص القرآني تبين أن الحذف الملازم للسجع وفاصلته، يكتسب بحكم ترده الكمي في ختام الآيات القرآنية، قوة الظاهرة الأسلوبية فيطالعنا الحذف في ختام سبعين آية من سورة البقرة، وفي خمسين آية من سورة الأعراف، وفي عشرين آية من سورة الزخرف هي الآيات: (٣-١٢-١٩-٢٦-٢٧-٢٨-٣٢-٤٤-٤٨-٥٠-٥١-٦٣-٦٦-٧٢-٧٩-٨٠-٨٢-٨٦-٨٨-٨٩)،

(١) يذهب ابن هشام إلى أنه: "إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولاً أو ثانياً أو ثالثاً فكونه ثانياً أولى". مغنى اللبيب، ابن هشام ت ٧٦١هـ، دار إحياء الكتب العلمية، فيصل عيسى البابي الحلبي، د. ت، ج-٢، ص ١٦٣.

(٢) المرجع نفسه، ج-٢، ص ١٦٢.

(٣) النمل: ٣٦.

(٤) هود: ٤٦.

(٥) الإسراء: ٦٢.

(٦) العلق: ١٨.

(٧) الشورى: ٢٤.

(٨) القمر: ٦.

(٩) الإسراء: ١١.

ويحدث الحذف فى الحرف والكلمة والعبارة والجملة. وقد أفرد ابن هشام قسماً عن قضايا متعلقة بالحذف وأنماطه.^(١)

ويعرض هنا سؤال: هل حجب النص لأحد عناصره بالحذف يخل بالتماسك الجملى أو النصى؟ إذا كان من المعلوم أن الضمائر تمثل عامل ربط اللاحق بالسابق. فكيف يتفق الحذف هنا مع ما جاء على لسان علماء العربية من أن أحد وجوه الإعجاز القرآنى هو حسن تأليفه والتثام كلمه؟

إن هذا السؤال يمثل جوهر الإشكالية التى انطلق منها القدماء فى معالجتهم لموضوع الحذف. ولقد تحدث السيوطى عن تحقق التماسك مع وجود الحذف وذلك أثناء رصده أحد أنواع الحذف، وهو المسمى بالاحتباك أو الحذف المقابلى وفقاً لما يطلق عليه الزركشى^(٢) وقد أرجع السيوطى تلك التسمية إلى أن مواضع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط، "فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر فى نظمه وحوكه فوضع المحذوف مواضعه كان حابكا له مانعاً من خلل بطرقه، فسد بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق"^(٣).

(١) انظر التفصيل فى: مغنى اللبيب، ابن هشام، جـ٢، ١٦٢-١٧٦. والبرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٣، ص ١١٧-٢١٥.

(٢) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٣، ص ١٢٩.

* والحذف المقابلى هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى. ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول... وقال الزركشى: "هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى: ﴿لَا يَأْمُرُ بِالسَّيِّئَاتِ فَعَلَيْهَا﴾ فإن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون^{٥٤}. الأصل: فإن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما يجرمون" البرهان، الزركشى، جـ٣، ص ١٢٩. ويقول السيوطى: "وماخذ هذه التسمية من الحبك الذى معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب، فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق". الإتيان فى علوم القرآن، السيوطى، جـ٣، ص ١٨٣.

(٣) الإتيان فى علوم القرآن، السيوطى، جـ٣، ص ١٨٣.

ولدينا الكثير مما تتمخض عنه الفقرة السابقة، فهي تتضمن الضوابط التي تحكم ظاهرة الحذف، والشرط الأول هو ضرورة وجود دليل على المحذوف يحقق بوضوحه المرجعية حيث يشهد الحاضر على الغائب. وفي قوله تعالى من سورة الزخرف ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) الدليل مقالى والمرجعية واضحة بين مكان المحذوف المتأخر والمذكور سابقاً.

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [هـ]
 مرجعية داخلية سابقة

وإذ يقوم المتلقى بتحديد المحذوف فإنه يمارس ما أسماه "هاليدى" و"رقية حسن" إبدالاً من الصفر،^(٢) فالمكان الخالى الذى بين القوسين فى الآية السابقة يعد من وجهة نظرهما صفراً، ولكى يحدث التماسك الجملى لابد من أن ينشأ إبدال فى وعى المتلقى بين (قرآناً عربياً) الذى فى الجملة الأولى أو ما ينوب مكانه من ضمير الغياب والصفر فى الجملة الثانية. ومن خلال المرجعية المتحققة والإبدال عن دليل وبينه يتبدى التماسك، ويبدو أن الحذف يجئ من قبيل احتفاء العربية بإشارية اللغة اكتفاء بالعناصر السياقية الحاضرة المعبرة عن الدال الغائب. وللحذف فى الآية السابقة وظائف مهمة، فعلاوة على ما يؤديه الحذف من حفاظ على موسيقى السجع فهو يستحث المتلقى على المشاركة فى إعادة كتابة النص وملء فراغاته، إنه يؤدى وظائف نصية وبلاغية ذات قيمة، فالحذف فى الآية إنما كان لدلالة المقال بما يعطى للمتلقى مفتاح الإجابة عن سؤاله: ما المحذوف هنا؟.

* * * *

وثمة ظاهرة نحوية تكرر، نرصدها فى الآية الخامسة من سورة

(١) الزخرف: ٣.

(2) Cohesion in English language, M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, fifth imprecision 1983. p. 142.

الزخرف: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾^(١) إذ تأتي علاقة الوصفية لتربط الفاصلة المسجوعة، والمعنى هو: "أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم"^(٢) لأن كنتم قوماً مسرفين وقرئت (إذ كنتم) على الشرط^(٣).

وتسهم مجموعة العلاقات التجاوزية مع الفاصلة في تحديد المعنى المستفاد من الآية، حيث تحمل الآية معنى زمنى هو تمام الحدث فى الماضى؛ أى البت والقطع بأنهم كانوا مسرفين حقاً. وقد تنبه الزمخشري إلى الإشكال الذى تحمله قراءة (إن كنتم) بالكسر وهى القراءة المختارة عنده- قال: "فإن قلت كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت. قلت هو من الشرط الذى ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير إن كنت عملت لك فوفنى حقى وهو عالم بذلك ولكن يخيل فى كلامه أن تفريطك فى الخروج عن الحق فعل من له شك فى الاستحقاق مع وضوحه؛ استجلالاً له"^(٤).

* * * *

ثم يصرف الخطاب عن القوم المسرفين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾^(٥) وكلمة (الأولين) "الفاصلة" تتماسك فى سياقها من خلال حرف الجر (في) فإن حروف الجر-وفقما يراها النحاة- إنما تجئ لتوصيل بعض الأفعال إلى الأسماء.^(٦)

(١) الزخرف: ٥.

(٢) الكشف، الزمخشري، ج-٣، ص ٤١١.

(٣) المصدر نفسه، ج-٣، ص ٤١١.

(٤) المصدر نفسه، ج-٣، ص ٤١١.

(٥) الزخرف: ٦.

(٦) انظر: المقتصد فى شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، ج-١، ٢٧٤-٢٧٥.

وتقابلنا خاصية أسلوبية جديدة تثبت الدراسة الرأسية للنص القرآني أنها ملاحظة للفظية المسجوعة بشكل واضح، فيتقدم الجار والمجرور على متعلقه في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾^(١) وهذا ملمح آخر من ملامح الترخص في جملة الفاصلة القرآنية، قام البحث بمتابعة كشفية له على مدار سورة الزخرف ثم على مدار النص؛ ليتبين إذا كان يمثل خاصية أسلوبية تتبدى في موضع السجع القرآني أم لا. والتصرف في نظم جملة الفاصلة بالتقديم والتأخير الذي يتم خلاله تحريك الدوال من أماكنها الأصلية إلى أماكن طارئة، كان من القضايا التي أولاها جمهور العلماء كبير عناية، إذ أثير سؤال: (حول سر التشكيل الطارئ على النظام التركيبي للغة التقديم والتأخير) وقد تم تقويس ذلك السؤال من قبل العقل البلاغي والتفسيري، خاصة مع وجود (٨٣٢) موضعاً بالقرآن تجلى فيها التقدم والتأخير- بأنواعه المختلفة بما مكن لحلول اللفظة المسجوعة في موقعها من الصياغة. أنظر الجدول الآتي:

رقم السورة	اسم السورة	مرات التقديم والتأخير في ختام الآية
١	الفاتحة	١
٢	البقرة	٣٦
٣	آل عمران	١٨
٤	النساء	١٥
٥	المائدة	١٨
٦	الأنعام	١٨
٧	الأعراف	٣٣
٨	الأنفال	١٢
٩	التوبة	١٤
١٠	يونس	١٣
١١	هود	١٩

(١) الزخرف: ٧.

١٢	يوسف	١٧
١٣	الرعد	٩
١٤	إبراهيم	٨
١٥	الحجر	١٢
١٦	النحل	٢٣
١٧	الإسراء	١٦
١٨	الكهف	٢٤
١٩	مريم	١٨
٢٠	طه	١٤
٢١	الأنبياء	٣١
٢٢	الحج	١١
٢٣	المؤمنون	٣٨
٢٤	النور	٦
٢٥	الفرقان	١٢
٢٦	الشعراء	٢١
٢٧	النمل	٥
٢٨	القصص	١١
٢٩	العنكبوت	١٢
٣٠	الروم	١٤
٣١	لقمان	٣
٣٢	السجدة	٨
٣٣	الأحزاب	٤
٣٤	سبا	١١
٣٥	فاطر	٨
٣٦	يس	٢٠
٣٧	الصافات	١٠
٣٨	ص	٤
٣٩	الزمر	٥

٤٠	غافر .	١٠
٤١	فصلت	١١
٤٢	الشوري	٦
٤٣	الزخرف	٢٤
٤٤	الدخان	٤
٤٥	الجاثية	٩
٤٦	الأحقاق	٤
٤٧	محمد	١
٤٨	الفتح	٤
٤٩	الحجرات	١
٥٠	ق	٩
٥١	الذاريات	٩
٥٢	الطور	٦
٥٣	النجم	١٠
٥٤	القمر	١
٥٥	الرحمن	٣١
٥٦	الواقعة	—
٥٧	الحديد	٥
٥٨	المجادلة	٤
٥٩	الحشر	١
٦٠	المتحنة	١
٦١	الصف	—
٦٢	الجمعة	—
٦٣	المنافقون	—
٦٤	التغابن	٧
٦٥	الطلاق	٤
٦٦	التحريم	١
٦٧	الملك	٨

٤	القلم	٦٨
١	الحاقة	٦٩
٩	المعارج	٧٠
٣	نوح	٧١
٧	الجن	٧٢
١	المزمل	٦٣
٤	المدثر	٧٤
٥	القيامة	٧٥
٢	الإنسان	٧٦
٣	المرسلات	٧٧
٤	النبا	٧٨
٢	النازعات	٧٩
٤	عبس	٨٠
١	التكوير	٨١
١	الانفطار	٨٢
٣	المطففين	٨٣
٢	الانشقاق	٨٤
٣	البروج	٨٥
٢	الطارق	٨٦
—	الأعلى	٨٧
٧	الغاشية	٨٨
٤	الفجر	٨٩
٢	البلد	٩٠
—	الشمس	٩١
٢	الليل	٩٢
—	الضحى	٩٣
٣	الشرح	٩٤
١	التين	٩٥

٩٦	العلق	١
٩٧	القدر	—
٩٨	البينة	—
٩٩	الزلزلة	—
١٠٠	العاديات	٦
١٠١	القارعة	—
١٠٢	التكاثر	—
١٠٣	العصر	—
١٠٤	الهمزة	١
١٠٥	الفيل	—
١٠٦	قريش	—
١٠٧	الماعون	١
١٠٨	الكوثر	—
١٠٩	الكافرون	—
١١٠	النصر	—
١١١	المسد	—
١١٢	الإخلاص	١
١١٣	الفلق	—
١١٤	الناس	—

المجموع الكلى للآيات القرآنية المسجوعة: ٤٨٢٧ آية.
مجموع الآيات المسجوعة التي حدث فيها تقديم وتأخير مما هيأ للفاصلة
الاستقرار في موضعها: ٨٣٢ آية.

وقد جاءت بعض السور القصار خالية من التقديم والتأخير الملازم
للفاصلة المسجوعة. وهي: الواقعة، الصف، الجمعة، المنافقون،
الأعلى، الشمس، الضحى، القدر، البينة، الزلزلة، القارعة، التكاثر،
العصر، الفيل، قريش، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الفلق، الناس.

ومن العلماء العرب من حاول الكشف عن الغرض أو الأغراض الأصلية لذلك المسلك الأسلوبى، ومنهم من سكت عنه، ومنهم من اكتفى بالقول بأن مخالفة الأصل فى التركيب اللغوى للآيات القرآنية كان من أجل رعاية الفاصلة فحسب. وقد جعل الزركشى رعاية الفاصلة غرضاً مستقلاً من أغراض التقديم، إذ يقول: "الثالث: أن يكون فى التأخير إخلال بالتناسب، فيقدم لمشكلة الكلام ولرعاية الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١) بتقديم "إياه" على "تعبدون" لمشكلة رعوس الآى، وكقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾^(٢) فإنه لو أخر (فى نفسه) عن (موسى)، فأت تناسب الفواصل، لأن قبله: ﴿...يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٣)، وبعده ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾^(٤)،^(٥).

والحق أن هذا التبرير قوبل بمقولات نقدية مضادة، فإن النظر إلى العدول عن النظام الخاص باللغة بوصفه اختياراً وظيفياً واعتبار الدلالة أولى موجهاته وفى نفس الوقت واحداً من أهم منتجاته، يصطدم بالضرورة مع تلك الرؤى التى تجعل التجاوز مفيداً دلالياً حيناً وغير مفيد أحياناً، يقول عبد القاهر الجرجانى فى هذا الصدد: "واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيداً فى بعض الكلام وغير مفيد فى بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه. ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى. فمتى ثبت فى تقديم المفعول مثلاً على الفعل فى كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضية فى كل شيء وكل حال. ومن سبيل من يجعل التقديم وترك

(١) فصلت: ٣٧.

(٢) طه: ٦٧.

(٣) طه: ٦٦.

(٤) طه: ٦٨.

(٥) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ ٣، ص ٢٣٤.

التقديم سواء، أن يدعى أنه كذلك فى عموم الأحوال، فإما أن يجعله شريجين، فيزعم أنه للفائدة فى بعضها، وللتصرف فى اللفظ من غير معنى فى بعض، فمما ينبغى أن يرغب عن القول به^(١).

وهذا يعنى أن أية دراسة للتقديم والتأخير لابد أن ترتد إلى النص ومقاصده، تتبع السر الخفى وراء اتجاهه إلى الترخص فى المحفوظ اللغوى بالنسبة لترتيب الدوال فى الجملة، وقد ألح عبد القاهر نفسه على أنه ينبغى أن يعرف فى كل شىء قدم فى موضع من التركيب لماذا قدم؟ وما هى الاعتبارات التى قامت عليها الصياغة؟ فلا يكفى أن يقال: "إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ ولم كان أهم؟".^(٢) فمقولة التقديم للأهمية تحتاج إلى مراجعة وتحرك مزدوج على مستويين يلاحظ خلاله كيف أن التحول الشكلى فى حركة الصياغة أفقياً يكون مصاحباً لتحول عميق، يتم فى المستوى ذهنى لاعتبارات دلالية وتأثيرية محددة هى المبررات الحقيقية للتقديم والتأخير، ومنها ما يعود مرجعه التأثيرى إلى المتكلم، ومنها ما يتول مرجعه التأثيرى إلى المتلقى، حيث يكون الغرض من التأخير والتقديم هو تشويقه أو تعجيل المسرة إليه أو المساءة إلى غير ذلك. ومن الاعتبارات ما يخص الصياغة ذاتها لإحداث موازنة صياغية، أو الحفاظ على الإيقاع، أو إنتاج دلالة التخصيص والقصر، أو التنبيه على الجانب الإعرابى المراد، ففى قول حسان بن ثابت فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر^(٣)

قدم الشاعر الجار والمجرور (له همم) ولم يقل (همم له) لأنه لو قدم المسند إليه (همم) على المسند (له) لتوهم أنه نعت وليس خبراً. هذا وربما كانت الحركة الطارئة على الطابع المكانى للدال المتقدم أو

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٣) قيل أن ذلك البيت لبكر بن النطاح.

المؤخر استجابة لمؤثر خارجي.

صور التقديم والتأخير في ختام الآيات القرآنية:

ويمكن حصر صور تقديم ما حقه التأخير في الإثبات والنفي الواردة في نهاية الآية القرآنية ممثلة عدولاً عما هو معروف من نظام اللغة في عدة أشكال على النحو الآتي:

أولاً: تقديم المسند إلى المسند إليه: ويستثنى من ذلك المسند الفعلي، لأن الفعل موقعه الدائم هو التقديم على فاعله (المسند إليه) وإنما تتصرف مسألة تقديم المسند إلى الخبر ذلك أن رتبته غير المحفوظة هي التأخير.

والصياغة القرآنية التي تتجاوز مواضع اللغة بتقديم المسند على المسند إليه تبديت في عدة أنماط بما أحدث مغايرة تركيبية تفضي على مستوى الفاعلية التشكيلية للصياغة - إلى تحقيق مقصدين للنص: أولهما، معنوي حيث يؤدي تغيير نسق الصياغة دوراً في الدلالة المطروحة. والآخر، إيقاعي. إذ استثمر التقديم والتأخير لصالح نوايا النص في المحافظة على تكرار صوت ختامي واحد في الآيات القرآنية.

والمتابعة الكيفية تقدم عدداً من أنماط تقديم المسند الخبري على المسند إليه التي تجلت في نهايات الآيات المسجوعة راصدة معدلات ترددها.

النمط الأول: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة ويتكرر في ثلاثة مواضع من الآيات المسجوعة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا وَجُوهَ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾^(١).

النمط الثاني: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة ويتكرر في أربعة وثلاثين موضعاً، في مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمِنَ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا

(١) عبس: ٤٠.

مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١)

النمط الثالث: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر + عطف ويتردد في عشرة مواضع، في مثل قول الخالق عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٢).

النمط الرابع: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر معرف بـ (ال) ويتردد في أحد عشر موضعاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٣).

النمط الخامس: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر معرف بالإضافة ويتردد في أربعة مواضع في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٤).

النمط السادس: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر اسم موصول في ثلاثة مواضع في مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مِمَّا يَدْعُونَ﴾ (٥).

النمط السابع: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة مخصصة بالإضافة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ هَدَاهُ نَاقَةً لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٦).

(١) الجاثية: ١٠.

(٢) فاطر: ٧.

(٣) الرعد: ٤٠.

(٤) الرعد: ٢٥.

(٥) يس: ٥٧.

(٦) الشعراء: ١٥٥.

النمط الثامن: ما النافية + خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة مجرور لفظاً بحرف الجر (من) الزائد مرفوع محلاً، ويتردد في سبعة عشر موضعاً مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَلْبِثُ أَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. (١)

النمط التاسع: خبر مقدم اسم ظاهر مجرور بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة، ويتردد في خمسة مواضع كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكئونَ﴾. (٢)

النمط العاشر: خبر مقدم اسم ظاهر مجرور + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة، ويتكرر في ثمانية مواضع مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. (٣)

النمط الحادي عشر: ما نافية + خبر مقدم اسم ظاهر مجرور باللام + مبتدأ مؤخر نكرة مجرور لفظاً بمن الزائدة مرفوع محلاً، ويتكرر في ثلاثة مواضع، في مثل قوله تعالى: ﴿لَرَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. (٤)

النمط الثاني عشر: خبر مقدم لفظ الجلالة مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بـ (ال)، ويتردد في أربعة مواضع كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. (٥)

النمط الثالث عشر: خبر مقدم لفظ الجلالة مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بالإضافة، ويرد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. (٦)

(١) الروم: ٢٩.

(٢) يس: ٥٦.

(٣) التوبة: ١٢٨.

(٤) آل عمران: ١٩٢.

(٥) النور: ٤٢.

(٦) لقمان: ٢٢.

النمط الرابع عشر: خبر مقدم لفظ " كل " مجرور + مضاف إليه + مبتدأ مؤخر نكرة، ويرد في قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِدُ لَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ أَفْجَاءً وَكَانَ كَلِمَاتٍ لَّا تُلَاحَظُ فِيهَا تَقَابُحٌ﴾ (١).

النمط الخامس عشر: خبر مقدم لفظ " رَبِّ " مجرور + مبتدأ مؤخر نكرة ويرد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهُ رَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ (٢).

النمط السادس عشر: خبر مقدم لفظ " رَبِّ " مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بـ (ال) ويتكرر في موضعين، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهُ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (٣).

النمط السابع عشر: خبر مقدم لفظ " رب " مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بالإضافة، ويرد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهُ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ (٤).

النمط الثامن عشر: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة ويتكرر في ثلاثة مواضع مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (٥).

النمط التاسع عشر: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة، ويتكرر في أربعة مواضع، كقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٦).

النمط العشرون: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة معرفة بالإضافة، ويتكرر في ثلاثة مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿لَمَّا عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (٧).

النمط الحادي والعشرون: خبر مقدم اسم إشارة + مبتدأ مؤخر، ويرد في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَصْحَابِ الْكُفْرِ لَافْتًا بِلِأْلَافٍ مِنْ دُونِ آلِهَتِهِمْ أَفْجَاءً مِمَّا جَاءَ آلِهَتَهُمُ بِالْبَاطِلِ لَأَقْتُلَنَّاهُمْ وَاسْمُ الْيَوْمِ لِلَّهِ الْأَكْبَرُ﴾ (٨).

(١) الرعد: ٣٨.

(٢) القيامة: ٢٣.

(٣) القيامة: ١٢.

(٤) النازعات: ٤٤.

(٥) ق: ١٧.

(٦) ق: ١٨.

(٧) النجم: ١٥.

(٨) فاطر: ٩.

النمط الثاني والعشرون: خبر مقدم اسم استفهام + مبتدأ مؤخر، ويرد في أحد عشر موضعاً، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ أَلْمُنَّ إِلَّا يَوْمَ الدِّينِ﴾. (١)

النمط الثالث والعشرون: خبر مقدم اسم موصول + مبتدأ مؤخر، ويرد في قوله تعالى: ﴿لَوْ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. (٢)

النمط الرابع والعشرون: إنمّا + خبر مقدم + مبتدأ مؤخر، ويرد في موضعين، كقوله تعالى: ﴿لَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. (٣)

النمط الخامس والعشرون: ما ... إلا، والخبر مقدم على المبتدأ ويرد في ثلاثة مواضع كقوله تعالى: ﴿لَوْ إِنْ تُكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. (٤)

النمط السادس والعشرون: حرف أو فعل ناسخ + خبر مقدم + اسم الناسخ مؤخر ويكرر في خمسة وعشرين موضعاً، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ مِّنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٍ وَفَرَشَا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. (٥)

ثانياً: تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على الفعل؛ ولقد اتجهت الصياغة القرآنية في بعض مواضعها إلى إحداث مخالفة تركيبية للنظام اللغوي، بتقديم المفعول به على الفعل، أو بتقديم بعض المتعلقات الأخرى التي يلابسها عليه. والملاحظ أن هذا التعامل قد ازداد كثافة في منطقة الفاصلة المسجوعة إلى درجة لافتة، فتبلغ جملة المواضع التي تم فيها تقديم الجار والمجرور على متعلقه فعلاً ومشتقاً ٥٢٨ موضعاً بنسبة ٦٣,٥% من المعدل الكلي للتقديم والتأخير في نهايات الآيات المسجوعة، كما تبلغ جملة المواضع التي تم فيها تقديم المفعول على الفعل ٣٨ موضعاً. من هذا الإحصاء يتبين كيف أن النص القرآني معني بأن تكون اللفظة المسجوعة منطقة ثقل دلالي كما أنها منطقة ثقل

(١) الذاريات: ١٢.

(٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) النحل: ٨٢.

(٤) العنكبوت: ١٨.

(٥) الأنعام: ١٤٢.

إيقاعى، ويتوافر ذلك لها فى صيغتها الفعلية؛ بوصف الفعل قطب تشكيل الجملة الفعلية والعقدة المركزية فيها.^(١) كما تبدى ذلك التركيز الدلالى فى النمط السابق القائم على تقديم المسند الخبرى على المسند إليه حيث تأخر المبتدأ (المسند إليه) وهو قمة التركيب والعنصر الاسمى المسيطر الذى يتحكم فى عناصر أخرى تعود عليه.

وإن المتابعة الرأسية للنص القرآنى تبرز وقوع اختياراته على دوال بعينها، بدت فى منطقة الفاصلة متعلقاً بها الدال المتقدم، فقد ورد متعلق العبادة الواقعة فى الفاصلة مقدماً على طريق الإثبات والنفى فى قوله تعالى: ﴿لَوَيْتُمْ فَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾.^(٢) وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.^(٣) وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.^(٤) وقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾.^(٥) وقوله: ﴿لَوَيْتُمْ فَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.^(٦) وقوله: ﴿لَوْ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.^(٧)

كما يلاحظ التردد اللافت للآيات التى ارتبط فيها التقديم بمادة

(١) نظرية التبعية فى التحليل النحوى، سعيد حسن البحيرى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨، ص ١٣٢، وما بعدها.

(٢) يونس: ٢٨.

(٣) النحل: ١١٤.

(٤) القصص: ٦٣.

(٥) العنكبوت: ٥٦.

(٦) سبأ: ٤٠.

(٧) فصلت: ٣٧.

الظلم^(١) ومادة الرهبة، ومواد الرجوع، الأيمان، العلم، الاستهزاء، الجود، التوكل، الحفظ، النصر، الخلود، التقوى، الإسلام، الغفلة، الكفر.

ثالثاً: تقدم بعض المعمولات على بعض بما يخالفه النظام اللغوي المعروف: ويتجلى ذلك في تقديم المفعول الثانى على الأول، كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنِّي خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٢)، وقوله: ﴿... فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٣)، وغيرها من الأمثلة بما بلغ ٨٥ موضعاً من الآيات المسجوعة، كما يظهر ذلك النمط فى تقديم المفعول على الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٤)، ويوجد كذلك فى تقديم معمول الصلة عليها كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ مَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ بَيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

ولما كان الوعى البلاغى بفاعلية الترخّص فى القواعد فى تشكيل الدلالة، وأنه إنما يسرى مشفوعاً بهدف ووظيفة، فقد تضمنت المحاولات البلاغية نقاشاً مطولاً حول الغرض الأصلى من تقديم المسند أو الم معمول وشبهه، انبثقت عنه رؤى عديدة، فالجميع يتفق على أن التقديم هنا يفيد الاهتمام، لكن الجدير بالتسجيل هو اختلافهم حول إفادة القصر، فالقائلون به أرسوا لذلك شرطين؛ أحدهما: ألا يكون الم معمول مقدماً بالوضع كأسماء الاستفهام وما مثلها. والآخر: ألا يكون التقديم راجعاً إلى مصلحة التركيب.

(١) البقرة ٥٧-آل عمران ١١٧-الأعراف ١٦٠-الأعراف ١٧٧-التوبة ٧٠-يونس ٤٤-النحل ٣٣-العنكبوت ٤٠-الروم.

(٢) مريم: ٥.

(٣) النساء: ١٤١.

(٤) الحجر: ٦١.

(٥) آل عمران: ٨٥.

رابعاً: والحالة الأخيرة من أنماط التقديم والتأخير الملازم للفاصلة في القرآن الكريم، هي تقديم المسند إليه على الخبر المشتق: في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾^(١)، وفيه يتحدد التركيب بوصفه بنية تقوم على التعبير بالجملة الاسمية وجعل خبرها اسماً لا فعلاً وتقديم الضمير على الخبر المشتق ثم تقديم الجار والمجرور (للزكاة)^(٢) على عامله (فاعلون) بما يهيئ للفاصلة الاستقرار في موضعها، لكن ذلك ليس المهمة الوحيدة التي ينادي بالتقديم أدائها، فإن هناك أغراضاً أخرى أصيلة قبل ذلك، إذ تتمكن الدلالة بفضل التقديم من احتواء عدة إشارات ضمن عناصرها، فتقديم المسند إليه (هم) على الخبر المشتق (فاعلون) يفيد تقوى الحكم كما هو الشأن في تقديمه على الخبر الفعلي- ويؤكد فعلهم أو أداءهم للزكاة. أما تقديم المعمول (للزكاة) على عاملها فإنه يشير إلى الاهتمام بأمر الزكاة بوصفها واحدة من أركان الإسلام الأساسية. وقيل أنه كان للقصر الإضافي بمعنى قصر الفعل على الزكاة بحيث لا يتعداها إلى الإنفاق فيما لا يليق -وأعتقد أنه وجه بعيد.

* * * *

بعد هذا العرض المطول للتقديم والتأخير الذي لاحظنا ظهوره بوصفه سمة أسلوبية في فواصل سورة الزخرف، ثم تابعنا رأسياً حضوره في فواصل النص القرآني بكامله نعود ثانية إلى السورة. ويستحضر قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْزَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) الطاقة الاستدعائية للمخاطب حتى تتواصل مع القصص القرآني عبر نصه الكامل، تستعرض مواقف العصاة الذين عتوا وتكبروا وتصدوا لأنبياء الله فكان جزاؤهم الهلاك. وتختتم الآية بعلاقة الإضافة

(١) المؤمنون: ٣.

(٢) اللام في (للزكاة) لام التقوية لضعف العامل (فاعلون) لكونه اسماً مع تقديم معموله عليه، ولو أخر العامل جاز سقوط اللام، فيتعدى العامل بنفسه.

(٣) الزخرف: ٨.

التي تربط دال الفاصلة بالدال المجاور في ﴿لَمَّا تَلَّ الْأَوَّلِينَ﴾ والإضافة عند النحاة هي "ضم اسم إلى آخر مع تنزيل الثاني من الأول منزلة تنوينه أو ما يقوم مقام تنوينه، وبحيث لا يتم المعنى المقصود إلا بالكلمتين المركبتين معاً".^(١)

* * * *

ومن سمات محور الاختيار في السورة الاتجاه إلى تراكيب ألف تكرارها في نهايات الآيات ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢)، ويوهم سياق الآية السابق بأن المتحدث غير الله إذ يسبقها: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) الأمر الذي يجعل من بين مكتسبات التركيب ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ داخل علاقته السياقية دلالة الشك والظن بحسب ما عليه حال الخلق من الشك في الأمور الممكنة وعجزهم عن القطع على الكائن منها أو ما يكون، غير أن السياق النصي اللاحق يشي بوهم التصور أن المتحدث غير الله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(٤)، فهنا يتحدد المتحدث جل جلاله ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا﴾ قال الزمخشري فيما ذكر من الأوصاف هو من قول الله لا من قولهم مستدلاً بالآية السابقة^(٥) وأيده الإمام ناصر الدين بن المنير إذ يقول: "الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم خلقهن وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا خلقهن الله، ويدل عليه قوله تعالى في الآية الأخرى، (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، ثم لما قالوا (خلقهن الله)) وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات ولما سيق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامهم وأقيمت

(١) النحو المصنف، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٤٥.

(٢) الزخرف: ١٠.

(٣) الزخرف: ٩.

(٤) الزخرف: ١١.

(٥) انظر: الكشف، الزمخشري، ج ٣، ص ٤١٢.

الصفات المذكورة فى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد^(١). ويترشح عن ذلك فيما يخص التركيب لعلمكم تهتدون^{﴿١﴾} وقوع لعل فى الآية موقع المجاز لا الحقيقة على نحو ما ذكر من قبل فى قوله تعالى: لعلمكم تعقلون^{﴿٢﴾}.

* * * *

واستكمالاً للأوصاف السابقة يقول الخالق عز وجل ^{﴿١﴾} وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ^(٢) فإن تخصيص صيغ الأفعال بما تشمله كل صيغة من زمن وحدث وجهة يتحقق فيها الحدث يؤدى ذلك التخصيص دوراً فى تقديم زمنية متنوعة لوجود الإنسان لها شبيه محقق فى مشهد كونى حياتى، وتبدأ ملامح قراءة هذه الزمنية من حيث التركيب اللغوى (كذلك تخرجون) فالكاف رابطة تشد الطرفين السياق "السابق" بسياقها "اللاحق" وتحيل على الأول لإيضاح الثانى؛ إذ يتضمن تقريباً للصورة الحقيقية للموت والبعث من خلال مشهد واقعى يحدث فى الحلقة الزمنية الأولى (الحياة الدنيا)، فيعمل كل من التأشير والإحالة على تقديم ناتج تفسيرى للتركيب (كذلك تخرجون) أى مثل نشور الموات فى الدنيا يخرج الأموات من قبورهم فى الآخرة، لكن ثمة فارق بين البعثين لا توضحه إلا صيغة الأفعال، فاستخدام صيغة الماضى فى "أنشَرْنَا" بما لهذه الصيغة من معانى الانتهاء والمحدودية التى تتم بها أيضاً حلقة الحياة الدنيا الدائرة فيها المثال يدل على أنه بعث إلى حين، أما صيغة "تُخْرَجُونَ" الممثلة بزمنها الحاضر لفاصلة الآية فإنها تستمد معناها من إطار الزمن الأبدى لتصبح مؤشراً على استمرارية ذلك الفعل الحاضر.

* * * *

ويأتى الحذف مرة أخرى مما يحافظ على الموسيقى الخارجية للآيات فى نهاية قوله تعالى ^{﴿١﴾} وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا

(١) الانتصاف، ابن المنير، ضمن كتاب الكشف للزمخشري، جـ ٣، ص ٤١٢.

(٢) الزخرف: ١١.

تَرْكَبُونَ^(١) حيث حذف ضمير الغائب الواقع مفعولاً به لوجود دليل مقالي عليه، والاهتداء إلى المحذوف وتقديره، وتحديد مكان التقدير كلها أمور مرهونة بعلاقات الحضور (الدليل)، ومن الواضح أن هناك أكثر من احتمال تقديري متاح بناء على الدليل (من الفلك والأنعام) وبناء على الفعل (ركب) الذي يتعدى بنفسه فيقال (ركبت الدابة) كما يتعدى بحرف الجر فيقال (ركبت في الفلك)، وتعدد سبل التعدية يطلق تعددية التقدير، فيمكن تقدير متعلقين مرة باعتبار تعدى الفعل بنفسه ومرة باعتبار تعديه بواسطة فيكون التقدير (ما تركبونه) و(تركبون فيه).

مرجعية داخلية سابقة
 (...) من الفلك والأنعام → تركبون [ها]
 أو تركبون (فيه)

غير أن الفعل باعتبار القبيلين له نفس المعنى، وهذا يبيح أن نقدر متعلقاً واحداً على أساس تعدى الفعل بنفسه "ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ على أحد التأويلين فيه. فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى أعني (أجمع على الأمر) وجمع (الشركاء)، ولكن لما تقارباً غلب إحداهما على الآخر ثم جعل الم أغلب هو المتعدى بنفسه".^(٢)

* * *

وتتجلى فاعلية النفي من خلال الحرف (ما) المتصل بالجملة الاسمية المنسوخة في قوله تعالى: ﴿...وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرِّينَ﴾^(٣) فيسلبها وقوع الحدث المتمثل في خبر كان. وعلى المرغم من أن "ما" جاءت نافية لفعل ماض لفظاً، لها فاعليتها في إحداث امتداد زمني يشمل الحال والاستقبال، ذلك دون أن تفرغ الماضى من زمنه الصرفي، ومن هنا يدل التعبير (ما كنا) على زمن ينتفى فيه الحدث عن الوقوع فالبنية العميقة نقول (لا نقرن في أى زمان شيئاً سخر

(١) الزخرف ١٢.

(٢) الانتصاف، ابن المنير، ج ٣، ص ٤١٢.

(٣) الزخرف: ١٣.

لنا). ومع قدرة هذا التركيب على توسيع دائرة البعد الزمني كانت البنية السطحية بمثابة تمثيل دقيق للبنية العميقة لا يخل بماهية الدلالة أو هوامشها، خاصة وأن التعامل مع فعل الكينونة المتصل بالجملة يعد بالغ التأثير في التعبير عن واقع إنسانى يعلن ضعف المرء مقارنة بما سخر لخدمته من الفلك أو الأنعام، فكم من دابة أو سفينة كانت سبباً في هلاك راكبها. ومع إقرار هذا الواقع يتداعى إلى الذهن واقع يقينى آخر هو ﴿لَوْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾^(١) ينبغى على الراكب ألا ينساه أو يدع ذكره بقلبه ولسانه خاصة مع مباشرة أمر خطر وسبب من أسباب التلف كالركوب، وهذا الواقع اليقيني هو أننا منقلبون إلى خالقنا، واستخدام "إن" المؤكدة واتصال خبرها باللام ضرب من التدليل على معنى اليقينية فى ذلك الواقع.

* * * *

وفى الآية التالية تتبدى علاقة الوصفية من جديد ختاماً للآية وقد سبق ملاحظة انتشارها فى النص يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾^(٢) فإن نسبة الولد إلى الله كفر، ومساواة الإله -تعالى- بالبشر أصل لكل كفران ومن ثم جاء الخبر على صيغة (كفور) وتدخلت (إن واللام) كأطراف إضافية مهمتها تأكيد الوصف المذكور فيمن يتعدى على الله، والتركيب فى مجمله يعد مؤشراً على المستوى السياقى على اتصال تلك الآية بقوله ﴿لَوْ لَأَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) فمع اعترافهم بذلك جعلوا له من عبادته جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ويكشف رد الصياغة إلى بنيتها العميقة عن غياب موصوف الصفة (مبين)، لكن يلاحظ أن التغييب تم على أساس أن المستوى السطحي يقدم من خلال خبر إن مفردة كاشفة من نفس مادة ذلك الموصوف الاعتبارى. فالبنية العميقة هى: أن الإنسان لكفور بالنعمة مبين كفره. وهنا يتفجر المعنى من الخبر (كفور) الذى يؤدى مهمته فى التدليل على الغائب واستدعائه

(١) الزخرف: ١٤.

(٢) الزخرف: ١٥.

(٣) الزخرف: ٩.

فى ذات الوقت بما يخلق نوعاً من الانسجام الصوتى المتوهم بين كفور -كفر. وغياب موصوف الصفة أدّى إلى أن تستقر الفاصلة فى موضعها مساهمة فى النغم السجى المتكرر، ورغم استقلال هذه الآية تركيبياً فإن ارتباطها الدالى بالآية اللاحقة اتخذ مظهراً لغوياً من خلال الاستفهام الإنكارى حيث تتسلط همزة الاستفهام على الصياغة فى قوله تعالى: ﴿لَأْمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾^(١) والاستفهام انطلق رداً وإنكاراً وتجهيلاً لهم وتعجباً من زعمهم السابق بأن الله ولداً، والباء فى (البنيين) تقوية لما يتضمنه المعنى العام للآية من السلب، ولما كانت النظرة للولد تختلف عن النظرة للأنثى إذ يعدونه خير الجنسين وأعلاهما جاء لفظ (البنيين) معرفاً ولفظ البنات على التكرير، والمستهدف البلاغى من ذلك أن فى التعريف تنويه وتشهير^(٢) كأنه قال اصطفاكم الفرسان الأعلام الذين لا يخفون عليكم.

* * * *

ويتوالى الاستفهام الذى يقدم ضمن محتواه الدالى مسوغات الإجابة عما يطرح من تساؤل: (أو من ينشؤا فى الحلبة وهو فى الخصام غير مبين) جاء الاستفهام يستبطن إنكار أن يكون للرحمن من الولد من صفته الضعف والتخاذل عن مجاراة الخصوم، إذ يؤل ضعفه إلى فطرة تكوينه الأنثوى وتربيته فى الزينة والنعمة، وتعجلاً بالمساءة وتأكيداً على هذا الوصف المذموم تختتم الآية بهزة تركيبية تجعل الجر والمجرور (فى الخصام) مقدماً على متعلقه لتنتهى هذه الهزة التركيبية بنقطة ارتكاز السجع (النون) فى (مبين) ويتدخل حرف النفى (غير) لكنه يتحرك ارتدادياً عاملاً على تغييب القدرة على مباراة الخصوم، حيث تكون البنية العميقة على النحو الآتى: وهو لا يبين فى الخصام. فالمضاف إليه لا يعمل فيما قبله إلا فى غير لأن فيها معنى النفى وهذا ما سوغ حدوث الهزة التركيبية للتأثير بلاغياً ودالياً مع الإبقاء على صحة التركيب نحوياً.

* * * *

(١) الزخرف: ١٦.

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري، ج ٣، ص ٤٠٨. والآية ٤٩ من سورة الشورى.

﴿لَوْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾^(١) الفعل (يسألون) مبنى للمفعول الأمر الذى يعمل على تنحية الفاعل على المستوى السطحي، وثمة تنحية أخرى لمتعلق الفعل تتكى على ما يمكن أن ينتجه السياق المقالى من إمكانات جبر البنية التركيبية، فإن مفعول الجملة السابقة (سُكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ) يدل على المحذوف مما يسمح بتعيين المبدل من الصفر، أى أن رد الصياغة إلى أصلها يكون: "يسألهم الله عن شهادتهم" وتغيب الفاعل ببناء الفعل للمجهول مع حذف متعلقه يؤدي وظيفة مزدوجة على المستويين المعنوي واللفظي إذ يهدف إلى إبراز الحدث وتأكيد به باعتباره فعل المحاسبة هو الغرض المهم، والحفاظ من ناحية أخرى على الإيقاع السجعي.

* * * *

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٢) النظر التحليلي للسياق النحوي للفاصلة (يخرصون) يكشف عن مصاحبتها لبنية تركيبية يتسلط عليها النفي من خلال (إن) التي بمنزلة (ما)، غير أن الأداة فقدت مهمتها الدلالية والقدرة على إحداث أثرها بفعل عامل الاستثناء (إلا) الذي قام بإلغاء بنية النفي، لتتول البنية المثالية إلى الإيجاب: (هم يخرصون) ولئن كان لـ (إلا) هذه الفاعلية فإنها مسلوقة القدرة على مستوى العمل النحوي، فهي ملغاة من الناحية الإعرابية فقط دون المعنوية "لأن ما بعدها يكون خاضعاً في إعرابه لحاجة ما قبلها، فكأنها غير موجودة. لكنها من ناحية المعنى تفيد استثناء ما بعدها من حكم ما قبلها".^(٣) ومن ثم كانت البنية العميقة لا تحقق مجموعة النواتج التي يقدمها التركيب في مستواه السطحي.

وتعلن بنية التقديم والتأخير عن حضورها في الآية عمقاً وسطحاً،

(١) الزخرف: ١٩.

(٢) الزخرف: ٢٠.

(٣) النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، ط ١١، ١٩٩٣، ج ٣، ص ٣٢٢.

حيث يتقدم المسند إليه (هم على الخبر الفعلى مفيداً التقوى، لاشتمال الخبر الفعلى على ضمير يعود على المقدم، وهذا يدفع بفائدة إجمالية هي إثبات الكذب للمسند إليه.

* * * *

والواقع التنفيذى للصياغة القرآنية يشير إلى كثافة التحول التركيبى بالتقديم والتأخير؛ إذ اعتمد عليه النص فى سعيه الإيقاعى مهيباً للسجعة سبل الاستقرار فى موقعها يقول الله تعالى: ﴿لَأَمَّا آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾^(١) فقد ألصقوا عبادتهم لغير الله بمشيئة الله، زعماء زعموه غير مستند إلى علم، فجاء الاستفهام بـ (أم) ينفى أن يكون الله آتاهم كتاباً قبل القرآن نسب فيه مثل هذا الكفر لذاته ومشيئته فحصل لهم علم من جهة الوحي الموضع فى ذلك الكتاب (فهم به مستمسكون)، والملاحظ أن فى الآية الكريمة تقديمين، أولهما تقديم الجار والمجرور (به) على عامله (مستمسكون) والثانى تقديم المسند إليه (هم) على الخبر المشتق (مستمسكون) والتعامل مع بنية التقديم المزدوجة يحقق نواتج عدة فإضافة إلى تهيئة الفاصلة للاستقرار فى موضعها، يفيد التقديم فى الحالة الأولى قصر الاستمساك على ذلك الكتاب دون غيره، أما تقديم المسند إليه فهو لتقوى الحكم وتأكيد استمساكهم بزعم لا أساس له. بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾^(٢) فيأتى التقديم والتأخير ليؤدى دوره على مستوى السطح والباطن -أيضاً- فى هذه الآية حيث يتقدم الجار والمجرور على عامله (مهتدون). ومن اللافت أنه على مساحة البنية النحوية تقوم العلاقات الدلالية بين الآيات بالإعلان عن نفسها، ففى الآية التالية موقف مماثل للموقف السابق المحكى من خلال النص: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾^(٣) ويتجلى هذا التماثل بين الموقفين

(١) الزخرف: ٢١.

(٢) الزخرف: ٢٢.

(٣) الزخرف: ٢٣.

على مساحة البنية النحوية إذ يتبدى فى ختام الآية تركيب نحوى تعمل فيه القاعدة التحويلية ذاتها؛ قاعدة التقديم والتأخير بكل نواتجها الدالية والإيقاعية.

ويتصاعد الحكى متضمناً فى بنائه علاقة حوارية بين طرفين يمثل الأول منهما "شخص النذير" والآخر "شخص المندرين": ﴿قَالَ أَوْلَوْ جُنُتْكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(١) ويتضح التعدد الصوتى على المستوى اللغوى التبادلى بين طرفى الحوار الذى ظل مرتبطاً بأسلوب المتحدثين، فبين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ و﴿إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ و﴿إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ تماثل فى التركيب النحوى يعد بمثابة مؤشر على شخص المندرين الذين نتجت عنهم الجمل الثلاث، ويوهم التخالف الدالى بين (كافرون) فى هذه الآية- و(مهتدون) فى الآية قبل السابقة- أننا أمام بنية تقابل تلقى بناتجها على مستوى الجمل، لكنه يتبين من التحرك إلى مستوى البنية العميقة والتغلغل فيه، أن العلاقة المعنوية بين جملة (إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) و الجملة (إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) و(إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)، هى علاقة تماثل. منذر مُصرٌّ على أن يهتدى ويقتدى بما هو كفر، وهذا الإعلان الصريح يحتوى ضمن مشتملاته على كفر بما هو هداية.

* * * *

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٢)، تختتم الآية بعلاقة الإضافة النحوية (عاقبة المكذبين) وهو من الإضافة اللفظية، بوصف المضاف اسم فاعل. واللافت أن العربية تتيح ضمن حيلها التركيبية لتوسعه طرق التعبير أكثر من بديل لهذا التركيب الإضافى النحوى فكان يمكن التعبير عن علاقة الإضافة هنا بطريق علاقة التعدية، كما كان يمكن التعبير عنها بفك مكونات "المضاف إليه" إلى

(١) الزخرف: ٢٤.

(٢) الزخرف: ٢٥.

قولنا ﴿لَعاقبة الذين كذبوا الرسل﴾^(١)، أو باعتبار (ال) نائبة عن الضمير في قولنا (عاقبة مكذبيهم) غير أن مجموعة البدائل هذه لا تقدم ما يمنحه التركيب الإضافي، فالإضافة تؤكد قيمتها باعتبارها تعريفاً وتخصيصاً للمضاف، ومع قدرتها على إنجاز الدور الذي يسنده إليها النحو، فهي أيضاً قادرة على إنجاز الدور الذي يسنده إليها الإيقاع، لتنتهي الآية بنقطة الارتكاز الصوتي (النون).

* * * *

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾^(١) برغم خلو الآية من أدوات النفي فإن دلالة السلب تنتشر فيها من خلال مؤشره الدلالي (براء) الذي فجر مضمون النفي في منطقة الإثبات. ويدخل الناسخ (إن) لتأكيد هذا النفي، كما تدخلت (ما) الموصولة مقدمة من خلال علاقتها السياقية عدة إمكانيات دلالية، لقد جاءت لتحقيق أهداف إنتاجية لم يكن من المستطاع تحقيقها لو حل محلها (مَنْ) بوصفها بديلاً يكون لشخص من يعقل، وهو البديل الذي كان يتطلبه التعبير لو تبيننا وجهة نظر العابدين في معبودهم، لكن الخطاب ورد على لسان نبي الله "إبراهيم" فكانت "ما" أداة مدهشة في موقعها، من حيث إنها تبرر رفضه لهذه المعبودات التي لا تعقل، كما تشير إلى امتداد هذا الرفض إلى كافة ما يعبدون على الإطلاق. وحضورها باعتبارها دليلاً يشير إلى الموصول - هياً لحذف الضمير "العائد" من جملة الصلة اكتفاءً بدليله لتستقر النون في ختام الآية بوصفها إحدى نتائج ذلك الفعل الصياغي.

* * * *

وتؤثر الصياغة أداة الاستثناء (إلا) ليكون لها مكان الصدارة منها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾^(٢) لا فته بهذا التصدير إلى الصلة المعنوية بين ما بعد إلا وما قبلها، والتي عنها يتفجر في التعبير غير وجه دلالي.

(١) الزخرف: ٢٦.

(٢) الزخرف: ٢٧.

- الوجه الأول: أن يكون استثناء انقطعت فيه صلة البعضية التي من المفروض أن تربط المستثنى بالمستثنى منه، مع بقاء نوع اتصال معنوي يربط بينهما، أى أن (إلا) الدال الحاضر على المستوى السطحي للصياغة يعادل دالاً غائباً هو (لكن) الذى يفيد الابتداء أو الاستدراك مع تأكيد الصلة المعنوية بين سابقه ولاحقه كأنه قال: إننى براء مما تعبدون لكن الذى فطرني فإنه سيهدين، غير أن إثارة الصياغة لـ (إلا) خلق تأثيراً دلاليّاً مكثفاً يتعاون فى تكوينه الدالان؛ الحاضر بما يؤدى من معنى الاستثناء، والغائب بما له من معانٍ مذكورة عالياً.

- والوجه الثانى: إن يكون (الذى فطرني) بدلاً من المجرور بمن فى الآية السابقة، كأنه قال: إننى براء مما تعبدون إلا من الذى فطرني، وكانوا يعبدون الله مع أوثانهم. لكن هذا التوجيه وإن صح نحوياً، إلا أنه تدحضه لفظة (ما) بما تحمله من معانى الإبهام والإطلاق، أى مخالفته لهم كائناً من كان معبودهم.

- والوجه الثالث: أن يكون الدال المعادل لـ "إلا" على مستوى حركة الذهن الاستبدالية هو "غير" وعلى هذا التقدير تكون إلا صفة وما موصوفه كأنه قال: إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرني.

وعلى الوجه الأول تكون الفاصلة (سيهدين) جزءاً أساسياً مكماً للجملة المنصوبة على الاستثناء، لكن يتبدى فى بنيتها (نقص) أتاح لبنية السجع أن تستقر فى موضعها، فقد حذفت ياء المتكلم الساكنة من الفعل، لأن قبلها نون عماد مشعر بها. وجعل المستقبل (سيهدين) موقع الحاضر، دلالة على استدامة ذلك الفعل.

* * * *

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١) أى وجعل إبراهيم صلوات الله عليه - كلمة التوحيد التى تكلم بها، وهى قوله إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرني، كلمة باقية فى ذريته فلا يزال فيهم

(١) الزخرف: ٢٨.

من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، وتنتهى الآية بجملة يتصدرها دال
الترجى (لعل) وقد ورد هذا الدال بصورة ما يختلج فى نفس ذرية
إبراهيم ممن آمنوا بما دعا إليه من عبادة الله - من الرجاء والطمع فى
أن يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد منهم.

ومن الواضح أن النص على مدار الآيات التى قام البحث بتحليلها،
أخذ يستفيد من الإمكانيات التركيبية للغة من أجل ممارسة قدرة على
إصابة الدلالة وتشكيل الإيقاع.

* * * *

وقد كان البحث يضع ضمن خطته تحليل السورة تفصيلاً من أجل
ملاحظة شمولية للكيفيات التى يأخذها فعل التعليق النحوى بين الكلمة
المسجوعة والسياق واستخراج دلالتها، غير أن الكثافة الظاهرة - رأسياً
- للعلاقات السياقية النحوية التى تم رصدها حتى هذا القدر التحليلي
وملاحظة تكررها بطول الخط السياقي للسورة، يكسب هذا القدر من
التحليل كفاءة تمثيل الجزء للكل الأمر الذى يثنى عزم البحث عن
استكمال التحليل التركيبى للسورة؛ حيث إنه فى هذا القدر ما يكفى
لاستخلاص أبرز ضروب التركيب النحوى بين السجعة والسياق.

ويدل التحليل على شيوع بعض العلاقات اللغوية أكثر من غيرها
مفسرة روابط الدلالة التحتية بين اللفظة المسجوعة والألفاظ المجاورة
فى السياق. فمن الملاحظ أن النص يتعامل انتقائياً مع بعض التراكيب
التي مثلت نزعات مركزية فيه يتفوقها على غيرها مما تجمعها بها
علاقة البنية اللغوية، ومن أبرز هذه العلاقات النحوية الفاعلة فى تشكيل
أسلوبية النص القرآنى:

١- الميل إلى التعامل فى ختام الآية مع مركبات اسمية تبدت فى
تراكيب وصفية وإضافية تنتج إيقاعياً كما تنتج دلالياً، وكأن النص
حريص على أن يستبطن الدلالة التأسيسية فى بنية تشكيله اللغوى، وقد
أوضحنا فيما سبق وظيفة هذه التراكيب فى التأسيس الدلالي بإضافة
زوائد دلالية إلى الناتج. وإمعاناً فى التأسيس الدلالي من خلال المركب

الوصفي، وجدنا حرص النص على تأخير الوصف الأبلغ عما هو دونه وفيه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

٢- سيطرة الأسلوب الإنشائي على العبارة المسجوعة سلباً وإيجاباً، ولهذا التسلط فاعليته من حيث يعتبر ركيزة من الركائز المنتجة للدلالة.

٣- الخروج على القاعدة العامة لترتيب الكلمات عن طريق التقديم والتأخير ويتلاقى مع ذلك إحداث مزيد من المخالفات التركيبية التي مهدت لاستقرار الفاصلة في موضوعها، والتي تعد اختراقاً للقانون اللغوي من مثل الجمع بين المجزئات في نحو ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾^(٢) قال ابن الصائغ: "فإن الأحسن الفصل بينهما إلا أن الفاصلة اقتضت عدمه وتأخيرها: تبيعاً"^(٣).

٤- حذف جزء من أجزاء التركيب كان يتعين ذكره بعد اللفظة المسجوعة، لأنه إذا عوضه الذكر فسد الإيقاع والتدقيق المعنوي معاً، فكان الحذف أولى من الذكر وخاصة مع فاعليته في إطلاق الطاقة الاحتمالية للتدليل على المحذوف.

٥- سيطرة دينامية الحدث على الدال المسجوع الذي تتعين داخله بنية السجع، فكثيراً ما اختتمت الآيات بجملة فعلية، كما أن معظم الجمل الاسمية الواقعة في ختام الآية سواء أكانت منسوخة أو غير منسوخة جاء خبرها إما جملة أو اسماً مشتقاً. ولأن الخطاب الموجه في النص القرآني يخاطب الذات الجماعية لذلك كانت واو الجماعة أكثر اللواحق التي لحقت بالأفعال من حيث الحضور الكمي داخله في سياقها الذاتي، كما دخلت "الواو" في السياق الذاتي للأسماء المشتقة بوصفها علامة محضة على الجمع^(٤)، فيما كان السماح لوسائل تعبيرية - كالتقديم

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) الإسراء: ٦٩.

(٣) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ج-٣، ص ٣٠١.

(٤) يقول ابن القيم الجوزية "الواو والألف في يفعلون وتفعلان أصل للواو والألف في الزيدون والزيدان... لأنها إذا كانت في الأفعال كانت أسماء وعلامة جمع، وإذا كانت في الأسماء كانت علامة محضة لا أسماء وما يكون اسماً وعلامة في حال هو الأصل لما يكون حرفاً في موضع آخر إذا كان اللفظ واحداً، نحو كاف الضمير

والتأخير والحذف- بإيحاء فعلها في ختام الصياغة عاملاً أساسياً في أن النون -التي تأتي عوضاً عن التثنية في الأسماء المجموعة جمع السلامة والمثناة، وعوضاً عن حركة الإعراب في الأفعال الخمسة- كانت أكثر الحروف تكراراً في منطقة النقل السجعي.

٦-الفصل بين المسند والمسند إليه بضمير الفصل.

٧-الاعتراض بوضع أحد عناصر التركيب بين اللفظة المسجوعة وعناصر السياق بما يفصم اللحمة النحوية -على المستوى السطحي المرئي فقط- خاصة حين تكون علاقة اللفظة المسجوعة بعناصر السياق علاقة المسند والمسند إليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ زُخِرْفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١). إن هذا الفعل الصياغي يؤدي أكثر من دور على المستويين الإيقاعي والدلالي، حيث يضمن للمسند الحلول في منطقة التسجيع كما يقوم بالتنبيه على المعترض به عن طريق التعجيل بذكره الذي يدحض في الآية- ما قد يغلب على ظن الكفار من وجود إله غير الله.

٨-ومن الواضح أن النص القرآني؛ النص الذي بلغ أعلى مراتب التفنن في القول، يتوخى معاني النحو على حسب الأغراض التي يساق لها الكلام، بحيث يستدعي الغرض طريقة ونمطاً معيناً من التركيب فإذا تغير الغرض تغيرت هذه الطريقة ويتضح ذلك في انتقاء النص لوجه إعرابي دون بدائله، وذلك لإصابة الهدف الدلالي، وكأنه يفصح تطبيقياً عن المقولة الشهيرة "الإعراب فرع المعنى". ففي قوله تعالى: ﴿لَهُذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾^(٢) جاء الفعل (يَعْتَذِرُونَ) مرفوعاً معلناً ضمناً عن طبيعة الفاء التي تسبق الفعل، فهي عاطفة، ذلك

وكاف المخاطبة في ذلك، وهذا أولى بنا من أن نجعل الحرف أصلاً والاسم فرعاً له، يدلك على هذا أنهم لم يجمعوا بالواو والنون من الأسماء إلا ما كان فيه معنى الفعل كالمسلمون والصالحون، دون رجلون وخيلون". بدائع الفوائد، ابن القيم، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٦٩، ج١، ص ١١٢.

(١) الزخرف: ٣٥.

(٢) المرسلات: ٣٥-٣٦.

أنها لو كانت سببية لاقتضى نصب الفعل بعد الفاء المسبوقة بنفى -على القاعدة المشهورة- وقد ذهب الفراء إلى أن المعول فى ترجيح الرفع على النصب فى هذه الآية هو رعاية الفاصلة، يقول: "نويت بالفاء أن تكون نسقاً على ما قبلها، واختير ذلك لأن الآيات بالنون، فلو قيل (فيعتذروا) لم يوافق الآيات".^(١) غير أن استتطاق الاختيار الإعرابى عن مسوغه الحقيقى يبدأ من إقامة العلاقة بين البنيتين النحوية والدلالية، فالمعول فى ترجيح الرفع على النصب هو المعنى المقصود من النظم الكريم، فلو اعتبرت الفاء سببيه ونصب ما بعدها فسيصير المعنى: أن الكفار لا يؤذن لهم يوم القيامة فيعتذروا عما بدر منهم من كفر وتكذيب، أى أن نفى الاعتذار راجع إلى نفى الإذن به، وكأن لهم أعذاراً فعلاً لم تُتخَ الفرصة لهم ليبوحوا بها مع أن ذلك ليس مقصوداً، وإنما المقصود نفيه هو وجود العذر المقبول فى ذاته، ولذلك كان الرفع بالعطف أصوب من النصب بالسببية لأن العطف يجمع بين نفى الاعتذار ونفى الاسم جميعاً. وقد أحاط الفخر الرازى بهذا الفارق الدلالى فى قوله: "لَمْ يَلَمْ يَقُلْ: (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُوا) كما قال: (لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا)؟ الجواب: الفاء ههنا للنسق فقط، ولا يفيد كونه جزاء البتة، ومثله: **لَمَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**"^(٢) بالرفع والنصب، وإنما رفع يعتذرون لا لأجل عدم الإذن، بل لأجل عدم العذر فى نفسه، ثم إن فيه فائدة أخرى، وهى حصول الموافقة فى رعوس الآيات لأن الآيات بالواو والنون، ولو قيل: فيعتذروا لم تتوافق الآيات"^(٣).

ومن الأمثلة الأخرى التى تبدو على المستوى السطحى مخالفة للعرف اللغوى النحوى حسبما هو مشهور عند العلماء قوله تعالى: **لَمَّا**

(١) معانى القرآن، الفراء، ت: محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ج-٢، ص ٢٢٦.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازى، دار الكتب العلمية، بيروت، ج-٣، ص ٢٤٧.

يَضُرُّوَكُمْ إِلَّا أَذَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَنْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ^(١) منع الفعل (لا ينصرون) الجزم مع ما يبدو من كونه معطوفاً على المجزوم، وفى هذا المنع إشارة إلى أن التشكيل الصياغى يتول فى البنية العميقة إلى الاستئناف وليس العطف أى أن المعنى "ثم هم لا ينصرون"، الاستئناف يحدث توسعاً فى زمن الفعل، إذ لا يرتبط عدم انتصار العدو بوقت انهزامه وتولييه وإنما يأخذ خذلانه طبيعة استمرارية، فهو مع انهزامه وتولييه الآن لا ينصر أبداً فى المستقبل.

كانت هذه جملة من العلاقات السياقية النحوية بين الفاصلة المسجوعة وسياقها التى تبنت من خلال سورة الزخرف بالتواصل مع النص القرآنى كله، ممثلة ظواهر نحوية فاعلة فى النص، أسهمت فى تشكيل أسلوبيته. وننتقل فيما يلى إلى تناول علاقة سياقية أخرى من خلال تحرك على المستوى الدلالى.

مستوى العلاقات السياقية الدلالية

فيما يعنى البحث بمتابعة سياقية تتحرك على كافة مستويات اللغة، يأتى تناول المدرك الدلالى الناتج من علاقات اللفظة المسجوعة بالمفردات المجاورة لها فى السياق بوصفها أحد أوجه هذه العناية.

ويؤكد علم اللغة أنه كى تكون جملة مقبولة دلالياً ينبغى أن يقر العقل الارتباط القائم بين معانى عناصرها قياساً على ما استقر فى الفكر الإنسانى من علاقات الارتباط المنطقى بين المعانى فى الكون، "فالقضية قضية علاقات بين معانى الكلمات، وتجاذب وتتافر بينها، قضية تحقق الانسجام أو انعدامه بين تلك المعانى".^(٢)

لكن قد يحدث فى نطاق جمالية التنفيذ اللغوى، أن يجتمع فى تركيب جملة صحيحة نحويًا كلمات متنافرة دلالياً من جهة رفض معيار الحقيقة عرض المكون الدلالى الناتج عن تفاعلها عليه، وفى هذه الأثناء يبدو

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة، مصطفى حميدة، ص ٧٧.

التركيب النحوى معطلاً، رغم صحته، عن القيام بدوره فى أداء المعنى، فإن علماء الدلالة يشترطون "تركيباً دلالياً، أو نوعاً من التوافق الدلالى لابد أن يتوازى مع التركيب النحوى، لكى تصبح جملة ما مفهومة، أولها معنى" (١) وحال تنافر عناصر التركيب قياسياً على المعهود الدلالى فى نظمها، يظل أمر الدلالة وقبولها مرهوناً باكتشاف العلاقة العقلية والمنطقية التى يمكنها أن تفسر لنا عناق المتنافرات، والأمل فى انكشاف تلك العلاقة عن كنهها يتحقق أولاً: بالتحرك على ضوء القرائن السياقية لفظية أو حالية نحو بنية العمق، فهناك تفرز القواعد التركيبية العميقة علاقات غياب ذات فاعلية فى تبرير قدرة العناصر المعجمية اللامتلازمة منطقياً أو إسنادياً على إقامة مستوى من العلاقات فيما بينها، على معنى أن بنية السطح إذ تستأنف وجهاً جديداً يخترق الوجه المألوف فى إجراء الألفاظ فى الإسناد فهى إنما تعول بالأساس على تحرك الملتقى نحو البنية العميقة التى تستبطن ضمن تشكلها اللغوى علاقات غياب تؤدي دوراً كبيراً فى تفسير علاقات الحضور على السطح الصياغى بحيث يستقيم المعنى ويصبح مفيداً من خلال العلاقات المنطقية المدركة بين الدوال الحاضرة والغائبة، فباستضاءة تلك العلاقة يتم نقل دلالة الألفاظ التى لا ينسجم مدلولها الاصطلاحي مع التركيب إلى مدلول ثان يلائم السياق العام. ولا شك أن هذه العلاقة هى ذاتها "الملاحظة" التى وضعها "الجرجاني" بوصفها شرطاً ضرورياً فى عملية المجاز. (٢) والواقع أن علم البيان فى كل أبوابه "هو فى حقيقة أمره يرتكز على [علاقات الارتباط المنطقية]، ويتخذ منها أساساً لوجوده، بعد أن يعدل بها

(١) نظرية تشومسكى اللغوية، جون ليونز، ت: حلمى خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥، هامش المترجم ص ١٤٨.

(٢) هذه العلاقة هى ذاتها "الملاحظة" التى وضعها الجرجاني كشرط ضرورى فى عملية المجاز، إذ قال محدداً المجاز "فأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن يستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز"، أسرار البلاغة، الجرجاني، ص ٢٣٢.

والواقع أن علم البيان في كل أبوابه "هو في حقيقة أمره يرتكز على [علاقات الارتباط المنطقية]، ويتخذ منها أساساً لوجوده، بعد أن يعدل بها عن أصولها في ظل عملية التخيل، وهو ضرب من ضروب الاستعمال العدولي".^(١)

التركيب الدلالي الخاص للفظ المسجوعة مع عناصر السياق:

من مظاهر جمالية التنفيذ اللغوي في الأداء القرآني، قيام النص في أكثر من موضع منه بهز قاعدة الملائمة الدلالية بين اللفظة المسجوعة وعناصر السياق المجاورة، وذلك من خلال تركيب مرفوض من قبل معيار الحقيقة الذي لا يقبل عرضه عليه حيث يتجاوز الإسناد فيه المطابقة بين اللغة والواقع، وتشير مستخلصات النظر الرصدي في القرآن الكريم إلى أن الوقائع الأسلوبية من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل ومجاز عقلي، تلك الوقائع التي تمثل اللفظة المسجوعة جزءاً من بنيتها تتمتع بحضور لغوي نسبي في النص القرآني.

ولكن البحث يولي اهتماماً خاصاً ببعض التراكيب المجازية التي ربما يظن أن تجاوزها للمستوى التداولي في التركيب اللغوي ذو صلة بالبنية الإيقاعية فحسب، إذ كان اختراق المؤلف التركيبي الدلالي ناتج انتخاب فاصلة هي بمثابة تكرار للأثر الإيقاعي للفاصلة السابقة أو اللاحقة، ومن ثم بدا التركيب المجازي في الظاهر كما لو كان راجعاً إلى عناية بتمائل البنية المقطعية للفواصل في إطار ما سماه القدماء "مراعاة الفاصلة"، وهي الظاهرة الأسلوبية التي رأيناها -على مدار النص- تتآزر مع التماثل الحرفي "السجعي" لتعطى الإيقاع الختامي بعداً صاعداً، وحديثنا هنا يتناول بعض تلك الشواهد متابعاً الدلالة في انتقائها لعناصر بنيتها، محاولاً الكشف عن الغرض الأول الذي استدعى العدول

يستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز"، أسرار البلاغة، الجرجاني، ص ٢٣٢.

(١) نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة، مصطفى حميدة، ص ٩١.

عن الحقيقة إلى المجاز، هل هو فعلاً المستهدف الإيقاعى أم أن هناك
غرضاً أصيلاً يسبقه؟.

واختيار لفظة "راضية" فى قوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾^(١) يكون

(١) سورة الحاقة: ٢١.

مثار دهشة، تزول مع التحقق من أنه اختيار وظيفي يؤدي دوره على المستوى الدلالي كما يؤديه على المستوى الإيقاعي، فهذا التعبير من المجاز العقلي، حيث يحدث تجاوز في مستوى الجملة النحوية نتيجة إسناد اسم الفاعل (راضية) إلى مفعول به في الأصل (عيشة)، فنتج عن ذلك انتقال المفعول من موقع (المتمم) إلى خانة الفاعل (المسند إليه)، فتكون العيشة راضية مع أن أصل الرضا أن يكون لصاحب العيشة، ويحقق ذلك التجاوز مبالغة في المعنى فكأن الرضا تجاوز صاحب العيشة إلى العيشة نفسها فأصبح متبادلاً بين الطرفين، هناك مبالغة في إثبات الرضا لصاحب العيشة حتى كأن الرضا فاض منه عليها مما يشعر باستقرار واستدامة هذه العيشة التي لا ينالها تكدير أو تنغيص.

ويحدث هذا العدول الدلالي تغييراً من نوع آخر يتعلق بتصنيف الموجودات، ذلك أن مفهوم "عيشة" عندما يجرى مجرى "صاحبها" فإنه يكتسب جملة من السمات لم تكن له في الأصل، فيدخل في مكوناته الدلالية خواص جديدة؛ إذ تلتحق العيشة بجنس البشر في الإحساس.

فمن السمات الدلالية لـ[صاحب العيشة] أنه دال على (+حى)، (+محسوس)، (+بشرى). وفي نطاق هذا المجاز تكون [العيشة] دالة على مفهوم مجرد (+محسوس)، (-بشرى). ومن ثم فإن المجاز في قوله تعالى: (عيشة راضية) يحتمل رده إلى الاستعارة المكنية -على مذهب السكاكي- فيكون التجاوز في تصوير العيشة بمن يقع منه الرضا ويوصف به وهو صاحبها^(١)، ولئن كان التركيب يحتمل التخريجين فإن ما يحكم اختيار التخريج المناسب هو الغرض والمقام، والأوفى به هنا هو المجاز العقلي لأن الغرض المبالغة على نحو ما ذكر وليس المقصود تصوير العيشة في الرضا بالإنسان.

وهكذا نرى أن الدلالة حينما انتخبت عناصرها قدمت للإيقاع واحداً من مظاهره وهو تكثيف التشاكلات المقطعية بين الفواصل المتتالية:

(١) شاع على الألسنة مجى مثل هذا التعبير المجازي، فيقال: عيشة سعيدة، أو عسة، أو بانسة، أو هنيئة... وغيرها.

كتابه	٣ ٧ ٢ ٧
حسابيه	٣ ٧ ٢ ٧
راضيه	٣ ٧ ٢ ٧
عاليه	٣ ٧ ٢ ٧

الأمر الذى لا تستطيع لفظة (مرضية) تأديته.

ويعصف القرآن البلد بالأمين فى قوله تعالى (والبلد الأمين) مع أن الأصل أن يكون آمناً، ولهذا الوصف قيمته على المستويين الدلالى وللإيقاع معاً.

* * * *

وفى إطار متابعة المدرك الدلالى الناتج من علاقة اللفظة المسجوعة بمفردات السياق تبين حضور الترادف بينهما بوصفه رابطاً تجاورياً، وقدم نفسه أفقياً فى العديد من المواضع، ومن أمثلة تحقق المجاورة الترادفية فى ختام الآية مع غياب المساحة الصياغية التى تفصل بين المترادفين قوله تعالى: ﴿لَا أَدْرُكُ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾^(١) وقوله: ﴿لَا أَدْرُكُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾^(٢) وكما هو معروف فى اصطلاح الشرع فإن الدال (رسول) يستدعى ضرورة فى المستوى العميق دال النبوة باعتبار النبوة أساس كل رسالة ربانية لأن اختصاص الرسول بكتاب ينزل معه لا يحدث إلا بعد أن تتأكد السفارة بينه وبين مقام الألوهية.

ومن ثم فإن التعبير فى الآية يثير جدلاً ولده الجمع بين مترادفين مع إمكان الاستغناء بالأول عن الثانى لأن الأول خاص والثانى عام وفقاً لتفسيرهما فى اصطلاح الشرع، ولا يأتى العام بعد الخاص على ما هى القاعدة فى ترتيب المترادفات. ومن هنا جاء عن الزركشى أن ورود

(١) مريم: ٥١.

(٢) مريم: ٥٤.

النبي وتأخيرَه عن لفظ رسول كان من أجل "مراعاة الفاصلة" التي تختتم بتسجيع "يائي". ويكاد الشيخ عبد الرحمن تاج يتابع الزركشى في ذلك الرأي، ففي معرض تدليله على أن القرآن يقدم ويؤخر لتوخي التناسب بين الفواصل يقول: "وذلك أن الرسالة أخص من النبوة، والمعهود في الكلام المرسل الذي يجمع بين عام وخاص وأن يقدم الأول على الثاني، لكنه قدم في هاتين الآيتين الخاص على العام، مراعاة لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى".^(١)

والقول بأن ذكر المترادفين راجع إلى مراعاة الفواصل، هو مذهب يفتقر إلى الدقة من عدة نواحي:

أولاً: الدقة في تتبع مواطن اجتماع الدالين: (رسول، نبي) في النص القرآني، فقد وردا معاً في غير موضع الفاصلة، والصورة نفسها من التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾^(٢) كما ورد كذلك في قوله تعالى: ﴿قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾.^(٣)

ثانياً: حينما نتابع كتب المعاجم وتفسير ألفاظ القرآن نجد أن الآية الكريمة - على عكس ما قيل - ماضية على الأصل في الترقى من العام إلى الخاص، فالرسول في اللغة معناه: "الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قولهم: جاء الإبل رسلاً، أى متتابعة"^(٤) ويفسر الراغب الأصفهاني كلمة نبي بقوله: "النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية".^(٥)

(١) بحوث قرآنية ولغوية، الشيخ عبد الرحمن تاج، جمعها أبو بكر عبد الرازق، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٠، ١١٩.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة (ر. س. ل)

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: سيد كيلاني، مطبعة

مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦١، ص ٤٨٢.

تظهر المقارنة اللغوية إذاً أن معنى نبي أخص من معنى الرسول لأنه يشير إلى مخبر عنه محدد هو الله عز وجل، ومن ثم ينطوى لفظ نبي على معنى الخبر الصادق، قال الراغب في ذلك: "النبا خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي فيه نبأ أن يتعري عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى وخبر النبي عليه الصلاة والسلام"، (١) فكان مجيء لفظ نبي إذاً بمثابة تأكيد صدق ما أرسلوا به، وتدعيماً لما تصف به سيدنا موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَخْلُصًا﴾ وسيدنا إسماعيل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

* * * *

ويمثل الجمع بين المترادفين بالعطف، نمطاً ثانياً للمجاورة الترادفية في ختام الآية، ويسجل هذا النمط تردداً واضحاً، وفيه يلاحظ أن اختيار المفردات تأسس على وعى بالتماس الواقع بين مدلولاتها في العمق، وكذلك بالفروق الدقيقة بين المتعاطفين التي تمنح كلاً منهما تفرداً على محور الاستبدال، الأمر الذي يجعل الأولوية في اجتماع المترادفين لصالح الدلالة وليس الإيقاع السجعي كما قد يظن، يقول تعالى في سورة المدثر: ﴿لَسَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ (٢) ثمة فروق بين المعطوفين (تبقي، وتذر) يمكن استنباطها من قول ابن عباس في تفسير الآية "إذا أخذت فيهم لم تبقي منهم شيئاً، وإذا بدلوا خلقاً جديداً لم تذر تعاودهم سبيل العذاب"، (٣) فإن نفي الإبقاء معناه أن نار جهنم لا تبقى شيئاً يلقي فيها إلا أهلكته، ولا تذر ما يلقي فيها هالكاً إلا أعادته مرة ثانية كما كان حتى يستمر في العذاب. (٤)

وقد يتماس المرادف الأول كلياً مع اللفظة المسجوعة، بينما تزيد

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨٢.

(٢) المدثر: ٢٦ - ٢٨.

(٣) روح المعاني، الألوسي، مكتبة التراث، ص ٢٩، ص ١٢٥.

(٤) انظر تفسير أبي مسعود، دار أحياء التراث العربي، ج ٨، ص ٥٨.

هى على مضمونه ببعض الإضافات التعبيرية التى تحملها ضمن عناصر مكونها الدلالى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَئِمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾^(١) والحديث فيها متعلق بالوليد بن المغيرة. ويوضح الفخر الرازى فروقاً بين عبس وبسر فيقول: "عبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه فى عبوسه قيل كبح، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل بسر، فإن غضب مع ذلك قيل بسل"^(٢) يظهر من قول الرازى أن العبوس داخل ضمن عناصر المحتوى الدلالى للدال (بسر) مع زيادة فى الثانى تشير إلى طول التفكير والاهتمام، كما تشير إلى الغيظ والكراهية الشديدة، وبذلك كانت المسألة فى الجمع بين المترادفين تؤدى تدرجاً فى الوصف للحالة النفسية للوليد، وتجليها على ملامحه، حتى استتبط حيلته فى الطعن عليه فاتهمه بالسحر فى قوله: ﴿لَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(٣) وقد فسر الزمخشري هذه الآية بقوله: "وصف أشكاله التى تشكّل بها حتى استتبط ما استتبط استهزاءً به"^(٤).

الترادف إذا عملية تأسيسية غايتها تقديم إضافة جديدة إلى المعنى من خلال الدال الثانى، وجدير بالذكر أن تلك الإضافة المعنوية التى يقدمها هذا الدال ليست دائماً وليدة "سماته الدلالية"، إذ ربما انغلقت شفرة الدلالة إلى حين حضور المثلث بشكل فاعل فى ربط الدوال المترادفة بزمانية معينة أو مقام محدد، وعندئذ تتبدى الإضافة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾^(٥) فربط كل من اللفظين (ظلماً - هضماً) بزمانية محددة من خلال سياق القول يمكن التوصل إلى الفرق بينهما، والإضافة التى يقدمها لفظ (هضماً) بعد (ظلماً).

إن عدم الخوف يتصل بتحقيقه بزمان الحياة الآخرة حيث الحساب،

(١) المدثر: ٢٢.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازى، جـ ٣٠، ص ١٧٧.

(٣) المدثر: ٢٤.

(٤) الكشف، الزمخشري، جـ ٤، ص ١٥٨.

(٥) طه: ١١٢.

ومن ثم يمكننا تفسير (الظلم) فى نطاق هذه الحلقة الزمنية بأنه عدم تحقق الجزاء الذى وعد الله به عباده الصالحين فى الدنيا، واستكمالاً لصورة العدل الإلهى فى مجازاة العباد فإن القول الربانى يؤكد أن الجزاء مع تحققه لن يكون منقوصاً أبداً، فعلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات ألا يخافوا فى الآخرة ظلماً ولا هضمًا.

* * * *

وفى مستوى السياق الدلالى تتردد ظاهرة من ظواهر العدول، استوقفت كلاً من البلاغيين والمفسرين القدامى، وهذه الظاهرة هى مخالفة المعيار الدلالى فى الترتيب بين المعطوفات وبخاصة فى ختام الآية القرآنية حيث ارتكاز السجع. وقد أشار السهيلى إلى المعايير الأساسية التى تحدد ترتيب المعانى من حيث التقديم والتأخير إذ يقول: "ما تقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقديم المعانى فى الجنان؛ والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق"^(١) وفى القرآن نماذج كثيرة تقدم فيها ما حقه التقديم على اللفظة المسجوعة متفقاً والمعايير سابقة الذكر، منها تقديم الأسبق زمناً فى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾^(٢) فإن الموت مرحلة تسبق مرحلة الحياة الأبدية فى الآخرة ولذا كان أولى بالتقديم. وربما روعي فى التقديم شرف المتقدم وفقاً للعرف كما فى قوله تعالى: ﴿لَأَكْفُرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾^(٣) ومن التقديم لشرف الفضيلة أيضاً تقديم موسى على هارون فى قوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(٤).

ومن الآيات التى جاءت مغايرة للمعايير السابقة فى الترتيب بين الدوال

(١) نتائج الفكر فى النحو، السهيلى، ص ٢٦٧.

(٢) النجم: ٤٤.

(٣) النجم ٢١.

(٤) الأعراف: ١٢١-١٢٢، والشعراء: ٤٨.

المعطوفة تقديم (الأرض على السماء)، وفي القرآن ما يزيد على مائتي موضع تقدمت فيها السماء على الأرض جرياً على الأصل في تقديم الأشرف. بينما تقدمت الأرض على السماء في ثلاث عشرة آية، منها آيتان وقعت السماء فيها فاصلة، وإحداهما فقط كانت الفاصلة فيها مسجوعة هي قوله تعالى: ﴿لَا يَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾^(١). والتقديم عموماً قد ينظر فيه إلى معايير ترتيب المعاني، وقد ينظر فيه إلى السياق ومتطلباته، وبهذا فسر السهيلي موافقة ومخالفة المعيار الدلالي في العطف بين الأرض والسماء، قال: "وأما تقديم السماء على الأرض فبالترتبة أيضاً وبالفضل والشرف، وأما تقديم الأرض من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾...^(٢) فبالترتبة، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: "وما تعلمون من عمل" فاقترضى حسن النظم تقدمها مترتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها"^(٣) وربما كان ما نظنه مخالفة هو في حد ذاته موافقة للمعيار، فالتقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل، وقد يعكس على سبيل الترقى من الفاضل إلى الأفضل، ومن المواطن التي رصدتها القدامى دليلاً على أن القرآن غاير الترتيب بين المعطوفات لمراعاة حسن النظم السجعي وتناسب الفواصل، تقديم هارون على موسى^(٤) وتقديم العبادة على الاستعانة^(٥) وتقديم الآخرة على الأولى^(٦)، تقديم صحف موسى على صحف إبراهيم^(٧)، تقديم الإناث على الذكور^(٨) تقديم البنات على البنين^(٩)، وتقديم الشقى على السعيد،^(١٠) تقديم

(١) طه: ٤ - ٥.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) نتائج الفكر في النحو، السهيلي، ص ٢٧٠.

(٤) طه: ٧٠.

(٥) الفاتحة: ٤.

(٦) النجم ٢٥.

(٧) النجم: ٣٦ - ٣٧.

(٨) الشورى: ٤٨ - ٥٠.

(٩) الصافات: ١٤٩، الزخرف: ١٦، النحل: ٥٧، الطور: ٣٩.

(١٠) الليل: ١٤ - ١٧.

الفجور على التقوى.^(١) وهذا الأسلوب العدولى المتكرر نلاحظه أيضاً فى ترتيب الصفات حيث يتقدم الوصف الأبلغ على غيره مخالفاً ما تقضى به قاعدة الترقى من تأخير الأبلغ، وهو من الأدلة التى ساقها ابن الصائغ الحنفى على قصد النص مخالفة الأصول تحقيقاً للتناسب بين الفواصل، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، وفى النص ثمة مواضع أخرى بدت فيها مخالفة المعيار الدلالى فى الترتيب بين الصفات من أمثلتها، تقديم السميع على العليم، وتقديم الشاكر على العليم وتقديم العليم على الحكيم، وتقديم الرحيم على الغفور، وتقديم الرسول على النبى، وتقديم العلى على الكبير، وتقديم الحفيظ على العليم، وتقديم مكين على أمين، على أن سر مخالفة الأصل فى هذه المواضع جميعاً راجع إلى دقائق وأسرار لا يحرم المتأمل من شئ منها لو أحسن التأمل وعمق التفكير: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٤).

[٣] العلاقات السياقية الصرفية

هناك قواعد تضبط تلاؤم الوحدات المعجمية بعضها مع بعض باعتبار سماتها الصرفية، أو بتعبير آخر - باعتبار المعانى الصرفية التى تشحن بها المفردات وتحملها ضمن مكونها الدلالى الداخلى، فالواقع أن كل ما ينشأ على المستوى الصرفى من علاقات استبدالية أو علاقات تلاؤم سياقية إنما هو ارتباط معنوى لا لفظى؛ إذ لا سبيل إلى تصور نشوء علاقات بين مبان فى الذهن.^(٥) والسمات الصرفية للمفردة تتحدد كما هو معلوم من جهة معانى التقسيم أهى اسم أم فعل أم ضمير... كما تحدد من جهة الجنس مذكراً أم مؤنثاً، ومن جهة العدد مفرداً أم مثلى أم

(١) الشمس: ٨.

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) النور: ٢٠.

(٤) هود: ١.

(٥) انظر: نظام الارتباط والروابط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة،

ص ١١٥-١١٦.

جمعاً، وهى تمثل قيود تبيح أو تمنع ورود مفردة مع أخرى ودخولهما فى علاقة سياقية، واللافت أنه قد جاء فى النص القرآنى، وخاصة فى موضع الفاصلة حيث الحول السجعى، ما بدا كسرا لقيود التوارد الصرفى حيث بنيت الفاصلة القرآنية بناء صرفياً خاصاً يخالف البناء الظاهر للأسلوب الواردة فيه.

والملاحظ الأول الذى يقابلنا فى المستوى الصرفى، هو العدول عن المطابقة فى الجنس، وبرغم الكثافة العددية المتواضعة التى يسجلها ذلك الملاحظ، فإنه يعد جديراً بالاهتمام فى إطار التشخيص الأسلوبى للسجع القرآنى. ونورد فيما يلى آيات وردت فيها اللفظة المسجوعة على التذكير مع أن التأنيث كان مقتضى ظاهر الكلام، ومنها قوله تعالى فى حديث رب العزة عن مريم ابنة عمران ؑ...وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ؑ،^(١) فقد أثر النص فى الاختيار الصياغى لهذه الآية جمع المذكر (قانتين) على جمع المؤنث، وربما يؤول هذا الفعل الصياغى إلى أن القنوت صفة يصح أن تشمل الذكور والإناث، فأوثر المذكر على المؤنث لشمول الأول منهما الثانى على سبيل التغليب. والاحتمال الثانى أن تكون (من) ابتدائية ويكون المعنى: وكانت من سلالة قوم قانتين؛ التفاتاً إلى إنها من نسل هارون أخى موسى عليه السلام.^(٢)

وعلى هذا النحو جاء تغليب المذكر على المؤنث فى قوله تعالى: ؑلَا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ؑ.^(٣) إن صيغة المذكر تضمن للنون الاستقرار فى منطقة النقل السجعى، لكن العدول لا يخلو من مقصد دلالى. فمن المحتمل أن يكون إثثار التذكير راجعاً إلى شمول جمع المذكر لجمع المؤنث على سبيل التغليب. وثمة مخالفة أخرى فى هذه الآية تنتمى إلى المستوى الدلالى، فإن تقديم السجود على الركوع يوحى بأنه إنما حدث لرعاية الإيقاع، ويقدم المفسرون عدة

(١) التحريم: ١٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ج٤، ص ١١٩.

(٣) آل عمران: ٤٣.

احتمالات لهذا التقديم منها: أن يكون السجود كان مقدماً في شريعتهم، أو يكون المراد بالركوع ركوع الركعة الثانية، أو يراد به الشكر، أو يكون المراد بالسجود الصلاة وحدها وبالركوع صلاة الجماعة.^(١)

ومن العدول عن المطابقة الصرفية في الجنس قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٢) قيل في تعليل تذكير رميم مع أنها تخبر عن المؤنث أربع علل:

الأولى: أن (الرميم) اسم لما بلى من العظام وليس بصفة، كالرمة وكالرفات، فهو من الجوامد فلا يجري عليه التذكير والتأنيث اللذان يجريان على الصفة. وهذا التوجيه ضعيف لأن له فعلاً وهو (رم).^(٣)

والثانية: أن (رميما) فعيل بمعنى المفعول لا بمعنى الفاعل، من رم المتعدى بمعنى أبلى. قال الألوسي: "وإن كان - يريد (رميم) - من رم المتعدى بمعنى أبلى يقال: رمه، أى أبلاه، وأصل معناه الأكل - كما ذكره الأزهرى - من: رمت الإبل الحشيش، فكأن ما بلى أكلته الأرض، فهو فعيل بمعنى مفعول".^(٤)

والثالثة: أن عظاماً بزنة المفرد كجدار، وجراب، وكتاب؛ ولذا عومل معاملته، فقليل: رميم، ولم يقل: رميمة وبه قال الأزهرى.^(٥) ويلزم على قوله هذا أن يقال: جمال سريع، ورماح طويل؛ لأن جمالاً، ورماحاً بزنة المفرد كجدار، فعومل معاملته. ولم يقل بهذا أحد من النحاة.

والرابعة: أن (عظاماً) جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث؛ ولذا قيل هى، مراعاة لحكم التأنيث، و(رميم)؛ مراعاة لحكم

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشى، ج٣، ص ٢٤٥.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) انظر: تفسير أبى السعود، ج٧، ص ١٨١.

(٤) روح المعانى، الألوسى، ج٢٣، ص ٥٤.

(٥) انظر تهذيب اللغة، الأزهرى، ج٤، ص ١٤٤.

التذكير.^(١) ويلزم على هذا القول البعيد عن الصواب أن يقال بصحة قولنا مثلاً: أقبلت الجمال وهي نشيط، ونشيطة وهذا لم يقل بصحته أحد.

الخلاصة؛ بهذا يتضح أن العدول الصرفي عن المطابقة في الجنس في هذه الآيات ليس ضرورة اقتضاها حرص على الإيقاع السجعي، ولكنه أتى عن وجه من وجوه اللغة اتفق مع رعاية الإيقاع.

* * * *

ونعرض لظاهرة أسلوبية أخرى تتحقق بكثافة في المستوى السياقي الصرفي مما يمكن لحضور السجع القرآني، هذه الظاهرة هي إثارة الاسمية على الفعلية، ومن أمثلتها قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) عدل النص عن مقتضى الظاهر في هذه الآية فاستبدل الجملة الاسمية بالجملة الفعلية (وما آمنوا) للدلالة على نفى الإيمان عنهم بطريق غاية في البلاغة من عدة وجوه:

أولاً: وجه الكناية، ذلك أن نفى اعتبارهم من المؤمنين لازم لعدم الإيمان، فقد نفى انخراطهم في ملك المؤمنين وبذا نفى الإيمان بطريق أبلغ وأكّد، ومثل ذلك قال رب العزة لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ من الآمنين عدولاً عن صيغة الفعلية. وقال لإبليس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ المنظرين.

ثانياً: ومن وجوه البلاغة في ذلك التركيب تقديم المسند إليه على الاسم المشتق، محققاً بذلك تأكيد نفى هذا الإيمان عنهم.

ثالثاً: يتأكد ثبوت نفى الإيمان من خلال دخول الباء الزائدة على خبر الجملة الاسمية (بمؤمنين).

رابعاً: وعلاوة على الأوجه البلاغية الملحوظة في هذا التركيب فقد كان

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ج ٣، ص ٢١.

(٢) البقرة: ٨.

تدعيماً للبناء السجعي ليس فقط بإيثار صيغة الاسمية وإنما أيضاً بحذف متعلق الإيمان للعلم به، فالتعبير في البنية العميقة هو: وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر، وفي الحذف دليل على نفى الإيمان المطلق، وهذا إضافة جديدة تبرز قيمة البنية السطحية الدالة في هذه الآية.

* * * *

وفي هذا الإطار، يتوجه النص في حركته الانتقائية إلى الأفعال المضارعة بدلاً من الأفعال الماضية، ومع مخاطبته للذات الجماعية يستقر حرف النون الذي سجل تردداً لافتاً بين أصوات السجع في موقعه من ختام الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(١). تقدم هذه الآية أكثر من ملحظ بلاغي، فالعدول إلى صيغة المضارعة فيه إشارة إلى النية الحاضرة لديهم في القتل، وباعتزامهم قتل سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولأنهم رضوا فعل سابقهم الذين كذبوا الرسل وقتلوه، فنسبت الآية القتل إليهم، وقد جاء تقديم التكذيب على القتل موافقاً لقاعدة الترتيب الدلالي.

* * * *

والظاهرة التالية التي تمثل وجوداً ملحوظاً على المستوى الصرفي، العدول عن المطابقة بين العدد والمعدود، وهذا وإن كان متفقاً مع الغرض الإيقاعي، فإن هناك أغراضاً أخرى تمثل أسباباً أساسية في مخالفة الظاهر، نحاول كشفها، وسنورد فيما يلي بعض الآيات القرآنية بوصفها أمثلة لهذه الظاهرة الأسلوبية، فمن ذلك الاستغناء بالمفرد عن المثني: كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢).

(١) البقرة: ٨٧.

(٢) طه: ١١٧.

كان مقتضى الظاهر أن يقال: (فتشقياً) حيث سبق ورود الخطاب للآتين معاً فى النهى عن الإخراج بوسوسة الشيطان. وقد اختص النص آدم بالشقاء الناتج عن الخروج من الجنة دون حواء، ولعل التعبير القرآنى أراد أن يعقد مقارنة تبرز الاختلاف الكبير بين حال آدم فى الجنة فى خطاب الله عز وجل له: ﴿لَإِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾^(١) وحاله بعد خروجه منها.

ومن مظاهر العدول عن المطابقة العددية أيضاً التعبير بالمفرد عن الجمع فى قوله تعالى: ﴿لَرَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٢) والتعبير بالجمع عن المفرد فى مثل قوله تعالى: ﴿لَقُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾^(٣) وقد يعبر بالمتنى عن المفرد كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٤) ومن وقوع الجمع موقع المتنى فى اللفظة المسجوعة قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٥) ومما أوثر فيه جمع المذكر على المفرد المؤنث فى اللفظة المسجوعة قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَإِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٦)

* * * *

والخاصية الأسلوبية الأخيرة التى يقدمها المستوى الصرفى هى إثثار المظهر على المضمير. فمن قواعد العربية أن الدال إذا ورد فى موضع ثم امتد الحديث عنه بعد ذلك فالمناسب ربط الحديث بطريق الضمير العائد على الدال المظهر، ولكن الملاحظ فى النص القرآنى أنه

(١) طه: ١١٨ - ١١٩.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) إبراهيم: ٣١.

(٤) الرحمن: ٤٦.

(٥) فصلت: ١١.

(٦) الشعراء: ٤.

يعيد -فى بعض الأحيان- ذكر الاسم الظاهر مع إمكان الاستغناء بضميره عنه. ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١)، وحول السر الدلالى فى وقوع الظاهر هنا موقع المضمرة يقول الزمخشري: "أى عليهم وضعا للظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم"^(٢).

خلال هذا العرض المطول على امتداد الفصل لاحظ البحث كيفية احتضان السياق للفظة المسجوعة ثم إعادة إنتاج معناها مرة أخرى، وقد انطلقت الباحثة من زاوية نظر تُعنى باكتشاف سبل النص القرآنى التى هيأت للسجع أن يستقر فى موضعه من الصياغة، واستجلاء الغرض الدلالى الذى تحقق للنص من خلال ذلك الاستقراء، فجاءت هذه الزاوية بوصفها ضلعًا جديدًا مكملاً لتحليل السجع القرآنى -أسلوبيًا- واستخلاص سماته المميزة.

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) الكشاف، الزمخشري، جـ ١، ص ٨١.

الخاتمة

الخاتمة

يعد النص القرآنى أصلح النصوص لرصد ملامح التوظيف النموذجى لبنية السجع، الأمر الذى فتح أمام هذا البحث بوابة الدخول فى نقاش مع ملاحظات البلاغة وأحكام النقد. ولقد كان لكشوفات الرصد الأسلوبى واستبصارها الوصفى فاعليتها فى استجلاء التنفيذ الخاص للنص القرآنى فى استخدامه لهذه البنية البلاغية المنتجة للصوتية، وتوظيفها بما يخدم النص فى كل مستوياته، وجاء البحث ممارسة تعتمد الإحصاء بالقدر الذى يتيح للملاحظات التلخيص من الانطبائية، ويعين من خلال استقراء الدلالات الإحصائية على إيضاح نتائج ربما اختلفت وراء الحكم الذاتى المعتمد على الحدس.

ولقد توصل البحث إلى نتائج أذكر بعضها ليكون دليلاً على بعضها الآخر غير المذكور إلا فى متن البحث؛ منها:

١- أن هناك مجموعة من الخلفيات التى وجهت الفكر البلاغى فى تحركه على مستوى رصد تقنيات السجع والشرح والتعديد له، ومن هذه الخلفيات، تعريفه بالإحالة على القافية، وتعدد المفاهيم الخاصة به فى التراث العربى، فكل من الأمرين فاعليته فى صياغة قواعد السجع وتحديد أنواعه.

٢- كشفت الدراسة عن نزعة شكلية تحكم التناول البلاغى لبنية السجع، ويدل على ذلك التقعيدات التى تؤخذ عن القدامى بالتقنين للسجع من جهة الطول والقصر وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما.

٣- تغلغت الدراسة إلى قلب قضية السجع والفواصل وقد أظهرت أن الباحثين فى قضية الإعجاز سلكوا فى تفريقهم بين السجع والفاصلة طرقاً باعدت بينهم وبين إثارة القضية بشكل موضوعى.

٤- كشفت دراسة الوحدة السجعية باعتماد المعنى إجراءً تحليلياً للسجع القرآنى

عن الحد الأدنى والأقصى لعدد الآيات المشتركة في وحدة سجعية قرآنية، وكانت أكثر الوحدات السجعية شيوعاً في النص القرآني الوحدة المكونة من زوج من الآيات، وبدأ أن سورة النجم تسجل أكبر وحدة سجعية في القرآن الكريم مكونة من أربع وعشرين آية، هي بمثابة عائلة واحدة من التراكيب السجعية، تنتهي بصوت ختامى موحد كما تقوم حركة المعنى بوصفها علاقة تحتية بالربط بين هذه التراكيب صانعة منها وحدة دلالية. ومن ثم يتكشف أن نظام الوحدة السجعية القرآنية تجلى منفرداً بأسلوب خاص يتجاوز محاذير بلاغية ظلت قارة في مؤلفات البلاغيين العرب، ومن بين هذه المحاذير: أن الوحدة السجعية ينبغي ألا تطول درءاً للملل.

٥- كشفت الدراسة الأسلوبية الإحصائية عن سيطرة البنى السجعية على مساحة الأداء في النص القرآني، فنسبة السجع إلى الترسل تساوى تقريباً ٤: ١، وهذا يشي على المستوى الأسلوبى بسيطرة الإيقاع التكرارى أو ما يطلق عليه "المؤالفة" على المخالفة، كما يؤكد تشديد النص القرآني على شكل الرسالة، فالبنى السجعية التى تنتج الصوتية من خلال توحيد صوت الروى هى القاعدة بحيث لا يرد الترسل -غالباً- إلا عرضاً بين آيات كثيرة مسجوعة. ويكون لكل من السجع والترسل دوره الوظيفي في النص على النحو الذى تكشف للبحث.

٦- أظهرت الدراسة الأسلوبية عدداً من التوازنات الصوتية المتصلة بالسجع القرآني، والتى نتجت عن عمليات تكرار أو تراكم أو تشابه. من هذه التوازنات، الحضور اللافت للحروف الصامتة في منطقة الثقل السجعي، فقد بلغت نسبة ظهورها في أواخر الفاصلة القرآنية ٩٢ و٦%، بينما لم تتجاوز نسبة ظهور الحروف الصائتة (الألف، والياء) نحو ٤٢ و٧% وقد أرجعنا هذه الكثافة إلى أمور منها؛ ثراء العطاء المعجمي المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثل قوة ارتكاز إيقاعى.

٧- قادنا البحث إلى ملاحظة ثمانية حروف تتكرر في نهايات الفواصل بوصفها روياء، هى على الترتيب حسب درجة شيوعها: النون، الراء،

الميم، الألف، الدال، الباء، الياء، اللام، وهذه الحروف هي أشد الأصوات العربية وضوحاً في السمع، وأكثرها إسهماً في الإيقاع. وتعدد طرق النص القرآني في إحداث توازنات صوتية، وهو يبني معماره على نحو فائق من التنظيم المهيئ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن روى السجع موحداً في السورة بكاملها فإن النص يعتمد في تلوينه الإيقاعي إلى أصوات متقاربة في مخارجها وصفاتها مما يمد بناء النص بطابع سمعي مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربي الصوتية.

٨- كشفت الدراسة الأسلوبية عن مؤازرة "الالتزام" الصوتي للسجع، والالتزام يمثل نظاماً في النص القرآني. وقد دلّ على ذلك أن الآيات المسجوعة التي تخلّت عن الالتزام واعتدت بالجرس السجعي وحده لا تتجاوز نسبتها عن ٨٧ و ٨٨%، وقد بدا للبحث أن هناك نسقاً أساسياً في تكوين نظام الالتزام في النص القرآني، وذلك النسق يتمثل في تكرار حرف مدّ أو لين يسبق مباشرة روى السجع.

٩- كشفت الدراسة عن أن السجع القرآني جاء مغايراً من حيث طول فقراته للسجع العربي، فالنص يتوخى في طول العبارة المسجوعة أن يكون مناسباً لطول السورة وطبيعة المخاطبين، ويعد هذا مظهراً من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم. كما تثني للبحث النظر في القانون الذي يحكم هندسة المسافات في النص القرآني والمؤلفات العربية المسجوعة، وخرج من ذلك بأن للقرآن قانونه الخاص؛ إذ يعتمد على (مبدأ الوقت) لا مبدأ "النفَس" الذي تبدى كعنصر تكويني وضح فعله في طول العبارات المسجوعة في المقامات وأسجاع الجاهلية.

١٠- كما كشفت دراسة السجع القرآني عن عدم مصداقية أحكام القيمة التي أطلقتها البلاغة العربية فيما يتصل بالطول الأمثل للعبارة المسجوعة وأطول الآيات داخل الوحدة، فمثلاً وجدنا عدد الوحدات السجعية القرآنية التي جاءت متساوية الطول قليلة بشكل ملحوظ. الأمر

الذى يخالف حكمهم القيمي بأن السجع المتساوى الأطوال هو أحسن أنواع السجع منزلة.

١١- أظهرت متابعة العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب على المستويات: (النحوى، الصرفى، الدلالى) عددًا من الظواهر التى تهيئ لاستقرار الروى فى منطقة النقل السجعى؛ فعلى المستوى النحوى بدا ميل النص إلى استخدام مركبات اسمية تقرر فى ختام الآيات، تمثلت فى تراكيب وصفية وأخرى إضافية، وفى هذا إشارة إلى أن النص يستبطن الدلالة التأسيسية فى بنية تشكله اللغوى، حيث يضيف زائدًا دلاليًا إلى الناتج، وتجلت بعض ظواهر العدول، مثل: التقديم، والتأخير، والحذف، وهى ظواهر هيأت لاستقرار الفاصلة فى موضعها مؤدية الدورين: الإيقاعى والدلالى على خير وجه.

١٢- ومن الظواهر الأسلوبية النحوية التى تجلت ملازمة للسجع القرآنى سيطرة دينامية الحدث على الدال المسجوع الذى تتعين داخله بنية السجع، فكثيراً ما اختتمت الآيات بجملة فعلية، كما أن معظم الجمل الاسمية الواقعة فى ختام الآية سواء أكانت منسوخة أو غير منسوخة جاء خبرها إما جملة أو اسماً مشتقاً. ولأن الخطاب الموجه فى النص القرآنى يخاطب الذات الجماعية لذلك كانت واو الجماعة أكثر اللواحق التى لحقت بالأفعال من حيث الحضور الكمى داخله فى سياقها الذاتى، كما دخلت "الواو" فى السياق الذاتى للأسماء المشتقة بوصفها علامة محضة على الجمع، فيما كان السماح لوسائل تعبيرية -كالتقديم والتأخير والحذف- بإيتاء فعلها فى ختام الصياغة عاملاً أساسياً فى أن النون -التي تأتي عوضاً عن التنوين فى الأسماء المجموعة جمع السلامة والمثناة، وعوضاً عن حركة الإعراب فى الأفعال الخمسة- كانت أكثر الحروف تكراراً فى منطقة النقل السجعى.

١٣- كشف البحث عن عدد من ظواهر الترخّص فى علاقة اللفظة المسجوعة بسياقها وتجلي ذلك على مستوى كل من العلاقات السياقية الدلالية، والعلاقات السياقية الصرفية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب السماوية:

القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية

- ١- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث، القاهرة، سنة ١٩٦٧.
- ٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط٣، ١٩٧٩م.
- ٣- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦١.
- ٤- الأصول في النحو، ابن السراج، أبو بكر محمد ابن السري البغدادي، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٩٧٣.
- ٥- الأضداد، أبو بكر بن الإنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠.
- ٦- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- ٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- ٨- الأمالي، أبو علي القالي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- ٩- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، صححه وضبطه أحمد أمين، وأحمد الزيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج١، د.ت.
- ١٠- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ناصر الدين أحمد ابن المنير، ضمن كتاب "الكشاف" للزمخشري، دار عالم المعرفة، القاهرة، د.ت.
- ١١- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨٣.

- ١٢- الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦.
- ١٣- بحوث قرآنية ولغوية، الشيخ عبد الرحمن تاج، جمعها أبو بكر عبد الرازق، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٠.
- ١٤- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٦٩.
- ١٥- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٨.
- ١٦- البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧.
- ١٧- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع١٦٤، ١٩٩٢.
- ١٨- البلاغة العربية -قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، لونغمان للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧.
- ١٩- بناء الأسلوب فى شعر الحداثة - التكوين البديعى، محمد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٨٨.
- ٢٠- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: حسن السندوبى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ٢١- التبيان فى إعراب القرآن، العكبرى، أبو البقاء عبد بن الحسين بن عبد الله، مكتبة الدعوة، بالأزهر، د.ت.
- ٢٢- تحاليل أسلوبية، محمد الهادى الطرابلسى، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢.
- ٢٣- تحرير التعبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٣.
- ٢٤- التفسير البيانى للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، ع ٢٥، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٠.
- ٢٥- تفسير التحرير والتنوير، الظاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، د.ت. دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩٠.

- ٢٦- تفسير أبى السعود إرشاد العقل السليم، إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩٠.
- ٢٧- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥.
- ٢٨- التفسير الكبير، فخر الدين الرازى، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ٢٩- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٣٠- الجانب الصوتى للوقف فى العربية ولهجاتها، أحمد طه حسنين سلطان، مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٩١.
- ٣١- جواهر الأدب فى إنشاء وأدبيات لغة العرب، أحمد الهاشمى، بيروت، د. ت.
- ٣٢- جواهر الألفاظ، قدامة بن حعفر، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٣٢.
- ٣٣- الخصائص، ابن جنى، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦.
- ٣٤- دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣.
- ٣٥- دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٧٦.
- ٣٦- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٤.
- ٣٧- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، محمود شكرى الألوسى البغدادى، مكتبة التراث، القاهرة.
- ٣٨- الزمن فى القرآن الكريم، دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، بكرى عبد الكريم، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩.
- ٣٩- سر صناعة الإعراب، ابن جنى، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفراف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الناشر مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤.
- ٤٠- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، تحقيق: على فودة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.

- ٤١- شروح التلخيص - ويتضمن: مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للقروينى، ومواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى، وبهامشه حاشية الدسوقى، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
- ٤٢- الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩١.
- ٤٣- صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، أبى العباس أحمد القلقشندى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٨.
- ٤٤- الصحاح للجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٥٦.
- ٤٥- الصناعتين - الكتابة والشعر - أبو هلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- ٤٦- الطراز "المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى، المقتطف، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤.
- ٤٧- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكى، ضمن شروح التلخيص، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
- ٤٨- العروض وإيقاع الشعر العربى، محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحر اوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- ٤٩- العروض والقافية، دراسة فى التأسيس والاستدراك، محمد العلمى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٣.
- ٥٠- العروض والقافية دراسة ونقد، عبد الرحمن السيد، مطبعة قاصد خير، ط١، د.ت.
- ٥١- علم المعانى، كريمة محمود أبو زيد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
- ٥٢- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانى، القاهرة، ت: محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١.
- ٥٣- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، ت: عبد الله درويش، مطبعة العانى، بغداد، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧.

- ٥٤- غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري، دار الصفوة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥.
- ٥٥- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، عيد محمد شبابيك، مركز معالجة الوثائق، ط١، ١٩٩٣.
- ٥٦- فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ٢١، ١٩٩٣.
- ٥٧- فى اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، القاهرة ط٢، ١٩٥٢.
- ٥٨- القافية تاج الإيقاع الشعري، أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٥٩- القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث، عبد الصابور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.
- ٦٠- قضايا الأسلوب عند الباقلاني فى كتابه إعجاز القرآن، بركات رياض محمدى، رسالة ماجستير، عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٨.
- ٦١- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩.
- ٦٢- كشف اصطلاحات الفنون، التهانوى، الداخس، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ٦٣- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشري، دار عالم المعرفة، القاهرة، د. ت.
- ٦٤- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦.
- ٦٥- لسانيات الاختلاف، محمد فكرى الجزار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، ع ٤٣، ١٩٩٥.
- ٦٦- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، د. ت.
- ٦٧- المثل الثائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥.
- ٦٨- المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، على إسماعيل بن سيدة، تحقيق: مصطفى السقا، وحسين نصار، مكتبة مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، ط١، د. ت.

- ٦٩- مذكرة البلاغة، الشيخ حامد عوني، دار الكتاب العربي، مصر، د. ت.
- ٧٠- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطى، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى، دار التراث، القاهرة، ط٣، د. ت.
- ٧١- المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب، الأزهري، ت: رشيد عبد الرحمن العبيدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥.
- ٧٢- المصباح المنير، أبو العباس أحمد ابن محمد بن على الفيومى، طبعة وزارة المعارف، د. ت.
- ٧٣- المصباح فى علم المعانى والبيان والبدیع، بدر الدين ابن مالك، المطبعة الخيرية، ١٣٤١هـ.
- ٧٤- معانى القرآن، الفراء، ت: محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٧٥- مغنى اللبيب، ابن هشام، دار إحياء الكتب العلمية، فيصل، عيسى الباب الحلبى، ط٢، د. ت.
- ٧٦- مفتاح العلوم، السكاكى، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- ٧٧- المفردات فى غريب القرآن، الراغب الإصفهاني، ت: سيد كيلانى، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، ١٩٦١.
- ٧٨- مقامان الهمداني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٢٤.
- ٧٩- مقاييس اللغة، لابن فارس اللغوى، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١.
- ٨٠- المقتصد فى شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.
- ٨١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، دار ابن خلدون، د. ت.
- ٨٢- مقدمة اللزوميات، أبو العلاء المعرى، تحقيق: كامل الكيلانى، مصر، ط٢، ١٩٢٤.

- ٨٣- من الصوت إلى النص، مراد عبد الرحمن مبروك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، عدد ٥٠، ١٩٩٦.
- ٨٤- من قضايا اللغة مصطفى النحاس مطبوعات جامعة الكويت ط١، ١٩٩٥.
- ٨٥- منهاج البلغاء وسراج البلغاء، حازم القرطاجنى، تحقيق: محمد ابن الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.
- ٨٦- من وظائف الصوت اللغوى، محاولة لفهم صرفى ونحوى ودلالى، أحمد كشك، القاهرة، ط١، ١٩٨٣.
- ٨٧- مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربى، ضمن شروح التلخيص، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
- ٨٨- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢.
- ٨٩- موسيقى الشعر العربى، شكرى محمد عياد، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٨.
- ٩٠- نتائج الفكر فى النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهلى، تحقيق: محمد إبراهيم البناء، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤.
- ٩١- النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٢.
- ٩٢- النحو الوافى، عباس حسن دار المعارف، ط١١، ١٩٩٣.
- ٩٣- نسيج النص، ما يكون الملفوظ به نصا، الأزهر الزناد، المركز الثقافى العربى، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- ٩٤- النشر فى القراءات العشر، ابن الجزرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د. ت.
- ٩٥- النص الشعرى ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة الشباب، ١٩٨٩.
- ٩٦- نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
- ٩٧- نظرات فى تراثنا البلاغى، حسن طبل، دار الزهراء، ١٩٩٣.
- ٩٨- نظرية التبعية فى التحليل النحوى، سعيد حسن البحيرى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨.

٩٩- النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١.

١٠٠- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فخر الدين الرازى، تحقيق: إبراهيم السامرائى، ومحمد بركات حمدى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

١- البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائى لتحليل النص، هنرش بليث، ت: محمد العمرى، دراسات سال، ط١، ١٩٨٩.

٢- بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة: أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، ع٣، ١٩٩٠.

٣- البنيوية وما بعدها، من ليفى شتراوس إلى درايدا وجون سترول، ترجمة: جابر عصفور، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٠٦، ١٩٩٦.

٤- التشكيل الصوتى فى اللغة العربية، سلمان العانى، ترجمة: ياسر الملاح، النادي الثقافى الأدبى بجدة، ط١، ١٩٨٣.

٥- التفكيكية النظرية والممارسة، كريستوفر نوريس، ترجمة: صبرى محمد حسن، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٩.

٦- الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١١، ١٩٩٦.

٧- الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ترجمة: مبارك حنون ومحمد الوالى ومحمد أوراغ، دار توبقال، ط١، ١٩٩٦.

٨- الشفاهية والكتابية، والترج- أونج، ترجمة: حسن عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٨٢، الكويت، ١٩٩٤.

٩- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريف ودراسة: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، ١٩٨٥.

١٠- علم اللغة والدراسات الأدبية، برند شبلنر، ترجمة: محمد جاد الرب، دار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٨٧.

١١- نظرية تشومسكى اللغوية، جون ليونز، ت: حلمى خليل، دار المعرفة

الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥.

١٢- مدخل إلى الألسنية، بول فاجر وكريستيان بايلون، ت: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٢.

١٣- نظرية جديدة في العروض العربي، ستانسيلاس جويار، ترجمة: منجى الكعبي ومراجعة: عبد الحميد الدواخلى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.

١٤- النقد النصي، جزيل فلانسي، ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة: المنصف الشنوفى، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٢١، الكويت، ١٩٩٧.

رابعاً: المجلات والدوريات

١- أول من سمي الفاصلة، محمد الحساوى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٣١٤، القاهرة، ١٩٧٣.

٢- البديع في تراثنا الشعرى، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، مجلة فصول، مج ٤، ع ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

٣- سجع أم فواصل؟ أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٧، القاهرة، ١٩٧١.

٤- السجع فى القرآن، بنيته وقواعده، ديقين ج. ستيوارت، ترجمة: محمد بربرى، مجلة فصول، مج ١٢، ع ٣، ١٩٩٣.

٥- سجع القرآن فريد، أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٩، القاهرة، ١٩٧٢.

٦- السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن، الشيخ عبد الرحمن تاج، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٣٦، القاهرة، ١٩٧٥.

٧- الشعر وصفة الشعر فى التراث، حمادى صمود، مجلة فصول، تراثنا النقدى، مج ٦، ع ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

٨- علم الدلالة، جون لوينز، ت: مجيد الماشطة آخرين، كلية الآداب، البصرة، ١٩٨٠.

- ٩- على هدى الفواصل القرآنية، إبراهيم أنيس، مجلة مجمع اللغة العربية، البحوث والمحاضرات، القاهرة، ١٩٦٢.
- ١٠- مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي، محمد الهادي الطرابلسي، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع٢٨، ١٩٨٨.
- ١١- مدخل إلى اللغة واللسانيات، جون لوينز، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج١٤، ١٤٠٧، ١٩٨٧.
- ١٢- مفاتيح النغم في القرآن، نعيم اليافي، مجلة المنتدى، السنة الثامنة، ع٩٣، دبي، ١٩٩١.
- ١٣- من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج٩، ع٣٦، ١٩٨٩.

المراجع الأجنبية:

- 1- Cohesion in English language, M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, fifth imprecision 1983. p. 142.
- 2- Language, context and text, M. A. K Halliday and Ruqaiya Hasan: Aspects of language in social- semiotic perspective. Oxford university press, Oxford. 1985. p.10.
- 3- Le Genre séance: « une introduction »; Abdelfatah Kilito, studia Islamica, 43 (1976), p 29.
Russian Formalism History, V. Erlch, Mouton & Co., poris the Houge. 1955. P. 194.
- 4- Modern Trends in Islam. Gibb, H. A. R: the uni. Of chicogo, 1975. p. 4.

جامعة عين شمس
كلية الآداب

ملخص رسالة ماجستير
الباحثة
هدى عطية عبد الغفار

إشرافه
أ.د. محمد عبد المطلب أ.د. عاطف جودة نصر

الموضوع
السجع القرآني - دراسة أسلوبية

عنوان هذه الرسالة: السجع القرآنى - دراسة أسلوبية. وهو عنوان يحمل افتراضاً ضمنياً بأن السجع تجلى فى النص القرآنى على نحو خاص، وانطلاقاً من ذلك الافتراض كان منحنى التحليل أسلوبياً، يتتبع السجع القرآنى فى بنية النص الكلية بهدف استنباط خصائصه ولوازمه الأسلوبية على نحو ما تتجلى فى النص.

فالبحث دراسة أسلوبية تطبيقية تفيد من جهود البلاغيين والنقاد القدامى، وتدخل معهم فى نقاش أساسه ما تتوصل إليه من مستخلصات حول ظاهرة السجع فى النص القرآنى. وتستمد الدراسة من النتائج المعاصرة التى توصل إليها علم اللغة عوناً لها، خاصة ما يتصل منها بالصوتيات، كما أنها تعتمد المنهج الإحصائى واحداً من إجراءاتها التحليلية. والإحصاء يظفر بقيمة خاصة فى الدراسة الأسلوبية بالرغم من الانتقادات التى تطعن فى جدواه؛ إذ يفيد فى تحديد معدل تكرار الظاهرة ودرجة تكثيفها فى العمل، كما تتحدد من خلال الإحصاء الظواهر غير العادية بالنسبة لتوزيع العناصر الأسلوبية فى النص، مما قد يؤدى إلى طرح نتائج جمالية مهمة، تتكشف بينما يحاول الباحث أسكناء الدلالات الإحصائية.

وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت المقدمة الأسباب التى لأجلها اخترت هذا المنهج فى بحث السجع القرآنى، كما عرضت لأهمية موضوع البحث، والدراسات السابقة عليه.

ولأن السجع بنية بلاغية تم تأسيس مفهومها ومنظومة تقاليدها داخل التراث جاء الفصل الأول من الدراسة بوصفه تمهيداً نظرياً يحمل عنوان: "السجع فى التراث العربى"، يعرض لبنية السجع داخل سياقات نشأتها، راصداً جملة من الآراء الخلافية المتعلقة بالسجع: مفهوماً، وتقعيداً، وممارسة.

وتنتقل الدراسة من التمهيد النظرى إلى البحث التطبيقى، ولتأخذ الممارسة الأسلوبية - فى الفصل الثانى - دورها فى استخلاص نتائج متعلقة بالسجع القرآنى: (كمياً، وصوتياً، وشكلياً)، حيث ترصد الدراسة ميل النص القرآنى إلى

استخدام بنية السجع، وأنماط الوحدات السجعية في النص. وعلى مستوى "البناء الصوتي"، تتتبع الظواهر الصوتية ذات التردد الواضح في موضوع السجعة القرآنية، خاصة منطقة الثقل السجعي، والمهيئات الصوتية التي تسبقها، من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، كما تهتم برصد عناصر التناسق السجعي في متن الآيات وعلاقتها بالسجع الختامي بوصفها جزءاً من فعل النص في إحداث إيقاع صوتي صاعد، هذا وتعنى الدراسة بالرخص الصوتية من حذف وزيادة، تلك الرخص التي تظهر في منطقة الثقل السجعي. وفي مستوى البناء الشكلي تتابع أطوال العبارات السجعية وطرق ورودها في الوحدات طولاً وقصراً. وفي سبيل إيضاح المنهج الأسلوبى في ذروة تطبيقه، عمد البحث إلى الجداول الإحصائية لرصد وتتبع تكرار اللوازم الأسلوبية في السجع القرآنى في كلا البنائين: الصوتي والشكلي.

أمّا الفصل الثالث فقد خصص لتناول السجع القرآنى في علاقته بالسياق اللغوى، ويعنى بحث السجع في سياقه اللغوى؛ دراسة العلاقات التكوينية الرابطة بين اللفظة المسجوعة والتركيب، وكيفية احتضان التركيب لها، ثم إعادة إنتاج معناها مرة ثانية، وهو يُعنى بتتبع الظواهر الأسلوبية التي مهدت لاستقرار السجع في منطقة الثقل السجعي، وذلك من خلال تحرك على كافة مستويات الوصف اللغوى: المستوى النحوى، والدلالى، والصرفى.

وكانت الخاتمة وقفة أخيرة لرصد ما توصلت إليه الدراسة من نتائج؛ منها:

- (١) كشف تناول بنية السجع في التراث العربى عن مجموعة من الخلفيات التي وجهت الفكر البلاغى في تحركه على مستوى التقعيد والشرح للسجع، ومن هذه الخلفيات، تعريفه بالإحالة على القافية، وتعدد المفاهيم الخاصة به في التراث العربى، وقد كان لكل منهما أثر ظاهر في بلورة قواعد السجع وتحديد أنواعه.
- (٢) كشف البحث عن وجود نزعة شكلية تحكم التحرك البلاغى في تناوله لبنية السجع، ويدل على ذلك التقعيدات التي تؤخذ عن البلاغيين القدماء بالتقنين

للسجع من جهة الميزان الصرفي، ثم من جهة الطول والقصر وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما.

(٣) أظهرت الدراسة أن الباحثين في قضية الإعجاز سلکوا في تفريقهم بين السجع والفصلة طرقاً باعدت بينهم وبين إثارة القضية بشكل موضوعي.

(٤) كشفت دراسة الوحدة السجعية باعتماد المعنى إجراءً تطبيقياً عن الحد الأدنى والأقصى لعدد الآيات المشتركة في وحدة سجعية قرآنية، وكانت أكثر الوحدات السجعية شيوعاً في النص القرآني الوحدة المكوّنة من زوج من الآيات، وبدا أن سورة النجم تسجل أكبر وحدة سجعية في القرآن مكوّنة من أربع وعشرين آية، هي بمثابة عائلة واحدة من التراكيب السجعية، إذ تقوم حركة المعنى بوصفها علاقة تحتية بالربط بينها. ومن ثم يتكشف أن نظام الوحدة السجعية القرآنية تجلّى منفرداً بأسلوب خاص يتجاوز محاذير بلاغية ظلت قادرة في مؤلفات البلاغيين العرب، ومن بين هذه المحاذير: أن الوحدة السجعية ينبغي ألا تطول درءاً للملل.

(٥) كشفت الدراسة الأسلوبية الإحصائية عن سيطرة البنى السجعية على مساحة الأداء في النص القرآني، فنسبة السجع إلى الترسل تساوى تقريباً ٤ : ١، وهذا يشي على المستوى الأسلوبى بسيطرة الإيقاعى التكرارى أو ما يطلق عليه "المؤالفة" على المخالفة، كما يؤكد تشديد النص القرآني على شكل الرسالة، فالبنى السجعية هي القاعدة بحيث لا يرد الترسل -غالباً- إلا عرضاً بين آيات كثيرة مسجوعة.

(٦) أظهرت الدراسة الأسلوبية عدداً من التوازنات الصوتية المتصلة بالسجع القرآني، والتي نتجت عن عمليات تكرار أو تراكم أو تشابه. من هذه التوازنات، الحضور اللافت للحروف الصامتة في منطقة النقل السجعي، فقد بلغت نسبة ظهورها في أواخر الفاصلة القرآنية ٩٢ و٦%، بينما لم تتجاوز نسبة ظهور الحروف الصائتة (الألف، والياء) نحو ٧٤ و٢%، وقد أرجعنا هذه الكثافة إلى أمور منها؛ ثراء العطاء المعجمي المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثل قوة ارتكاز إيقاعى.

(٧) قادنا البحث إلى ملاحظة ثمانية حروف تتكرر في نهايات الفواصل بوصفها رويًا، هي على الترتيب حسب درجة شيوعها: النون، الراء، الميم، الألف، الدال، الباء، الياء، اللام، وهذه الحروف هي أشد الأصوات العربية وضوحًا في السمع، وأكثرها إسهامًا في الإيقاع. وقد تعددت طرق النص القرآني في إحداث توازنات صوتية، وهو يبنى معماره على نحو فائق من التنظيم المهيأ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن رويّ السجع موحدًا في السورة بكاملها فإن النص يعتمد في تلوينه الإيقاعي إلى أصوات متقاربة في مخارجها وصفاتها مما يمد بناء النص بطابع سمعي مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربي الصوتية.

(٨) كشفت الدراسة الأسلوبية عن مؤازرة "الالتزام" للسجع، والالتزام يمثل نظامًا في النص القرآني، وقد دلّ على ذلك أن الآيات المسجوعة التي تخلّت عن الالتزام واعتدّت بالجرس السجعي وحده لا تتجاوز نسبتها عن ٧٤ و ٨٠%، وقد بدا للبحث أن هناك نسقًا أساسيًا في تكوين نظام الالتزام في النص القرآني، وذلك بتكرار حرف مدّ أو لين يسبق مباشرة رويّ السجع.

(٩) كشفت الدراسة عن أن السجع القرآني جاء مغايرًا من حيث طول فقراته للسجع العربي، فالنص يتوخى في طول العبارة المسجوعة أن يكون مناسبًا لطول السورة وطبيعة المخاطبين، ويعد هذا مظهرًا من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم.

(١٠) كما كشفت دراسة السجع القرآني عن عدم مصداقية أحكام القيمة التي أطلقتها البلاغة العربية فيما يتصل بالطول الأمثل للعبارة المسجوعة وأطول الآيات داخل الوحدة، فمثلاً، كانت الوحدات السجعية القرآنية التي جاءت متساوية الطول قليلة كميًا. الأمر الذي يخالف حكم البلاغيين القيمي بأن السجع المتساوي الأطوال هو أحسن أنواع السجع منزلة.

(١١) أظهرت متابعة العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب على المستويات: (النحوي، الصرفي، الدلالي) عددًا من الظواهر التي تهئ لاستقرار الروي في منطقة الثقل السجعي؛ فعلى المستوى النحوي بدا ميل النص إلى استخدام مركبات اسمية تقرر في ختام الآيات، تمثلت في تراكيب

وصفية وأخرى إضافية، وفي هذا إشارة إلى أن النص يستبطن الدلالة التأسيسية في بنية تشكله اللغوي، حيث يضيف زائداً دلاليًا إلى الناتج، وتجلت بعض ظواهر الترخص النحوي التي هيأت لاستقرار الفاصلة في موضعها مؤدية الدورين: الإيقاعي والدلالي على خير وجه.

مستخلص

البحث دراسة أسلوبية تطبيقية تفيد من جهود البلاغيين والنقاد القدامى، وتدخل معهم في نقاش أساسه ما تتوصل إليه من مستخلصات حول ظاهرة السجع في النص القرآني. وتستمد الدراسة من النتائج المعاصرة التي توصل إليها علم اللغة عوناً لها، خاصة ما يتصل منها بالصوتيات، كما أنها تعتمد المنهج الإحصائي واحداً من إجراءاتها التحليلية. والإحصاء يظفر بقيمة خاصة في الدراسة الأسلوبية بالرغم من الانتقادات التي تطعن في جدواه؛ إذ يفيد في تحديد معدل تكرار الظاهرة ودرجة تكثيفها في العمل، كما تتخذ من خلال الإحصاء الظواهر غير العادية بالنسبة لتوزيع العناصر الأسلوبية في النص، مما قد يؤدي إلى طرح نتائج جمالية مهمة، تتكشف بينما يحاول الباحث أسكناه الدلالات الإحصائية.

Ain shams university
Faculty of Arts
Arabic lang. and lit. dept

Summary
Master thesis

Presented by

Hoda Atia Abdul Ghaffar

Subervised
By

Prof: Mohammed Abdul Mottaleb
Prof. of criticism and rhetoric
Fac. Of arts - Ain shams university

Prof: Atef Guda Nasr
prof: of criticism and literature
fac.of arts -Ain shams university

The Quranic Saj' -A stylistic study.

"The Quranic Saj' - "A stylistic study."

The title of this study is: "The Quranic Saj' -A stylistic study". The title denotes an underlined hypothesis namely that rhymed prose emerges in a special way in the Quran. the method applied in this research is the academic one of stylistic analysis pointing towards the specific stylistic features of the Quranic Saj'.

The research is an applied stylistic study which benefits from the efforts of

pervious critics of rhetoric. The study also makes use of the modern science of linguistics, specially phonetics along with statistics.

This study falls into an introduction, three chapters and a conclusion. The introduction, lays out why I did decide to carry out such a method in this study, and it also speaks about why the study is important in relation to the literature.

The first chapter is entitled "Saj' in Arabic Heritage". It deals with the structure of rhymed prose in its origin and early beginnings. it records some of the controversial views concerning the concept, theory and practice of rhyme prose.

In the second chapter the study applies its stylistic analysis to the Quranic Saj' as for as its quantity, phonetic levels and from ane concerned. this reveals how the holy Quran tends to use Saj' and its different units. As for the phonetic level to studies the sounds with light vibration in Quranic. Saj', as well as its stresses, syllables, phonemes and phonetic environment. The study thus wants to point out the function of rhyme due to this rhymed prose as well as the harmony within the verses in relation to its ending rhyme the study is also intersected in

phonetic license allowing for deletion and addition, specially when there is a stress in syllables As for the form the study traces the longest rhymed sentences.

The third chapter traces the Quranic Saj' in relation to its linguistic context. the chapter traces the grammatical, semantic and morphological levels of rhymed prose in relation to its form and meaning The conclusion sums up the findings of the study as follows:

- 1) Arabic heritage has been discovered to be much involved in rhyme and consequently in rhymed prose with all its types.
- 2) Old rhetoricians tended to hold to formalistic attitude in their dealings with the morphological rules of rhymed prose.
- 3) The study has also showed how the researchers of the wondrous nature of the Quran distinguished between rhymed prose and the Quranic end rhyme excluding thereby many objective views on this issue.
- 4) The most popular Quranic Saj' is that between two verses. The "Nijm" surah includes the largest number of rhymed prose ranging to twenty for verse. This goes beyond rhetorical precautions that rhyme should not exceed too much to avoid boredom.
- 5) The stylistic study revealed how the rhymed prose units permeate the performance of the Quranic text, as the rote of rhymed prose to prose is 4:1.
this shows the importance of the form the message m the Holy Quran. The from of prose only emerges in between a lot of rhymed prose.
- 6) The study has shown how consonants were much used in Quranic stresses with a 92.6 % percentage , whereas the vowels were only 7.42 %. this is justified

by the rich rhythm of the consonants.

7) Eight letters have been found to be repeated in the verse endings, namely Alnoon, Arraa, Almeem ,AlAlif. Aldal , Mlbaa , Alyaa , Allam. these letters are the most obvious in listening as well as rhythm. the Quranic text either uses the same rhyme or at least semisimilar sounds giving a chance for and

making use of phonetic resemblance.

8) Commitment to a single rhyme system has been only broken by 8.74%.

9) The study also shows how the Quranic Saj' differs from Arabic rhymed prose in relation to its length. the Quranic text takes into consideration the length of the rhymed sentence in parallelism to the length. of the surah and the nature of the addressees. this is one of the features of the wondrous nature of the Quran.

10) The study of Quranic Saj' showed how it violated and discredited the ideal - length rules of Arabic rhetoric's we find, for example, that similar rhymes are very rare in the Quran

11) On the grammatical level, the text tends to use nominal units coming at the end of verses. other aspects have been found to be used such as fronting, inversion and deletion. these phenomena account for the ideal rhythmic and semantic levels of the text.

Summary

"The Quranic Saj' - "A stylistic study."

The research is an applied stylistic study which benefits from the efforts of previous critics of rhetoric. The study also makes use of the modern science of linguistics, specially phonetics along with statistics.

This study falls into an introduction, three chapters and a conclusion. The introduction, lays out why I did decide to carry out such a method in this study, and it also speaks about why the study is important in relation to the literature.

The first chapter is entitled "Saj' in Arabic Heritage". In the second chapter the study applies its stylistic analysis to the Quranic Saj' as for as its quantity, phonetic levels and from ane concerned. The third chapter traces the Quranic Saj' in relation to its linguistic context. The conclusion sums up the findings of the study as follows.

